أعلام المسلمين
٣٩

العز بن عبد السلام

سلطان العلماء وبائع الملوك
الداعية، المصلح، القاضي، الفقيه
الأصولي، المفسر
(٥٧٧هـ - ٦٦٠هـ)

الدكتور محمد الزحيلي

دار القلم
دمشق

أعلام المسلمين
٣٩

العز بن عبد السلام

سلطان العلماء وبائع الملوك
الداعية، المصلح، القاضي، الفقيه
الأصولي، المفسر
(٥٧٧هـ - ٦٦٠هـ)

تأليف
الدكتور محمد الزحيلي

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

العز بن عبد السلام

هـذا الرَّجـل

* «ابن عبد السلام أفْقَهُ مِنَ الغَزَالي».

ابن الحاجب

* «كان ابنُ عبد السلام أحدَ سلاطين العلماء».

ابن دقيق العيد

* «أحدُ فقهاء هذا المذهب، ممن فرّع على أصوله، وهذّب، ورأس فقهاء بلده».

أبو بكر بن مسدي الأندلسي

* «كان علمَ العصر في العلم. . .، وشهرتُه تغني عن الإطناب في ذكره، والإسهاب في أمره».

عز الدين الحسيني

* «بلغ رتبةَ الاجتهاد، وانتهت إليه رئاسةُ المذهب، مع الزهد والورع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصلابة في الدين. . .، وقصده الطلبة من الآفاق، وتخرج به أئمة».

الحافظ الذهبي

* «شيخ الإسلام، وبقية الأعلام، الشيخ عز الدين. . . ودرَّس وصنف وأفتى، وبرع في المذهب، وبلغ رتبة الاجتهاد، وقصده الطلبة من

البلاد، وتخرج به أئمة، وله الفتاوى السديدة، وكان ناسكاً، ورعاً، أمّاراً بالمعروف، نهّاء عن المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم».

الكتبي

* «شيخ الإسلام والمسلمين، وأحد الأئمة الأعلام، سلطان العلماء، إمام عصره بلا مدافعة، القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه، المطلع على حقائق الشريعة وغوامضها، العارف بمقاصدها».

ابن السبكي

* «شيخ المذهب، ومفيد أهله. . .، وبرع في المذهب، وجمع علوماً كثيرة، وانتهت إليه رئاسة الشافعية، وقُصِد بالفتاوى من الآفاق. . .».

ابن كثير

* «شيخ الإسلام، سلطان العلماء،. . . وبرع في الفقه والأصول والعربية. . .، مع الزهد والورع، وبلغ رتبة الاجتهاد».

السيوطي

* «الإمام، العلامة، وحيد عصره، سلطان العلماء. . .، وبرع في الفقه والأصول والعربية، وفاق الأقران والأضراب، وجمع بين فنون العلم من التفسير والحديث والفقه واختلاف أقوال الناس ومآخذهم،. . . وبلغ رتبة الاجتهاد، ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد، وصنف التصانيف المفيدة».

ابن العماد الحنبلي

* «سلطان العلماء، وفحل النجباء، المقدم في عصره على سائر الأقران بحر العلوم والمعارف، والمعظم في البلدان، ذو التحقيق والإتقان، والعرفان والإيقان. . .».

اليافعي اليمني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد، وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده، أنزل في محكم آياته: ﴿ومنْ أحسنُ قولاً ممن دَعا إلى الله وعملَ صالحاً، وقالَ إنَّني منَ المُسْلمين﴾ فصلت/٣٣، وقال تعالى: ﴿أُدعُ إلى سبيلِ ربِّك بالحكمةِ والموعظةِ الحَسَنة، وجادلْهم بالتي هي أحسنُ، إنَّ ربَّكَ هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيلِه، وهو أعلمُ بالمهتدين﴾ النحل/١٢٥.

وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، ولحق بالرفيق الأعلى.

اللهم صلِ وسلم وبارك على هذا النبي الأمي، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه إلى يوم الدين.

وبعد: فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**العلماءُ ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»[١]، وقال أيضاً: «لا تزال طائفة من أمتي قائمةً بأمر الله، لا

---

(١) هذا جزء من حديث رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي. (انظر: الفتح الكبير ٣/١٩٩، الترغيب والترهيب ١/٩٤).

يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمرُ الله وهم ظاهرون على النّاس»[1].

وتحقيقاً لهذه الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة التي تعتبر من معجزات النبوة في التحدث عن الغيب والمستقبل، فقد ثبت قطعاً بالاستقراء التاريخي، في كل عصر ومكان، وجود العلماء العاملين، والأئمة المخلصين، والدعاة الصادقين، الذين يحملون هذا العلم والدين، ويبلغونه للناس، وينفون عنه الخبث، ويخلصونه من الشوائب التي تعلق به، والأدران التي تلصق بجوانبه، والشبهات التي تثار حوله، والباطل الذي يقذف في طريقه، أو يشوه جوهره ومعدنه، أو يحاول أن يقلب قيمه ومبادئه، أو يستغلها ويتاجر بها.

هؤلاء العلماء الأعلام هم الذين امتلأت بهم صفحات التاريخ، وخلدت ذكرَهم المصنفات الكبيرة والصغيرة، العامة والخاصة، الشاملة والمتفرعة، وهم الذين ورد الاختيار على بعضهم في سلسلة «أعلام المسلمين».

ومن هؤلاء القاضي الفاضل عبد العزيز بن عبد السلام، المعروف بالعز بن عبد السلام، والمشهور بسلطان العلماء، وبائع الملوك، الفقيه الشافعي، المتوفى سنة ٦٦٠ هـ والذي سعدت بالكتابة عنه في المرحلة

---

(١) هذا الحديث رواه أحمد والبخاري ومسلم عن معاوية رضي الله عنه مرفوعاً، وروى مسلم والترمذي وابن ماجه عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك» ورواه البخاري ومسلم عن المغيرة رضي الله عنه بلفظ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون» ورواه الحاكم عن عمر رضي الله عنه بلفظ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة». (انظر: الفتح الكبير ٣/٣٢١).

الرابعة من كتبي في هذه السلسلة، بعد «الإمام الجويني»، و «القاضي البيضاوي»، و «الإمام الطبري».

ويرجع الحرص في الكتابة عن ترجمة هؤلاء العلماء الأعلام إلى تذكير الخلف بما كان عليه السلف، وبالمواقف المشهودة التي سجلها التاريخ لهم، وأن الله تعالى يحقق المعجزة النبوية في الإخبار عن وجود الدعاة والعلماء والأئمة الذين يرفعون مشعل النور والعلم، وهدي السماء حتى تقوم الساعة، وأنه يوجد - في كل عصر - عدد من العلماء يؤدون الأمانة، ويبلغون الرسالة، ويقتفون سيرة الرسل، ويحملون ميراث الأنبياء، وينقلون السر الإلهي من جيل إلى جيل، مع التذكير أن طلاب العلم اليوم، وعلماء الشرع، هم من هذه السلسلة، وحلقة في هذه الدائرة، إذا توفرت فيهم الشروط، وقاموا بممارسة المهمة والدعوة، كل بمقدار ما يعمل، ﴿ولكل درجاتٌ مما عملوا﴾ الأنعام/١٣٢.

العلماء منارة الهدى:

ومن هنا تبوأ العلماء هذه المكانة السامية، فكانوا منارات الهدى لأمتهم، ومبعث الرجاء لشعوبهم، وكانت أقوالهم وأفعالهم قد غيرت مجرى التاريخ، وكانت مفترق الطرق بين الذل والعزة، والهزيمة والنصر، والضعف والقوة، والاستخذال للأعداء والاعتزاز بالله ودينه، ويأتي في قمة هذه الكوكبة الخالدة العز بن عبد السلام الذي ملأ الدنيا بسمعته العطرة، وشغل الناس بجرأته النادرة، ومواقفه المشهودة، وخاصة أنه في زمان وعصر يشابه - إلى حد ما - عصرنا الحاضر، وأخبر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «يُوشِك أنْ تَدَاعَى عليكم الأممُ من كلِ أُفُقٍ، كما تَدَاعى الأَكَلَةُ إلى قَصْعتها، قيل: يا رسول الله، فمِنْ قِلَّةٍ نحن يومئذ؟ قال: لا، بل أنتم يومئذ كثيرٌ، ولكنكم غُثَاءٌ كغُثَاء السَّيل، ولَيَنْزِعَنَّ اللّهُ من صدور عدوِكم

المهابةَ، وليَقْذِفَنَّ اللَّهُ في قلوبكم الوَهْن، فقال قائل: يا رسولَ الله، وما الوَهْنُ؟ قال: حبُّ الدنيا، وكراهيةُ الموت»(١).

فهذا حديث نبوي شريف يكاد أن يكون معجزة للرسول ﷺ، ويخبر به ﷺ عن الغيب والمستقبل - بما يطلعه عليه الوحي - ويصوِّر حال المسلمين، وقد تداعت عليهم الأمم الاستعمارية، والشعوب المعادية، والحكام المأجورون، والقوانين المستوردة، والغزو الفكري، فاحتلوا أرضهم وديارهم، واستنزفوا خيراتهم، وسلبوا كنوزهم، وتقاسموا النفوذ عليهم، والمسلمون في ضياع وتمزق، وتردد واضطراب، وتخاذل واستسلام، وأعدادهم كثيرة، وثرواتهم ضخمة، وهم ملايين وملايين، ولكنهم غثاء كغثاء السيل، ينعدم فيهم العقل والوعي، والتفكير والتخطيط، ويفقدون الرجال الذين يحملون الأعباء، ويتحملون المسؤولية، وخاصة رجال السلطة، ورجال الدعوة.

وهنا يطل علينا التاريخ بمواقف الرجال المشهودة، الذين كانوا أقوى من الجيوش، وتهتز أمامهم العروش، ليقول لنا: جدِّدوا مواقف الأجداد، وسيروا على خُطَى الآباء، وإن هذه الأمة لم ينضب معينها، ولم يجف خيرها، ولم تنقطع بركاتها، وإن الأرحام التي أنجبت أمثال العز، وبلاد الشام والكنانة التي عاش في ربوعها العز لا تزال على العهد، وإن المُثُل والقيم والمبادىء والأفكار التي تغذى بها العز وأمثاله لا تزال محفوظة بذاتها، لتكون كغيث السماء يهطل على الأرض الصالحة الطيبة فتنبت خيراً بإذن ربها.

اختيار العز:

إن التاريخ الإسلامي زاخر بالعلماء الأعلام، والأئمة الأفذاذ،

---

(١) هذا الحديث رواه الإمام أحمد في (المسند ٢/ ٣٥٩، ٥/ ٢٧٨) وأبو داود في (سننه ٢/ ٤٢٦) عن أبي هريرة وثوبان رضي الله عنهما. (وانظر: الفتح الكبير ٣/ ٤٣٨).

والفقهاء البارزين وغيرهم، مما يستوجب دراسة حياتهم لأهداف كثيرة.

وإن معرفة سيرة العز بن عبد السلام، ودراسة حياته، والتعمق في بحثه ومواقفه تحقق الفوائد والمنافع المقصودة من سير سائر الأعلام، ولكنه ينفرد عن غيره بأمرين، كانا سببَ اختياره عن غيره، وهما:

١ ـ إن الظروف الراهنة في عالمنا الإسلامي عامة، وعالمنا العربي خاصة، وفي بلاد الشام ومصر بشكل أخص، تشبه الأحوال والظروف والعصر الذي عاشه العز بن عبد السلام، وأحاط به.

٢ ـ إن الأمل والرجاء والثقة بالله تعالى أن يكرم هذه الأمة، ويرزقها الفيض الإلهي، ويهيىء لها رجلًا فذاً، وعالماً مجاهداً، وداعية صادقاً، وقاضياً عدلاً مثل العز بن عبد السلام، ومن أعانه على الحق، وشاركه في النصر، وأعاد للأمة كيانها، ووجودها، وردها إلى رشدها مثل عماد الدين زنكي أمير الموصل، ونور الدين محمود زنكي الملك العادل الشهيد، وصلاح الدين الأيوبي، والملك العادل أخي صلاح الدين، والملك المظفر قُطُز، والملك الظاهر بيبرس الذين كانوا جند الله في الشام ومصر وحرروها من التتار والصليبيين، وحكموا بالعدل، وأقاموا شرع الله، وفتحوا المدارس لتحقيق ذلك.

ونكرر القول: إن التربة التي أنبتت العز وأمثاله، والقيم التي تربوا عليها، والمثل التي حملوها، والسبل التي استعانوا بها، والمقاصد التي سعوا إليها، لا تزال متوفرة وموجودة في هذه البلاد، وفي هذا الزمن، وذلك بفضل الله تعالى ونعمته، وبشارته، ووعده حتى تقوم الساعة.

مظاهر العظمة والشهرة والخلود:

وهذا يفرض علينا أن نذكر أهم العوامل لتحقيق ذلك، فنقول: إن القدرات الشخصية، والملكات الإنسانية، مِنَحٌ إلهية، ومَوَاهب ربَّانية، ويشترك معظم الناس بمعدل وسط فيها.

فإن زادت مَوْهِبَة أو مَلَكة عند شخص تميّز عن غيره، وبزَّ أقرانه، وفاق معاصريه، وتفرد في مجتمعه، ودخل في سجل الخالدين والعظماء.

وإن تمتع آخر بالنبوغ والتميز في موهبتين أو مَلَكتين ازداد تألقاً وشهرة وإنتاجاً، ولفت الأنظار، وجذب الأفئدة، وانتشرت سيرته وسمعته وأعماله.

وإن فاض الخير والعطاء الإلهي لإنسان في ثلاث مواهب أو ملكات فأكثر، صار صاحبها نجماً لامعاً، وشمساً ساطعة، وعلماً بارزاً، وحجة على الناس، ومثلاً أعلى، ليعم فضله البلاد والعباد، وسائر الأزمان، وصار نادرة العصر والتاريخ.

وهذا ما توفّر في صاحبنا العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى:

- فهو الفقيه النابه الذي بلغ رتبة الاجتهاد، وكان كتاباه «قواعد الأحكام» و«الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز أو مجاز القرآن» برهاناً على تمتعه بملكة الاجتهاد في وضع القواعد، واستنباط الأحكام، والتعمق في فهم نصوص القرآن والسنة.

- وهو القاضي العادل الذي عرف التاريخ مواقفه المشهورة، وقضاءه المبرم، فصار مَضْرِب المثل في إحقاق الحق، وإبطال الظلم، ورد الحقوق إلى أصحابها، والدفاع عن حقوق الأمة والشعب، وحماية المقدسات.

- وهو الداعية المصلح الذي يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، فإذا اعترضته الصعاب، أو استكبر الباطل، كان كالجبل الأشم، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، لا يخشى في الله لومة لائم، ولا سطوة جبار، ولا تجمّع الأعداء، ولا مهاجمة الجيوش، حتى سطر التاريخ رجولته، وصرامته، وصلابته في الدين، بأحرف من نور.

ـ وهو فوق ذلك: العالم العامل، والمفسر اللامع، والمفتي الأمين، والخطيب المفوه، والمربي الناجح، والمعلم الفائق، والمجاهد الصادق، والناسك الورع، والزاهد في الدنيا، الطامع برضاء الله في الآخرة، مع حسن التأليف والتصنيف والمحاضرة.

ـ وهو الرجل كل الرجل، الرجل بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى حقيقي وتاريخي واصطلاحي، وخاصة في الزمان والمكان الذي يعزّ فيه الرجال، ويصبح كثيرون أشباه رجال، بينما يعتبر العز نفسه جزءاً من الحق، ويستظل به، فيقول: «ينبغي لكل عالم إذا أُذِلَّ الحقُّ، وأُخْمِلَ الصوابُ أن يبذلَ جُهْدَه في نصْرهما، وأن يجعل نفسَه بالذُّل والخُمُول أولى منهما، وإن عزَّ الحقُّ فظهر الصوابُ أن يستظِلَّ بظلِّهما، وأن يَكْتَفِي باليسير من رَشاش غيرهما»[1].

سعة البحث:

وفي الحقيقة فإن من أراد استيفاء الكتابة عن العز رحمه الله تعالى، وتحليل شخصيته، واستنباط الفوائد والعبر منها، فإنه يحتاج إلى مجلد ضخم، أو عدة كتب في سلسلة واحدة، ولم يبخسه علماء التاريخ والتراجم والطبقات حقه، وعرضوا سيرته باختصار كل بحسب منهجه وخطته، وأفرد كثير من العلماء والباحثين ترجمة للعز، في القديم والحديث، وظهرت دراسات موسعة ومستقلة عن العز الفقيه والأصولي، والعز المفسر، والعز الإمام المجتهد، وذلك في رسائل ماجستير ودكتوراه، مع الدراسات العديدة التي تناولت شخصية العز من جوانبها المختلفة، وعطرت المجالس والمكتبات بأقواله وأفعاله، وسيرته ومواقفه[2].

---

(١) هذه قطعة من «رسالة العز في العقيدة» أو «ملحة الاعتقاد»، انظر طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٩، ٢٢٨.

(٢) انظر الدراسة التي أعدها الأستاذ الشاب إياد خالد الطباع في تقديم كتاب «شجرة =

خطة البحث:

وكان من فضل الله تعالى علينا الذي يستحق الشكر الجزيل، أن وفقنا للمساهمة في هذه الدراسات ضمن سلسلة «أعلام المسلمين» وبمقدار محدد، مع التركيز على ناحيتين:

١ ـ دراسة عامة لشخصية العز، وترجمته الشخصية، وأحواله الذاتية، ومواقفه الخالدة.

٢ ـ عرض لشخصية العز العلمية، بذكر أهم الجوانب التي مارسها، أو شارك فيها، أو اشتهر بها.

ولذلك جاءت الدراسة في تمهيد وبابين وخاتمة:

عرض **التمهيد** صورة مصغرة عن العصر الذي عاش فيه العز، مع التركيز على الناحية السياسية، والعلمية، وصورة العلماء ومكانتهم.

وتضمن **الباب الأول** سيرة العز الشخصية، بذكر هويته، وولادته ونشأته، وطلبه للعلم، وشيوخه، وتلامذته، وصفاته الخُلُقية، وأعماله ومناصبه، وإنتاجه، وكتبه، ومواقفه المتنوعة التي استحقت الثناء عليه بإجماع العلماء في عصره، وبعد وفاته، وذلك في سبعة فصول.

وشمل **الباب الثاني** سيرة العز العلمية من خلال كتبه ومؤلفاته ومجمل رسائله التي تدل على علمه الغزير، وفهمه الدقيق لأسرار الشريعة، وإدراكه العميق لمقاصدها، وإحاطته الواسعة لعلومها في الفقه وأصوله، والتفسير وعلوم القرآن، والعقيدة والإيمان والتصوف والزهد والورع والأخلاق، والتربية والبيان، وذلك في سبعة فصول.

= المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال» للعز بن عبد السلام، وفيه تعداد للكتب التي ترجمت للعز بن عبد السلام في كتبهم، ومن أفرد العز بالترجمة قديماً وحديثاً، (ص ١٦ ـ ٢٠)، وسوف نشير إلى أهم هذه المصادر والمراجع والدراسات في الفصول القادمة.

وجاءت **الخاتمة** مبينة خلاصة البحث ونتائجه.

منهج البحث وأهدافه:

والتزمت في البحث الرجوع إلى المصادر الأصيلة، والمراجع المعتمدة، والدراسات الحديثة، والبحوث الخاصة بالعز وعصره، مستفيداً المادة العلمية، والمعلومات الأساسية من المراجع والمصادر، ومستلهماً أهم الدروس والعبر والفوائد من الجهود المبذولة في هذا المضمار، مع ما يفتح الله عليَّ فيه من إضافات وزيادات.

كما اعتمدت في البحث على الجمع بين الأخبار التاريخية، والأحداث المتصلة بالعز، وبين التحليل والمناقشة والمقارنة والاستقصاء والترجيح بما أراه الحق والصواب، فإن أصبت الحق فذلك من فضل الله عليَّ، وإن جانبت الصواب فأسأل الله تعالى العفو، وأفتح صدري وقلبي وعقلي لكل ناصح أمين، ومرشد صادق.

ولذلك أحدد أهم الأهداف التي قصدتها في هذه الدراسة، وهي:

١ ـ التنويه بقدر الإمكان بالدروس والعبر والفوائد التي يمكن أن يجنيها القارىء في هذا العصر من أحداث وترجمة وسيرة وأخبار مضى عليها حوالي تسعة قرون من الزمن.

٢ ـ تثبيت إيمان المسلم المعاصر، وتقوية إيمانه بدينه وشرعه وما ورد في كتاب الله العظيم، من وعد المؤمنين بالنصر، وحفظ هذا الدين، وبقاء الحق ظاهراً جلياً عالياً حتى تقوم الساعة، مهما ساد الباطل، وكثر أتباعه، وعلت سطوته، وتجبر أهله.

٣ ـ أن يعتز المسلم بأسلافه وتاريخه ورجاله، ويعتز بذلك كدرجة أولى، ثم يسعى ليقتفي أثرهم، ويتخذهم قدوة وأسوة، يستلهم منهم المنهج

الذي يرضي الله تعالى، ويحظى بتوفيق الله في تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة.

٤ ـ إثارة الهمم والنفوس لتجديد مواقف العز وأمثاله، وحث الدعاة والعلماء والعاملين في هذه الأمة للتأسي والاقتداء، فالعلم والأحكام الشرعية ليست لمجرد العلم والتعلم، والمعرفة والشهادة، والفخر والمتاجرة، ورفع الشعارات والمناداة بالمبادىء، وإنما الهدف أن يقترن القول بالعمل، والعلم بالتطبيق، والكلام والتخطيط بالتنفيذ، وهو ما ظهر في شخصية العز الخاصة والعلمية.

٥ ـ أن نذكر الأمة والشعب والأفراد والمجتمع بمكانة العلماء العاملين، للاقتداء بهم، والسير وراءهم، والالتفاف حولهم، وتقديم البيعة الحقيقية لهم، ليكونوا حراساً على دين الله وشرعه، ويكونوا السند العملي لدعوة العلماء، والرديف المباشر لمواقفهم.

والله أسأل أن يكون من وراء القصد، وأن يفتح علينا فتوح العارفين، وأن يسدد خطانا لما فيه الخير والصواب، وأن يغفر لنا ضعفنا وتقصيرنا، ويشدَّ من أزرنا، وأن يدخر لنا هذه الأعمال لساعة العرض والحساب، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

دمشق ٩/ ٢/ ١٤١٢ هـ الموافق ١٩/ ٨/ ١٩٩١م.

الدكتور محمد الزحيلي

الأستاذ بجامعة دمشق

وكيل كلية الشريعة للشؤون العلمية

تمهيد
في عصر العز

أثر العصر في الإنسان:

يتأثر الإنسان كثيراً بالعصر الذي يعيشه، والجو الذي يحيط به، والأحداث التي تفاجئه، والتيارات التي تعترضه، ويتخذ منها مواقف إيجابية بالتأييد والمشاركة، أو بالرفض والمعارضة، أو مواقف سلبية بالحياد وعدم المبالاة، وفي هذه الحالة لا بد أن تؤثر عليه نفسياً واجتماعياً وعلمياً، وإن أدار الظهر للنواحي السياسية ـ وهو أضعف الإيمان ـ فلا بدَّ أن يتفاعل مع بقية الجوانب.

والرجل ـ كل الرجل ـ هو الذي تتحدد مواقفه من كل ذلك، وتتبلور وظيفته في الأداء بحسب ما يحتاجه أبناء جيله وعصره، فالرجل كل الرجل هو ابن وقته وعصره.

فقد يكون الإنسان في عصر علم وتطور وتقدم وحضارة، فيظهر الرجل بموقفه اللامع في هذا الإطار.

وقد يكون الإنسان في عصر الجهاد والدعوة، فيكون الرجل عالماً بموقفه من الجهاد والمجاهدين، ومشاركاً فيما يطلب منه، أو يتطلبه الموقف من جهاد اللسان والبيان أولاً، ثم جهاد الجسم ثانياً.

وقد يكون الإنسان في عصر جمود وانغلاق، أو عصر بدع وانحراف فردي أو اجتماعي، شخصي أو رسمي، من الحكام والأمراء، أو من المترفين والمفسدين في الأرض، أو عصر ظلم أو استعمار أجنبي، فالرجل كل الرجل في هذه الحالة هو الذي لا تغريه الأموال والثراء والأثاث ومفاتن الحياة الدنيا، ولا يرمق بعينه إلى السلطة والجاه، ولا يهاب الطغاة والبغاة والمستعمرين، ولا يطمع بمنصب أو ولاية في الدنيا، بل يقدم الدواء الشافي لهؤلاء وهؤلاء، ويعلو مع الحق والمبادىء والقيم، لينقذ هؤلاء من التردّي والسقوط، وينجد أولئك نحو الخير والفلاح، ويوجه ولاة الأمر والحكام نحو السداد، وينبههم إلى الواجب المقدس المطلوب منهم، ويحملهم المسؤولية الثقيلة الملقاة على عاتقهم، والأمانة الجسيمة التي وضعتها الأمة في رقابهم، والتي أناط الله تعالى رعاية المصلحة في عملهم.

وكان عصر العز يجمع المتناقضات: من صلاح وفساد، ووحدة وتمزق، وتضحية وجبن، واستشهاد واستخذال، وعزة وذل، وغنى وفقر، وترف وشقاء، وعلم وجهل، وتكالب على السلطة، وتناحر عليها، وتقاتل بين أصحابها، مع بطولات نادرة، وانتصارات خارقة، وقيادات حكيمة. . . ونقتصر في دراسة عصر العز على النواحي السياسية والعلمية، مع التركيز على دور العلماء ومكانتهم ومواقفهم، كما نسلط الضوء في هذا العصر على بلاد الشام ومصر، مع إطلالة سريعة، وإشارات قليلة لسائر العالم العربي والإسلامي، في الشرق والغرب، وسوف نرى أن العز رحمه الله تعالى كان رجلاً بمواقفه المشهودة التي يحتاجها عصره ومعاصروه، والتي يتطلبها الوقت والزمن، فكان العالم الفذ، والداعية المجاهد، والناصح الأمين، والمصلح الجريء، والآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يأبه في سبيل الحق والعدل والإصلاح والعلم لمخلوق في الكون.

أولاً: الناحية السياسية:

عاش العز بن عبد السلام في الربع الأخير من القرن السادس الهجري، وأكثر من النصف الأول من القرن السابع (٥٧٧ هـ - ٦٦٠ هـ)، والقرنان السادس والسابع - تاريخياً وسياسياً - امتداد للقرن الخامس الهجري، وعاصر العز الدولة الأيوبية والدولة المملوكية في سورية ومصر.

وتمثل هذه القرون الثلاثة أشد العصور في التاريخ الإسلامي اضطراباً وقلقاً، وتفاوتاً وتناقضاً، وكانت سلطة الخلافة والدول القائمة - اسمياً - تحت نفوذها في مد وجزر مطلقين، والسلطة في تموج شديد، وارتفاع وانخفاض من القمة إلى الصفر، وبالعكس، والناس تحت الظل ينتقلون بين النور والظلام، والعزة والذل، والاستقلال والاحتلال، والوحدة والانفصال، والتكامل والتشرذم.

ففي القرن الخامس الهجري اتجه الصليبيون إلى ديار الإسلام، وهاجموا المشرق العربي، واحتلوا أجزاء كثيرة منه، حتى سقط بيت المقدس بأيديهم سنة ٤٩٢ هـ، وحطوا بكلكلهم على قلب البلاد الإسلامية، واستعمروها، واستقروا فيها، وعاثوا فيها الفساد والقتل وسفك الدماء، وأزالوا حكم الإسلام، ودولة الخلافة نهائياً في المناطق التي سيطروا عليها، وطبقوا الأنظمة الغربية، وفرضوا الفكر الاستعماري الأجنبي، الأوروبي الصليبي على البلاد والعباد.

وهبَّ الثائر المسلم عماد الدين زنكي أمير الموصل ليتصدى للصليبيين، ويوحد صفوف المسلمين، واتجه إلى حلب، وعاجلته المنية قبل تحقيق أهدافه (٥٤١ هـ). وخلف وراءه ابنه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي الشهيد الذي اتسم عهده بالنقاء والطهر، والصلاح والعلم، وأعاد بنفسه سيرة كبار الصحابة بالورع والتقوى، والبذل والاستشهاد، وسعى لتوحيد البلاد الإسلامية، وجمع صفوفها ضد أعداء

الإسلام حتى توفي سنة (٥٦٩ هـ)، وكانت ولادته سنة (٥١١ هـ).

وكان أبرز أعمال نور الدين زنكي أن بعث جيشاً إلى مصر عندما استنجد به الخليفة الفاطمي «العاضد» سنة ٥٦٤ هـ ضد الفرنج الذين قصدوا مصر بجيش كبير وحاصروا القاهرة، فجهز نور الدين جيشاً بقيادة أزكى قواده، وهما أسد الدين شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين، وتوجه الجيش إلى مصر، فلما سمع الفرنج بوصوله تراجعوا، فاستوزر الخليفة الفاطمي العاضد أسد الدين شيركوه، فبقي في الوزارة شهرين ونيفاً ثم توفي، فاستوزر الخليفةُ صلاحَ الدين ولقبه بالملك الناصر، فلما مات الخليفة العاضد في المحرم سنة (٥٦٧ هـ)، أنهى صلاح الدين حكم الفاطميين، وقضى على خلافتهم، وبدأ في الإصلاح السياسي والعلمي والاجتماعي والعسكري، وسعى في توحيد سورية ومصر، وقامت الدولة الأيوبية، واتجه صلاح الدين إلى محاربة الصليبيين، واستطاع أن يسترد بيت المقدس (سنة ٥٨٣ هـ) وتابع تحرير فلسطين والساحل السوري، وسائر بلاد الشام حتى توفاه الله تعالى (سنة ٥٨٩ هـ)[١].

ووقعت الفرقة والوحشة بين حكام الإمارات والمدن من أبناء صلاح الدين وإخوته، فالعزيز على مصر، والأفضل على دمشق، والظاهر على حلب، وسيف الإسلام طغتكن أخو صلاح الدين في اليمن، والملك العادل أخو صلاح الدين بالكرك والشوبك والبلاد الشرقية، وحصل الخلاف والخصام بينهم، واستقل كل منهم عن الآخر، وانقسمت الدولة الأيوبية إلى دويلات يتآمر بعضهم على بعض، ويحارب بعضهم الآخر،

---

(١) انظر: البداية والنهاية ١٢/٢٢١ وما بعدها، النجوم الزاهرة ٦/٧ و ما بعدها، حسن المحاضرة ٢/٤، تاريخ العصر الأيوبي للدكتورة أمينة بيطار ص ٣٩ وما بعدها ٨٣، ٩٣، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٧٥ وما بعدها، الجوهر الثمين ص ٢١٨، الأعلام ٨/٤٦، بدائع الزهور لابن إياس ص ٥٥ وما بعدها، الروضتين ١/٥ وما بعدها، ٢٧ وما بعدها، ٤٢، ١٥٢، ١٥٤، ١٩٣، ج٢/٢١١، ٢١٢.

واستطاع العزيز أن يخضع معظم بلاد الشام لحكمه مع عمه الملك العادل الذي خلفه في الحكم[1].

واستقر الأمر للملك العادل شقيق صلاح الدين، وبسط نفوذه ثانية على الشام ومصر معاً، وأعاد للدولة سلطانها وكيانها، وكان تقياً ورعاً، قوياً مستقيماً، شديد الشكيمة، ولكنه وقع في الخطأ الجسيم من جديد، فقسم البلاد بين أولاده، فأعطى الملك المعظم عيسى دمشق وبعض مدن الشام، وأعطى الملك الأشرف موسى الشرق، وعين الكامل محمد بن العادل على مصر، وصار يتنقل بينهم ويدير شؤونهم حتى توفي (سنة ٦١٥ هـ) فوقع الخلاف بين الأولاد، وتحاربوا كما تحارب أولاد صلاح الدين، فاشتد ضعفهم، وهزلت صورتهم وكيانهم أمام الصليبيين من الغرب، والتتار من الشرق، ووصل بهم الذل والعار أن يتحالف بعضهم مع الصليبيين، ويستعينوا بهم على إخوتهم، أو أبناء إخوتهم، ويسلموهم البلاد والقلاع والحصون، فالملك إسماعيل بن العادل حاكم دمشق تواطأ مع الفرنج، وسلمهم بعض البلاد (سنة ٦٣٨ هـ) ليساعدوه على حاكم مصر ابن أخيه نجم الدين أيوب، والملك الكامل في مصر أعطى ملك الفرنج فردريك القدس صلحاً سنة ٦٢٦ هـ ليحارب ابن أخيه داود صاحب الكرك، وهو ابن الملك المعظم عيسى.

ولما مات الملك الكامل محمد بمصر خلفه ابنه الملك العادل فاستقل بحكم مصر، وحاول قتل أخيه نجم الدين أيوب حتى لا ينازعه الحكم، ولم يتمكن من ذلك، وقبض عليه مماليكه لقسوته عليهم، وخلعوه (سنه ٦٣٧ هـ) وبايعوا أخاه نجم الدين أيوب، فاعتقل العادل في القلعة ثم قتله (سنة ٦٤٥ هـ).

---

(١) الروضتين ٢/٢٢٤ وما بعدها، تاريخ العصر الأيوبي ص ١٦٨.

وكان نجم الدين قوياً شديداً، صارماً وصالحاً ـ وهو الذي أمر بتدريس الفقه على المذاهب الأربعة ـ وتوجه إلى المنصورة لمواجهة الفرنج فتوفي سنة ٦٤٧ هـ فأخفت زوجته شجرة الدر موته، واستدعت ولده توران شاه من الموصل، فحضر وقاتل الفرنج، وانتصر عليهم سنة ٦٤٨ هـ، لكنه أساء إلى شجرة الدر زوجة أبيه، وإلى مماليك أبيه فاتفقوا عليه وقتلوه (٢٨ محرم سنة ٦٤٨ هـ)، وتولت شجرة الدر الحكم لشهرين، ثم خلعت نفسها لغضب الخليفة ببغداد من ذلك، وعينت توران بن أيوب حاكماً، ثم قتلته سنة ٦٤٨ هـ وتمت تولية الأمير أيبك التركماني، وتزوج بها، وانتهت الدولة الأيوبية، وبدأت دولة المماليك، ثم تآمرت شجرة الدر على زوجها وقتلته سنة ٦٥٥ هـ وتولى ابنه علي الصغير الضعيف الملك ولقب بالملك المنصور، وكان نائبه على السلطة الأمير قطز الذي جمع العلماء واستشارهم في محاربة التتار مع وجود هذا الملك الصغير، فأفتوه بخلعه، وتولى قطز الإمارة سنة ٦٥٧ هـ، وسمي بالملك المظفر، واتجه لملاقاة التتار القادمين من الشرق، وقد أسقطوا الخلافة في بغداد سنة ٦٥٦ هـ، ودخلوا الشام، واتجهوا نحو مصر، فتلقاهم قطز بعين جالوت بفلسطين وانتصر عليهم، ورد كيدهم في نحرهم، وأثناء عودته قتله الأمير بيبرس وتولى السلطة مكانه، وبقي في الحكم حتى نهاية عمر العز بن عبد السلام.

هذا ما حدث في مصر والشام داخلياً في الدولة الأيوبية ودولة المماليك، وخارجياً مع الفرنج والصليبيين ثم التتار، وكان الوضع في الشرق لا يقل سوءاً وخطراً، فالدولة الخوارزمية تسيطر على الشرق، والتتار اتجهوا لاحتلال البلاد الإسلامية، وسفك الدماء، وحرق الأخضر واليابس، وتدمير الحضارة والمدنية، ونشر الرعب والخوف والإرهاب حيثما حلوا أو ارتحلوا، أو اتجهوا، ووقعت خيانات داخلية، وسقطت بغداد، وقتل آخر خلفاء بني العباس سنة ٦٥٦ هـ، وتابع التتار المغول زحفهم كالجراد، واحتلوا حلب ودمشق ومعظم بلاد الشام، ولما أرادوا

التوجه إلى مصر سارع إليهم قطز بجيش مصر والشام، وهزمهم، وأوقف زحفهم، وأنقذ البشرية من وبائهم.

وفي المغرب كانت دولة الموحِّدين ضعيفة، وكان أهلها يتعاطفون مع مسلمي الأندلس، ويغيثونهم أحياناً إذا استغاثوا بهم، وكانت صلات الموحدين بالشرق قليلة، ولم يكن لسقوط بغداد وانتهاء الخلافة أثر كبير عليهم نفسياً.

ولم تكن الأندلس أوفر حظاً من بلاد الشرق، فكان المسلمون في الأندلس متفرقين، واختلفوا مع بعضهم بسبب الرئاسة والسلطة، فطمع فيهم الأسبان، واتجهوا إلى حربهم، واحتلال بلادهم، واستولى الأسبان في القرن السابع الهجري على أكثر المدن الشهيرة، والحصون المنيعة، ولم يبق للمسلمين في الأندلس إلا غرناطة وضواحيها[1].

وهكذا نلاحظ أن عصر العز بن عبد السلام ـ من الناحية السياسية ـ كان سيئاً جداً أحياناً، ويتمثل فيه أبشع صور التاريخ الإسلامي، وأحطها على الإطلاق، فالصليبيون من الغرب، والتتار من الشرق، والخلاف والانقسام في الداخل، وحكام البلاد العربية في تقاتل وتناحر ونزاع على السلطة يندى له الجبين، وهم في مطامع شخصية، وأهداف وضيعة، وأثْآرٍ شخصية، ومؤامرات صبيانية، بين الإخوة والأهل، والأولاد والآباء والعشيرة، فالابن يغتال والده ليتولى منصبه، والأخ يقتل أخاه ويستعين بالكفار، وحتى بالإفرنج والصليبيين على ذلك، وحاكم الولاية يطمع بالأخرى، ويعد الحملات والحروب للاستيلاء عليها.

وفي المقابل ظهرت في هذا العصر أبهى صور التاريخ، ووقعت

---

(١) انظر: البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٠، طبقات الشافعية الكبرى ٨/١٦٨ وما بعدها، الكامل في التاريخ ١٢/٣٥٨، الفتح المبين ٢/ ٤٢ وما بعدها.

أقدس معاركه، وتحققت أزهى انتصارات الأمة، فانتصر المسلمون على الصليبيين في حطين (سنة ٥٨٣ هـ) ثم طردوهم من حيث أتوا، وطهروا البلاد المقدسة من أرجاسهم، وانتصر المسلمون على التتار في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ، ووقف الزحف الهمجي، وقضي على الوحوش الضارية، وتحول الشراع وتغير مجرى التتار فأسلموا، واستوطن بعضهم بلاد الشام، ورحل الآخرون يحملون ضياء الحق، ونور الإسلام.

وظهر قادة في هذا العصر، سجل التاريخ اسمهم في السجلات العالمية، وكانوا كالشهب المضيئة لأهلها، والمحرقة لأعدائها، من أمثال نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، وقطز، وبيبرس، فكانت لهم الأيدي البيضاء على مدى الدهر.

والذي يهمنا من عرض هذه الصورة التاريخية، بوجهيها المشرق والمظلم، والمنير والقاتم، والناصع والباهت هو أن نستفيد من عِبَرِ التاريخ الذي يعيد نفسه في عصرنا الحاضر: من انقسامات، وقيام الدويلات والإمارات، والمنازعات بين الأقطار الشقيقة، والمؤامرات التي يحيكها بعضهم لبعض، والانقسام بين الشرق والغرب، والتعاون مع أعداء الله من الصليبيين في أوربا وأمريكا، أو الشيوعيين، ضد قطر عربي آخر، والاستعانة بالجيوش الأجنبية للوقوف في وجه أبناء المسلمين، وفتح الباب أمام القواعد العسكرية في الأرض العربية، وابتزاز أموال الأمة بالأساليب المتفننة، والوقوع في شباك العدو بقصد وتعاون وعمالة، أو بسذاجة وغفلة وبلاهة، متغافلين عن العدو الحقيقي، ومتناسين القضية المركزية، ومعرضين عن دين الله وشرعه، مع ممارسة القهر والبطش والاستذلال للشعوب، وتجويعهم وإفقارهم، بينما يختزن حكام المسلمين اليوم وبعض الأفراد المليارات في مصارف أوربا وأمريكا، يغذون بها تلك الشعوب، ويدعمون اقتصادهم، في الوقت الذي يُعَشِّشُ الفقر والتأخر

والجمود هنا وهناك، وترزخ كثير من الدول العربية بالديون الباهظة لتلك الدول الاستعمارية اقتصادياً وفكرياً وسياسياً، والجوع والفوضى والاضطراب يُعَشِّشُ في صفوف المسلمين، ويبيض ويفرخ ويتكاثر، ثم يترعرع في أرضهم ونفوسهم القابلة والمهيأة لذلك، ويسجل هذا على صفحات التاريخ، لتأتي الأجيال اللاحقة تسطر هذه المخازي وتقرؤها، وتلعن هذه الأفعال، وتنعى هذه الشعوب، وتشمئز من صحائف الأفراد والحكام الذين لقوا وجه الله تعالى بالخزي والعار والشنار، ونالوا الويل والثبور وأشد الحساب، يوم لا يغني عنهم مال ولا جاه، ولا عز ولا سلطان، ولا كنز ولا قصور، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ المرْءُ من أَخيه، وأمِّه وأبيه، وصاحبَتِه وبَنيه، لكل امْرىء منهم يومئِذ شَأْن يُغْنيه﴾ عبس/٣٤ ـ ٣٧، ﴿يَوْمَ تكونُ السماءُ كالمُهْلِ، وتكونُ الجبالُ كالعِهْن، ولا يَسألُ حميمٌ حميماً، يُبَصَّرُونهم يودُّ المجرم لو يفتدي من عذابِ يومئِذ ببنيه، وصاحبته وأخيه، وفصيلته التي تؤويه، ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه﴾ المعارج/٨ ـ ١٤، ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول: يا ليتني لم أوت كتابيه، ولم أَدْرِ ما حسابيه، يا ليتها كانت القاضية، ما أغنى عني مَاليَه، هلك عني سلطانِيَه، خُذُوه فغلُّوه، ثم الجحيم صلّوه، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾ الحاقة/٢٥ ـ ٣٢. وهذا التاريخ أكبر شاهد على ما نقول عن الماضي، وسيقول أبناء المستقبل مثله عن هذا الحاضر.

وإن التاريخ الأسود، والظلام الدامس، والسحب الداكنة، والسماء القاتمة والليل المظلم له نهاية:

«فلا بدَّ لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

* * *

لكلِّ شيء إذا ما تمَّ نقصان فلا يغرُّ بطيب العيش إنسان

وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر، ويتطلع الناس إلى رحمة السماء، وهداية الرحمن، ويتوجهون إلى الرحمة المهداة، والسراج الوهاج،

ويستغيثون الله تعالى، ويتضرعون إليه بالنجاة والفرج، وكشف الهمِّ والكروب، ورفع الظلم والظلمات، ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الله غافِلاً عما يعملُ الظالمون، إنَّما يُؤَخِّرُهم ليومٍ تَشْخَصُ فيه الأَبْصارُ، مُهْطِعينَ، مُقْنِعي رُؤُوسِهم، لا يَرْتدُّ إليهم طَرْفُهُم، وأفئدتهم هَواء﴾ إبراهيم/٤٢ - ٤٣، ﴿فلا تَحْسَبَنَّ الله مُخْلِفَ وَعْدِه رُسُلَه، إنَّ الله عزيزٌ ذو انتقامٍ﴾ إبراهيم/٤٧، ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم، وعملوا الصالحاتِ ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنَنَّ لهم دينَهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ النور/٥٥، ﴿إنا لننصر رُسُلَنا والذين آمنُوا في الحياة الدنيا ويومَ يقوم الأشهاد﴾ غافر/٥١، ﴿فقطع دَابِرُ القوم الذين ظلموا، والحمد لله ربِّ العالمين﴾ الأنعام/٤٥.

وهكذا لاحظنا في القرون الثلاثة في عصر العز أن الشدائد والمحن، والهزائم والنكبات، والتفرق والتناحر لم تستمر، وأن نجوم الصبح بزغت هنا وهناك، وسطعت الكواكب النيرة تضيء الطريق، وتكشف الظلام، وهكذا يستمر الصراع الدامي الأليم بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، ولكن للباطل جولة، وللحق جولات، ﴿كذلك يَضْرِبُ اللهُ الحقَ والباطلَ، فأما الزَّبدُ فيذهب جُفاءً، وأمَّا مَا يَنْفع النَّاسَ فيمكَثُ في الأرضِ، كذلكَ يَضْرِبُ اللهُ الأمثال﴾ الرعد/١٧، وينجلي الموقف في عهد العز عن انتصار الحق، وانتشار الخير، وزوال الباطل والكفر والشرك والوثنية، وتندحر الصليبية، ويرتد الإفرنج على أعقابهم، ويخنس التتار، وينقرض جيشهم، ويبتلعهم التاريخ والبيئة والأرض الطيبة، والنور الساطع، والعقيدة السمحاء، وهذا الوصف ينقلنا إلى الحالة العلمية.

ثانياً: الحالة العلمية

كانت الأحداث السياسية، والكوارث الداخلية والخارجية التي حلت بالبلاد الإسلامية في القرون الثلاثة (الخامس والسادس والسابع) ذات تأثير مباشر على الحركة العلمية، والنهضة الثقافية، سلباً وإيجاباً، فركدت الحركة العلمية، وقصرت الهمم، وجمد الاجتهاد، وساد التقليد.

وكان للفساد الاجتماعي، والانحلال الخلقي بين الناس أثر على العلم والعلماء الذين آثر كثير منهم اعتزال المجتمع، والانقطاع إلى العلم والعبادة، والانكباب على الدراسة والبحث، والابتعاد عن الحكام والأمراء أحياناً، بينما كان فريق آخر يقف في وجه الانحراف، ويسعى إلى تقويم السلوك، وإصلاح المجتمع، ويقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتصدى لتصرفات الحكام والأمراء، ويتعرض لبطشهم، أو الانتقام منهم، وقد يضطر بعضهم لإعلان العصيان، أو التهديد بالهجرة، وترك المناصب والوظائف الكبرى، وتحريك الجماهير، كما فعل العز بن عبد السلام وغيره.

وشهد القرن السابع أعظم النكبات التي حلت بالثروة العلمية الضخمة، والتراث الخالد الذي خلّفته الأجيال السابقة، نتيجة الفتن الداخلية، والغزوات الخارجية، والحروب الوحشية الجائرة الظالمة، والثورات والمجاعات، والحرائق والسرقات، والجهل والطمع.

كما كانت الاضطرابات الداخلية والحروب الخارجية تدفع كثيراً من العلماء إلى الهجرة من بلدهم إلى مكان آخر، يأمنون فيه على دينهم وعلمهم، ويمارسون فيه نشاطهم ودروسهم، ويركنون فيه إلى البحث والتأليف.

وكان من نتيجة الفتن والحروب والاحتلال الأجنبي وسقوط الخلافة العباسية في بغداد، ودخول الفرنج إلى القدس ودمشق، قتل عدد كبير من

العلماء، وحَرْق الكتب والمكتبات، ولم يسلم من الغزو المغولي في الشرق إلا مصر التي دُحر التتار على أبوابها، وجنوب إيران في ولايتي فارس وكرمان اللتين تصالحتا مع التتر، ودفع الأمراء فيها الأتاوات لهم، واستطاع أمير فارس أبو بكر بن سعد بن زنكي أن يدفع شر المغول عن بلده، وأن يوفر لهم الأمان فهاجر إليه عدد من العلماء، ولكن مصر وبلاد الشام لم تسلم من غزو الفرنج، وبطش الصليبيين، وظهور الخونة والعملاء لهم.

كما كانت الفتن المذهبية تعمل عملها في الداخل، فالصراع شديد بين الباطنية وأهل السنة والجماعة، والخلاف متوقد بين الحَشْوية من الحنابلة وبين جمهور المسلمين من الشافعية والحنفية والحنابلة والمالكية، وشاع التصوف وانتشر، وكاد أن يسيطر على الساحة، وظهر دعاة الطرق الصوفية، وفيهم المعتدل والمتطرف، ولكن لم يُسلِّم لهم فكرياً، ولم تَسلم لهم الدعوة عملياً، واستعان كثير من أصحاب المذاهب والفرق والطرق والآراء بالحكام، واستطاع كثير منهم أن يقنع أميراً ما بأفكاره ليعمل تحت مظلته، ويستعين به في نشر رأيه، وضرب خصومه، وهذا ما وقع في دمشق مثلاً في فتنة الحنابلة مع العز كما سنرى، وكتب رسالته المشهورة في العقيدة «مُلحة الاعتقاد»، فكان الصراع المذهبي والعقدي على أشده.

كما ظهر في هذا العصر، ونتيجة التدخل الأجنبي، والاحتلال الصليبي، ظهر بعض الصراع الفكري بين أهل الذمة الذين يدعمهم الفرنج، وبين المسلمين، ووصل الأمر إلى التحدي في إظهار المنكرات وبيع الخمور، وفتح الحانات، والإساءة إلى مشاعر المسلمين ودينهم، ثم تنقلب الآية، ويحصل الانتقام أحياناً.

ولمع في هذا الظلام الدامس عدد من نجوم الهدى، وأئمة الدين، وعلماء الشرع، في مختلف البلاد في العلوم الشرعية، والعقلية والكونية،

وبرز عدد من العلماء الذين جمعوا بين مختلف الفنون كالفقه وأصول الدين، والتفسير والحديث، والحكمة والمنطق، والنحو والصرف، والأدب والبلاغة وعلوم العربية، والتاريخ والتراجم، والهيئة والفلسفة والطب. نذكر بعضهم تعداداً في القرن السابع[1].

منهم: فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ)، والمبارك بن الأثير الجزري المحدث اللغوي (٦٠٦ هـ)، وموفق الدين بن قدامة الحنبلي (٦٢٠ هـ) والتبريزي الأصولي (٦٢١ هـ)، وعبد الكريم الرافعي الفقيه الشافعي (٦٢٤ هـ)، وعز الدين علي بن الأثير الجزري المؤرخ الأديب (٦٣٠ هـ) والآمدي الأصولي (٦٣١ هـ)، والسُّهْرَوَرْدي الواعظ المتصوف (٦٣٢ هـ) الذي حضر إلى دمشق، والتقى الشيخ العز، ومنهم محيي الدين بن عربي المتصوف (٦٣٨ هـ)، وابن أبي الدم الحموي القاضي الفقيه (٦٤٢ هـ) وابن الصلاح المحدث (٦٤٣ هـ)، والحافظ ابن النجار المؤرخ (٦٤٣ هـ) وابن الحاجب الأصولي النحوي الفقيه المالكي (٦٤٦ هـ) ومجد الدين بن تيمية الفقيه (٦٥٢ هـ)، وسلطان العلماء العز بن عبد السلام (٦٦٠ هـ)، وابن مالك النحوي (٦٧٢ هـ)، ومحيي الدين النووي المحدث الفقيه (٦٧٦ هـ)، وابن خلِّكان المؤرخ (٦٨٤ هـ) والقاضي البيضاوي الأصولي المفسر (٦٨٥ هـ)، وابن النفيس الفقيه الطبيب (٦٨٧ هـ) وشمس الدين الأصفهاني الأصولي (٦٨٨ هـ) وعبد الرحمن الفزاري الفقيه، المعروف بالفركاح (٦٩٠ هـ) وابن الساعاتي الأصولي (٦٩٤ هـ).

ويضاف إلى هؤلاء كثير من شيوخ العز كالحافظ القاسم بن علي بن

---

(١) يشترك العز بن عبد السلام مع القاضي البيضاوي بأنهما عاشا في عصر واحد تقريباً، أي في القرن السابع الهجري، فالبيضاوي مات سنة ٦٨٥ هـ، وكانت وفاة العز سنة ٦٦٠ هـ، ولكن يختلفان في المكان، فالبيضاوي عاش بين فارس وشيراز وتبريز، والعز في الشام ومصر، ولذلك اقتبسنا معظم الناحية العلمية بتصرف وزيادة من كتابنا «القاضي البيضاوي» ص ٢٥ وما بعدها.

عساكر (٦٠٠ هـ) والقاضي جمال الدين الحرستاني (٦١٤ هـ)، وتلاميذ العز كالحافظ المقرىء أبي شامة المقدسي (٦٦٥ هـ) والفقيه الحافظ تقي الدين بن دقيق العيد (٧٠٢ هـ)، كما يضاف إليهم معاصرو العز، مثل الحافظ عبد العظيم المنذري (٦٥٦ هـ) وشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية، وإن تأخر موته إلى القرن الثامن (٧٢٨ هـ).

وفي هذا العصر ظهرت نهضة علمية كبيرة في الشام ومصر والأندلس، وأقبل كثير من الحكام والأمراء على العلم، وتشجيع العلماء، وبناء المساجد، والتنافس في بناء المدارس الشهيرة التي كانت بمثابة جامعة، كالمستنصرية التي بنيت سنة ٦٣١ هـ في بغداد، والكاملة بالقاهرة سنة ٦٢١ هـ، والصالحية بمصر (٦٣٩ هـ) والظاهرية بدمشق (٦٦١ هـ) والمنصورية بالقاهرة (٦٧٩ هـ)، وامتاز العهد الأيوبي في مصر وسورية بالاهتمام الشديد بالمدارس والعلماء وتدريس الفقه والحديث، وبناء المعاهد لكل ذلك، بالإضافة إلى المدارس القديمة في مصر وفارس وبغداد ودمشق، والمدارس الخاصة، والمعاهد الكثيرة، مما يبين الفوارق الجسيمة، والنتائج الغريبة بين النكبات الخطيرة، والآلام العميقة، والمآسي التاريخية السياسية، وبين الازدهار العلمي، والتفتح الذهني، وظهور العلماء الأفذاذ، والمصنفات العديدة التي خلفها لنا أعلام هذا العصر.

ثالثاً: منزلة العلماء

تبوأ العلماء مكانة سامية، ومنزلة رفيعة في التاريخ الإسلامي، لأنهم يتكلمون باسم العلم الخالص الذي ينفع ولا يضر، ويقيم العدل، ويمنع الظلم، ويحقق المصالح، ويدرأ المفاسد.

والعلماء قِوام الدين وقُوَّامه، وحراس الشرع وحماته، وهم المحامون عن حقوق الأمة والشعب والأفراد.

والعلماء من طبقة الشعب في المجتمع، ولكنهم ينعمون بمركز الصدارة والريادة والزعامة، ويحظون بمحل الثقة والاحترام والتقدير، ويتولى بعضهم المناصب المهمة والحساسة والخطيرة في الدولة، ويحتلون مصدر التوجيه الديني والنفسي والروحي والوطني والسياسي في معظم الأحيان.

والعلماء متفاوتون في العلم والتقوى، والزهد، والورع، والإخلاص والعمل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنفوذ والتأثير، والوجاهة والثراء، والصلة بالحكام وجمهور الأمة[1].

ومن الناحية الفقهية والشرعية فإن العلماء هم أصحاب الولاية والسلطة والشورى، ويبينون حكم الله تعالى، ويجب على المسلمين طاعتهم، لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله، وأطيعوا الرسول، وأولي الأمر منكم﴾ النساء/٥٩، أي العلماء وأهل الحل والعقد، فلا يبرم أمر إلا برأيهم، ولا يتخذ موقف إلا بمشاورتهم، وهذا ما تم فعلاً في الخلافة الراشدة.

ثم وقعت الجفوة بين العلماء والحكام منذ العصر الأموي، وأدت نسبياً وبدرجات متفاوتة إلى انزواء العلماء عن الحكام، وابتعادهم عن السياسة وشؤون الدولة، وقلما يتدخل بعضهم في الإدارة والحكم إلا في ممارسة القضاء الذي لم ينقطع نهائياً.

---

(١) ويصنف العلماء أيضاً إلى صغار العلماء الذين يتولون مهنة التعليم والتدريس والأعمال البسيطة، وإلى كبار العلماء، وهؤلاء ثلاثة أقسام، قسم يعتكف في محرابه وعلمه وكتبه ووظائفه البسيطة، وقسم يمالىء الحكام، ويتاجر بالدين، ويصفق للمسؤولين، ويحمي مصالحهم، ويغطي عوراتهم وسوءاتهم، فهو أشبه بكلاب السلطان، أو حراسه، والقسم الثالث الذي يلتزم بالشرع، ويقف مع الحق أينما دار، وينصح للأمة والحكام والشعب، وهذا القسم هو المراد عند الإطلاق دون بقية الأقسام والفئات، انظر: وحي القلم ٣/٥٣.

وشارك كثير من العلماء في العصر الأموي ومطلع العصر العباسي في الحركات السياسية المناوئة للخلافة والخلفاء، وانضم بعضهم إلى الثورات التي قامت، أو بادر العلماء إلى إيقاد جذوتها، والدعوة إليها، وخمد هذا الجانب مع استقرار العهد العباسي، وصار معظم العلماء إما موالين للحكومات التي يعيشون في ظلها في دمشق وبغداد والقاهرة والمغرب والأندلس، وإما مجانبين لأمور السياسة والحكم، مبتعدين عن الحكام والسلطة، إلا إذا داهم الخطر بلاد الإسلام والمسلمين، أو خرج الحكام عن تعاليم الإسلام ومبادئه بما يؤدي إلى الكفر، أو الخيانة مع الأعداء، فهنا يخرج العلماء من صوامعهم وحيادهم ومحراب علمهم، ويتولون قيادة الثورة، والتحريض على الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والانخراط في صفوف المجاهدين، وحث الناس على القتال، وهذا ما حدث فعلاً عند قدوم الصليبيين والتتار، ليكون العلماء كالطود الأشم يزعزع الجبال، ويحرك الجماهير، ويرهب الحكام والأمراء، وهو ما تكرر في التاريخ، وسجلته الصحف، وخلدته كتب التراجم والأعلام، ونذكر منهم أمثلة في العز والنووي وابن تيمية.

وأما موقف الحكام من الفقهاء فإنه صورة عن موقف الحكام أنفسهم مع الحق والعدل والدين وقبول أحكام الشرع والالتزام به في أنفسهم وعلى شعبهم وسلطتهم وسياستهم الداخلية والخارجية، فإن كان الحكام خونة وعملاء، أو فسقة ومستبدين، أو فاسدين وظالمين، فإنهم يعادون العلماء العاملين، والدعاة المخلصين، و يحذرون من فتاويهم، ويشعرون بعقدة الضعف الحقيقي أمام العلماء، وبين صفوف الشعب، ولذلك يحاربونهم أحياناً، ويسيئون إليهم أحياناً أخرى، وقد يحبسونهم، ويحسبون لهم ألف حساب.

وإن كان الحكام على الحق والعدل، ويسعون لتطبيق الشرع،

ويسهرون على مصالح الأمة، فإنهم يستعينون بالعلماء على تثبيت ذلك، ويستنصحونهم للبقاء عليه، والمحافظة عليه، ويحثونهم لمثابرة الدعوة بين الناس لترسيخ الحق والعدل، ومنع الظلم والجور والفساد، ويتقربون بالعلماء إلى الشعب، ويفتحون لهم المدارس، ويسهلون لهم الأعمال، ويصغون إلى أقوالهم ونصائحهم، ويلتزمون بفتواهم، ويطالبون بمجالستهم والاستماع ـ في كثير من الأحيان ـ إلى علمهم ودروسهم وتذكيرهم ومناظراتهم وقراءة كتبهم.

وإن كان الحكام بَيْن بَيْن، فلهم وعليهم، فهم مع العلماء كفرسي رهان، ويقع الاصطدام، وتسوء الأحوال، ويقع الخلاف والسباق، وتكون النتائج في الغالب لمصلحة العلم والعلماء، وسريان أحكام الشرع والدين، ويستسلم الحكام ـ طوعاً أو كرهاً ـ لحكم الله تعالى وشرعه، ليكسبوا رضاء الشعب والجماهير، وإلا أَوْدَوْا بأنفسهم إلى التهلكة والهلاك في الدنيا والآخرة.

والأمثلة التاريخية أكثر من أن تحصى على النماذج السابقة، كما أن هذه الصورة تكررت في العصر الذي نتحدث عنه، وخاصة في القرن السابع وعصر العز بن عبد السلام، وهذه نماذج منها:

لما تولى عماد الدين زنكي إمارة الموصل، وقاد الحرب ضد الصليبيين والأمراء الخونة، طلب من العلماء أن يقفوا معه، ووفر لهم سبل البحث العلمي، والاجتهاد الفقهي، وإحياء السنة، ونشر التراث، ورفع راية الجهاد، وحث الناس على الوقوف في وجه الأعداء، والثورة في وجه الخونة، وقرب العلماء إلى مجالسه، وورثه ابنه نور الدين محمود زنكي الشهيد في ذلك، وفتحوا المدارس الكثيرة، وكان صلاح الدين الأيوبي كثير الحضور لمجالس العلماء، ويتلقى دروس الحديث من القاضي بهاء

الدين بن شداد، وأصر عليه بملازمته حتى في القتال وميدان الحرب[1]، وكان الملك الكامل يدرس على أيدي العلماء حتى نال الإجازات العلمية عن جدارة، وكتب تعليقاً على «صحيح مسلم»، وكان حريصاً على عقد الندوة العلمية في بيته كل خميس ليحضرها العلماء[2].

ومن ذلك ما صوره السيوطي عن قائد مصر العظيم الظاهر بيبرس أمام خضوعه للعز بن عبد السلام، فقال: «وكان بمصر منقمعاً تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام، لا يستطيع أن يخرج عن أمره، حتى إنه قال لما مات الشيخ: ما استقر ملكي إلا الآن»[3].

ومن ذلك رسالة الشيخ محيي الدين النووي عالم دمشق إلى الملك الظاهر عندما أراد أن يفرض الضرائب المرهقة على الناس، فكتب له رسائل، وجاء في إحداها: «إن أهل الشام في هذه السنة في ضيق وضعف حال بسبب قلة الأمطار وغلاء الأسعار، وقلة الغلات والنبات، وهلاك المواشي، وأنتم تعلمون أنه تجب الشفقة على الرعية، ونصيحة ولي الأمر في مصلحته ومصلحتهم، فإن الدين النصيحة» فرد الظاهر عليه رداً عنيفاً، فرد عليه الشيخ النووي رداً علمياً أقوى وأعنف، حتى كان الملك الظاهر يقول: أنا أفزع منه[4].

---

(١) بهاء الدين بن شداد القاضي الذي صنف كتاب «النوادر السلطانية» أو «سيرة صلاح الدين»، انظر ترجمته في مقدمة هذا الكتاب ص ٣.

(٢) انظر: عز الدين بن عبد السلام، لمحمد حسن عبد الله ص ٤٤، الروضتين ١/٩ وما بعدها، تاريخ العصر الأيوبي ص ٢٠١.

(٣) حسن المحاضرة ٢/٩٥، وانظر: عصر سلاطين المماليك ٣/٣٣.

(٤) انظر: كتاب الإمام النووي للشيخ عبد الغني الدقر ص ١٤٢ وما بعدها، الإمام النووي للأستاذ علي الطنطاوي ص ٤١ وما بعدها، تاريخ المذاهب الإسلامية للأستاذ محمد أبو زهرة ٢/٤٩٤ وما بعدها.

وغير ذلك من المواقف المشهودة للعلماء مع الحكام في كل عصر، وفي عصر العز خاصة، ومنها فتاوى النووي، وابن تيمية، وابن الصلاح، وابن دقيق العيد، والعز بن عبد السلام، وسوف نرى بعض مواقف العز بشكل خاص في سيرته الشخصية.

أما إنتاج العلماء العلمي في هذا العصر، وفي القرن السابع خاصة، فقد تركوا لنا أعظم ثروة علمية، فقد تحركوا بالتفاعل مع التراث الذي وصلهم، والذخيرة التي ورثوها، وما بقي من المكتبات بعد الحرق والتدمير، وقاموا بنشاط واسع، فاختصروا المطولات، وشرحوا المتون والمختصرات، ومزجوا بين العلوم المتقاربة كالمنطق والفقه وأصول الفقه، وعلوم العربية مع علم التفسير، وصنفوا المطولات والموسوعات في الحديث والتاريخ واللغة والفقه وأصوله، ونظموا كثيراً من العلوم، كما سنرى في إنتاج العز وكتبه ومصنفاته بشكل خاص.

وقام العلماء أيضاً بواجبهم في التدريس، وعكفوا على التأليف والتصنيف، وشاركوا في جهاد الدعوة واللسان ضد التتار والصليبيين، وساهموا في القتال والمعارك والجهاد الحربي، وظهر شيء من التجديد في هذا العصر بالدعوة إلى الاجتهاد وفتح أبوابه، ومحاربة البدع والخرافات، وبعث الحركة الثقافية، والتآليف المتخصصة، والمناقشات العلمية، وتميز هذا العصر بالتوسع في المعاجم، لكثرة المعارف المتوفرة، وتنوع الفنون، وكثرة الكتب، واتصال العلماء بعضهم ببعض، وزخرت المكتبات بالكتب الضخمة، والمراجع المعتمدة، والمصادر الأصيلة في مختلف العلوم مما يعتمد عليه علماء الأمة حتى الآن وإلى أن تقوم الساعة، ومن أمثلة ذلك: المغني لابن قدامة، والمحصول للرازي، والمجموع للنووي، وشرح صحيح مسلم للنووي، والروضة ومنهاج الطالبين في الفقه الشافعي للنووي، وقواعد الأحكام للعز، وشرح عمدة

الأحكام لابن دقيق العيد، وجامع الأصول لابن الأثير، والكامل في التاريخ لابن الأثير، وتفسير البيضاوي، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية... وغيرها كثير وكثير[1].

وفي هذا الجو السياسي والعلمي عاش العز كما سنرى في سيرته الشخصية والعلمية كنموذج لذلك.

---

(١) انظر: البداية والنهاية ١٣/١٣٩، حسن المحاضرة ٢/٢٥٥ وما بعدها، الفتح المبين ٢/٤٦، الغاية القصوى، المقدمة ١/٤٢، تاريخ العصر الأيوبي ص ٢٠١، تاريخ المذاهب الإسلامية ٢/٤٨٩ وما بعدها.

الباب الأوّل
سيرة الغزالي الشخصيّة

إن السيرة الشخصية للإنسان ترجع في معظمها إلى الأمور الفطرية التي جبل الله سبحانه وتعالى صاحبها عليها، وهي في الغالب عطايا ربانية، ومنح إلهية، ولا دخل للإنسان فيها.

فالإنسان لا يحدد وقت وجوده في الكون، ولا يختار وقت ولادته، ولا مكانها، وحتى اسمه الشخصي وكنيته يرجعان إلى أبويه، وليس له فيها ناقة ولا جمل، لذلك نبه الإسلام إلى مسؤولية الوالدين فيها.

كما أن السيرة الشخصية للإنسان هي أمور ذاتية لصاحبها، تخصه دون غيره، ولا يستطيع القارىء أن يقتبس منها شيئاً، أو ينتزعها من غيره، وإنما تحصل الاستفادة الكاملة من سير الأعلام من الجوانب العلمية.

وهنا يرد السؤال أو الاعتراض: لماذا نعرض السيرة الشخصية للأعلام، ونهتم بها؟ وما هي الفائدة من ذلك؟ ولماذا نبدأ بها؟

والجواب: أن السيرة العلمية للإنسان إنما هي تبع لسيرته الذاتية، وفرع عنها، ولاحقة بها، لذلك نقدم دراسة السيرة الشخصية على غيرها، كما أن السيرة الذاتية، وإن كانت ليست من كسب صاحبها بالإجمال، ولكن جانباً كبيراً منها من كسب غيره، ويمكن الاستفادة من هذه الناحية، فبعضها من كسب أبيه وفعله الاختياري، كاختيار الاسم،

والقيام بالتربية والتوجيه، «لولا المربي ما عرفت ربي»، وبعضها من كسب الإنسان نفسه، واختياره، كالتوجه إلى العلم، والسهر على تحصيله، والرحلة في سبيله، وانتقاء الشيوخ والمدارس والجامعات التي تغذيه وتشحنه فكرياً وعلمياً وذهنياً وسلوكياً، وهذه الأمور يمكن للقارىء أن يستفيد منها، ويأخذ العبر الكثيرة لنفسه وأولاده وعائلته ومجتمعه وأمته، كما أن أعمال العالم ومناصبه ومواقفه في الحياة هي أمور اختيارية، فالمرء حيث يضع نفسه، وبالتالي يمكن التأسي به، والاقتداء بفعاله ومواقفه.

لهذه الاعتبارات، وغيرها كثير، نعرض السيرة الشخصية للعلماء الأعلام، ونقدمها على السيرة العلمية، ونبدأ بها.

ومن هذا المنطلق نستعرض سيرة العز الشخصية في الفصول التالية.

الفصل الأول
هويّة العز

هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن، السُّلَمي، أبو محمد، الملقب بعز الدين أو العز، وبسلطان العلماء، والمعروف ببائع الملوك، وهو شيخ الإسلام، وأحد الأئمة الأعلام، القاضي، الفقيه الشافعي الذي بلغ رتبة الاجتهاد، الأصولي، المفسر، اللغوي، الورع، الزاهد، الآمر بالمعروف، الناهي عن المنكر، ذو التصانيف الفائقة والمشهورة.

ولد بدمشق سنة ٥٧٧ هـ على الراجح الموافق ١١٨١ م ونشأ بها، ودرس علوم الشريعة والعربية، وتولى الخطابة بالجامع الأموي، والتدريس في زاوية الغزالي فيه، وقصده الطلبة، وله الفتاوى السديدة التي قادته للحبس، ثم للهجرة إلى مصر، فعين قاضياً للقضاة، و مارس التدريس والإفتاء، وعين للخطابة بجامع عمرو بن العاص، وحرّض الناس على ملاقاة التتر، وقتال الصليبيين، وشارك في الجهاد، وعمِّر حتى مات بالقاهرة سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م ودفن بها[1].

---

(١) انظر ترجمة العز وسيرته في: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٠٩، فوات الوفيات ١/٥٩٤، البداية والنهاية ١٣/٢٣٥، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/٨٤، شذرات الذهب ٥/٣٠١، حسن المحاضرة ١/٣١٤، مرآة الجنان ٤/١٥٣ ـ ١٥٨، النجوم الزاهرة ٧/٢٠٨، عصر سلاطين المماليك ٢/٨٧، مفتاح السعادة ٢/٣٥٣، طبقات المفسرين للداودي ١/٣٠٨، معجم المفسرين، نويهض ١/٣٢٥، العبر =

هذه هوية العز بن عبد السلام باختصار، وسيرته الشخصية بإيجاز، وسوف نتولى التفصيل ـ بعون الله تعالى ـ في الفقرات التالية، والفصول اللاحقة.

اسمه ونسبه:

اسمه: عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن مُهَذَّب، باتفاق العلماء، وإجماع المصادر المعتمدة.

نسبه: السُّلمي، المغربي، الدمشقي، المصري، الشافعي.

فهو «السُّلمي» بضم السين، منسوب إلى بني سُليم، إحدى القبائل المشهورة من قبائل مضر، وينسب إليهم كثيرون(١).

المغربي الأصل: أي يعود أصله إلى بلاد المغرب العربي، ولعل أحد أجداده جاء من المغرب وسكن الشام.

الدمشقي: نسبة إلى دمشق، لأن العز ولد بها، وترعرع فيها،

= ٥/٢٦٠، كشف الظنون ٢/٢٤٣، ٣٧٨، الأعلام ٤/١٤٤، مرجع العلوم الإسلامية ص ٤٣٣.

وانظر ترجمة العز بشكل مستقل: العز بن عبد السلام، رضوان علي الندوي، عز الدين بن عبد السلام، محمد حسن عبد الله، العز بن عبد السلام، حياته وآثاره ومنهجه في التفسير للدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهيبي (رسالة دكتوراه)، الإمام العز بن عبد السلام، ومنهجه الأصولي، للدكتور علي الفقير، (رسالة دكتوراه)، عز الدين بن عبد السلام، وأثره في الفقه والأصول، لعبد العظيم فودة (رسالة ماجستير).

وانظر سيرة العز الشخصية في مقدمات كتبه المحققة: الإشارة، وشجرة المعارف، والإمام، والفوائد، والفتاوى، وترغيب أهل الإسلام.

(١) انظر: لب الألباب في تحرير الأنساب، للسيوطي ص ١٣٨، وقال الحازمي: «السُّلمي منسوب إلى سُلَيم بن منصور بن عكرمة بن خَصَفة بن قيس عَيْلان، قبيل، منهم جماعة من الصحابة والتابعين والفقهاء والأمراء والشعراء» (عجالة المبتدي ص ٧٣).

وطلب العلم، وتولى فيها المناصب والأعمال المختلفة، وقضى فيها معظم حياته، كما سنرى.

المصري: نسبة إلى مصر، التي انتقل إليها، واستقر بها، ومات فيها ودفن، ولذلك قال الإسنوي: «المغربي أصلاً، الدمشقي مولداً، المصري داراً ووفاة»[1].

الشافعي: نسبة إلى مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي في الفقه الإسلامي، وينسب إليه العز رحمه الله تعالى لأنه تفقه على هذا المذهب، ودرّسه، وأفتى به، وتولى القضاء للحكم بأحكامه، وصنف الكتب الفقهية في المذهب الشافعي، حتى بلغ رتبة الاجتهاد في المذهب، كما سنرى، وإن كان له بعد ذلك بعض الآراء الخاصة.

كنيته ولقبه:

كنيته أبو محمد، لأنه تزوج، وأنجب عدة أولاد، ولكن أشهرهم في العلم ولده عبد اللطيف، ثم ولده إبراهيم، كما سيأتي في تلاميذه.

أما لقبه فهو عز الدين جرياً على عادة ذلك العصر الذي انتشرت فيه الألقاب عامة للخلفاء والملوك والأمراء والعلماء، والنسبة إلى الدين خاصة، تقرباً إلى دين الله تعالى، وحباً له، وانتماءً إليه، وطمعاً في فضله، ورغبة في خدمته، واعتزازاً به، لمكانة الدين في نفوس الناس وعنايتهم به، فلقب الشيخ بعز الدين، ويختصر بالعز وهي التسمية الشائعة في الاستعمال عند الناس، وفي كتب التاريخ والتراجم والفقه، كما اشتهر بلقبه الثاني: «سلطان العلماء»، ويعرف أيضاً بابن عبد السلام إشارة إليه في بعض الأحيان، ولكن يشاركه في هذه التسمية الأخيرة غيره من المالكية خاصة، ومن الشافعية والحنابلة، ولذلك نسبت بعض كتبهم إلى صاحبنا

---

(١) طبقات الشافعية، للإسنوي ٢/٨٤.

العز بن عبد السلام[1]، ونخص لقبه «سلطان العلماء» بعنوان مستقل.

ولقب العز أيضاً بالقاضي، وهذا وصف له لتوليه منصب القضاء في دمشق والقاهرة، كما لقب أيضاً بقاضي القضاة لتعيينه مسؤولاً عن القضاء والقضاة في الفسطاط والوجه القبلي، كما سنفصله في مناصب العز وأعماله.

سلطان العلماء:

هذا لقب العز بن عبد السلام، لقبه به تلميذه الأول شيخ الإسلام ابن دقيق العيد، كما ذكره ابن السبكي، فقال: «وهو الذي لَقَّب الشيخَ عزَّ الدين سُلطانَ العلماء»[2].

ووجه هذه التسمية أنه أكد مكانة العلماء، ورفع ذكرهم في عصره، وجسد ذلك في مواقفه كما سنرى، في الإنكار على الحكام والسلاطين والأمراء لبعض تصرفاتهم المخالفة، وقارعهم بالحجة والبيان فغلبهم، وكان على رأس العلماء في هذا الموقف الصلب، مما عرّضه لكثير من المتاعب.

---

(١) منهم محمد بن عبد السلام بن غانم المقدسي (٦٧٨ هـ) وعز الدين عبد العزيز بن محمد الدميري، المعروف بالديريني (٦٩٧ هـ) ومحمد بن عبد السلام بن يوسف (٧٤٩ هـ) ويعرف في كتب المالكية بابن عبد السلام، وله مؤلفات في الأصول والفقه، وعز الدين بن عبد العزيز بن علي البغدادي ثم المقدسي الحنبلي (٨٤٦ هـ)، وشهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد السلام المصري المنوفي الشافعي (٩٣١ هـ)، ومحمد بن عبد السلام بن محمد بن العربي (١٢١٤ هـ) كبير علماء القراءات في عصره.

انظر: الإمام العز بن عبد السلام، للدكتور علي الفقير ص ٣٤٩ وما بعدها.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٠٩، وانظر: شذرات الذهب ٥/٣٠١، وقال محمود رزق سليم في سبب التسمية: «لعلمه الغزير، واطلاعه الواسع، وإيمانه القوي وحجته البالغة، وزهده، وحبه للحق» عصر سلاطين المماليك ٣/١٧٦.

واشتهر العز بن عبد السلام بهذا اللقب العظيم، والشرف الكبير الذي يستحقه عن جدارة، ونقله معظم الكتاب والمؤلفين والمترجمين للعز، واتفقوا على استحقاق العز لهذه التسمية، ولكنهم اختلفوا في وجهات النظر في تعليلها، فذهب بعضهم إلى التعليل السابق، وقال كثيرون: إنه اشتهر بهذا اللقب «لنظراته التجديدية، ونفوره من التقليد، وبلوغه مرتبة الاجتهاد»[1]، وخاصة أنه عاش في عصر شاع فيه التقليد، والتزم الناس به، وهمس بعضهم بقفل باب الاجتهاد، وعكفوا على كتب السابقين وآرائهم، ولم يكلفوا أنفسهم عناء الجهاد والبحث والاستنباط، ومواجهة الظروف المتغيرة، والمسائل الجديدة، والقضايا المطروحة، فخرج العز عن هذا الطوق بقوله وفعله واجتهاده وتصنيفه.

ولكني أرجح التعليل الأول، لأن التعليل الثاني ينطبق على كثير من العلماء، ولم يطلق عليهم هذا اللقب، فظهر مجددون في كل عصر، وبرز أئمة مجتهدون في كل مكان، وقدموا أعمالاً جليلة، وتراثاً خالداً، واحتلوا مكانة عالية في النفوس.

ولكن العز رحمه الله تعالى جمع بين العلم بمعناه الواسع، وبين المكانة الاجتماعية السامية للعلم والعلماء، ثم تجاوز ذلك فأحلَّ العلم مكانه الرفيع نظرياً وعملياً، وعظَّم أحكام الشرع والدين، فلا يعلو عليها سلطان أو جبار أو غاشم، والعلماء ورثة الأنبياء يبيِّنون أحكامه، والعلم أشرف الأعمال، والعلماء أشراف الأمة وسادتها، ولكن أكثر العلماء يتحلون بهذه السِّمَة، ويتبوؤن هذه المنزلة نظرياً، أو على عامة الناس، أما العز فكان سلطاناً بعلمه على الحكام والملوك والأمراء، وعلى العلماء، فاستحق أن يسمى بسلطان العلماء.

---

(1) عز الدين بن عبد السلام، لمحمد حسن عبد الله ص ١٣١ وما بعدها، وانظر: العز، للندوي ص ٥٥.

وهذا ما قصده أبو الأسود الدؤلي رحمه الله تعالى بقوله: «الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك»[1].

ولكن هذا الكلام يبقى في معظم الأحيان نظرياً ومعنوياً ونفسياً، ويبقى كثير من العلماء في جانب بعيد عن الحياة العملية، مع مجانبة الملوك والولاة والحكام، والتعالي عليهم نظرياً، وبالانزواء عنهم عملياً، والزهد بما في أيديهم، وهم في زواياهم المنعزلة، ومجالسهم الخاصة، وفي المقابل يقف بعض العلماء في صفوف الحكام تبعاً لهم، يزينون لهم ما يوافق هواهم، ويُلبُّون رغباتهم، ويكونون طوع إشارتهم، ويقدمون لهم الفتاوى التي تؤيد سياستهم، فتسقط هيبتهم في أنفسهم، وترتسم ظلالها عند أولياء نعمتهم، ويسقطون في أعين الأمة والناس، وتلوكهم الألسنة، ويؤكدون الخلاف والعداوة مع بقية العلماء.

ولكن العز بن عبد السلام كان متعالياً على الحكام لا بالتكبر عليهم، ولا بالبعد عنهم، ولا بالزهد بمالهم وولايتهم وسلطانهم، وإنما باسم الحق، والعدل، والشرع، وفرض العلم عليهم، ورفع رايته فوق رؤوسهم، وتطبيق أحكامه على أعناقهم، والتضحية بنفسه ومناصبه وأعماله في سبيل ذلك، وتعرضه لعداوتهم ومخاصمتهم وبطشهم، فكان الفوز له، لأن الحق يعلو ولا يُعلى عليه، وكان العز عالماً سلطاناً بالحق والحقيقة، والواقع والحياة، وهذا ما أراده الشاعر بالبيت الأول الذي ينطبق على العز وأمثاله:

ولو أنَّ أهلَ العلمِ صَانُوه صَانهم   ولو عَظَّمُوه في النفوسِ لعُظِّما

وأما البيت الثاني فتتصف به الفئة الأخرى:

ولكنْ أهانُوه فهانَ، ودَنَّسُوا   مُحياه بالأطماع حتى تجهَّما

---

(1) عيون الأخبار، لابن قتيبة ٢/١٢١.

ويقف في وجه الفئة الأولى حديثُ رسول الله ﷺ الذي قال فيه: «أنْ تخالط الناس، وتصبر على أذاهم، خير من أن لا تخالط الناس، ولا تصبر على أذاهم»(١).

ولادة العز:

ولد العز بن عبد السلام بدمشق باتفاق المصادر والمراجع التي ترجمت له، وعرضت سيرته.

أما تاريخ ولادته فحصل فيها اختلاف، فذهب كثيرون إلى تحديد تاريخ ولادته سنة سبع وسبعين وخمسمائة للهجرة، وقال آخرون: إنها سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وتشكك فريق ثالث بين السنتين، وحاول بعض الباحثين ترجيح الأول، ورجح بعضهم الثاني، وتوقف فريق عن الترجيح لعدم التأكد من ذلك، وعدم توفر النص القاطع أو المرجح في ذلك.

والذي أميل إليه هو ترجيح القول الأول، وأنه ولد سنة ٥٧٧ هـ/١١٨١م، لوجود القول الراجح عند أكثر المؤلفين والباحثين أنه توفي سنة ٦٦٠ هـ، وأن عمره في الراجح ٨٣ سنة، اعتماداً على حكاية نقلها ابن السبكي(٢)، وهو من أقرب المؤرخين لحياته وسيرته، ولا نريد الإسهاب والخوض في هذه النقطة، لأنه لا يترتب عليها فائدة معينة، أو ثمرة مرجوة، ولم تكن سجلات المواليد متوفرة وموجودة.

---

(١) رواه البخاري عن أبي موسى (٧٤١/٢ كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك).

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٢٠٩/٨، طبقات الشافعية للإسنوي ٨٤/٢، مفتاح السعادة ٣٥٣/٢، البداية والنهاية ٢٣٥/١٣، حسن المحاضرة ٣١٤/١، فوات الوفيات ٥٩٤/١، الأعلام ١٤٤/٤، الفتح المبين ٧٣/٢، العز بن عبد السلام ومنهجه في التفسير ص ٤٨، عز الدين بن عبد السلام، محمد حسن عبد الله ص ٤٩، العز بن عبد السلام، الندوي ص ٣٤، الإمام في أدلة الأحكام، المقدمة ص ١٤.

الفصل الثاني
نشأة العز وتعلمه

ولد العز ـ كما سبق ـ بدمشق باتفاق العلماء، وكانت دمشق حاضرة العلم والعلماء منذ العصر الأموي، ويقطنها العلماء من كافة الفنون، ويجتمع فيها أئمة العلم البارعون، ويقصدها الطلبة من كافة الأصقاع، ويلتقي فيها المتخصصون من الشرق والغرب نظراً لتوسطها، ويعتبر المسجد الأموي جامعة للعلوم، والطلاب والعلماء، يشع بالنور والعلم ليلاً ونهاراً، وهو موئل العبادة والعبَّاد والصالحين.

ويظهر من مجموع سيرة العز رحمه الله تعالى، وما ورد في كتب التراجم والتاريخ عن نشأته وصباه وطلبه للعلم أنه عاش في أسرة فقيرة مغمورة، وهذه تربة صالحة في معظم الأحيان للنبوغ والتفوق، فلا يوجد ذكر صريح لأبيه وأمه، أو أجداده وأعمامه وأخواله، ولم تسعفنا المصادر بشيء عن مراحل طفولته.

وكل ما تذكره المصادر أنه ابتدأ العلم في سن متأخرة، بعد قصة معينة، ونسوق هنا رواية ابن السبكي حرفياً في ذلك، فيقول عن والده:

«سمعت الشيخ الإمام يقول: كان الشيخ عز الدين في أول أمره فقيراً جداً، **ولم يشتغل إلا على كِبَر** (أي في العلم)، وسبب ذلك أنه كان يبيت في الكلاَّسة (وهي الزاوية والبناء والمدرسة عند الباب الشمالي للجامع الأموي) من جامع دمشق، فبات بها ليلة ذات برد شديد، فاحتلم،

فقام مسرعاً ونزل في بِرْكة الكلّاسة، فحصل له ألم شديد من البرد، وعاد فنام، فاحتلم ثانياً، فعاد إلى البِرْكة؛ لأنَّ أبواب الجامع مُغْلقةُ، وهو لا يمكنه الخروجُ، فطلع فأُغْمِيَ عليه من شدّة البرد، أنا أشك، هل كان الشيخ الإمام (والد ابن السبكي) يحكي أنَّ هذا اتفق له ثلاث مرات أو مرتين فقط، ثم سمع النداء في المرة الأخيرة: يا ابنَ عبدِ السلام، أتريد العِلمَ أم العَمَلَ؟ فقال الشيخُ عِزُّ الدين: العِلمَ؛ لأنه يهدي إلى العمل، فأصبح، وأخذ «التنبيه»[1] فحفظه في مدة يسيرة، **وأقبل على العِلم، فكان أعلمَ أهل زَمانِه، ومن أعبدِ خلق الله تعالى**»[2].

وأرى أن هذه القصة نفسها تدل على أن العز نشأ في أسرة دينية، أو على الأقل في أسرة تعيش في بيئة دينية، ومجتمع إسلامي، ومحيط علمي، يقدر العلم، ويجل شأنه، فمنحه كبقية أطفال المسلمين مبادىء الدين الحنيف، وأركانه الأساسية، ومقاصده العامة، وأحكامه التي تهم كل مسلم، وتحقق الفريضة العلمية المطلوبة التي تجب على كل مسلم[3] في معرفة ما يهمه ويخصه من أمور دينه، ولذلك وجدنا العز يلتزم بالطهارة، ويسرع إلى الاغتسال، وتتكرر منه المبادرة، مما يدل على معرفته بهذه الأحكام، ودراسته لها، وتقيده بها، وتطبيقها، شأن كل مسلم، وإن هذا الجو العلمي يشجع النبيه العاقل الذكي إلى التزود من العلم، وارتياد آفاقه، والطموح إلى معاليه، وهو ما توفر في العز، فحقق الغاية القصوى، وبلغ فيه القمة.

---

(١) التنبيه أهم كتاب مختصر في الفقه الشافعي للشيخ أبي إسحاق الشيرازي، ويعتبر الكتاب المدرسي الأول للمبتدئين في دراسة الفقه الشافعي، وبقي معتمداً حتى ظهر كتاب «منهاج الطالبين» للعلامة المحقق النووي.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٢١٢/٨ - ٢١٣.

(٣) لما ثبت في الحديث الصحيح «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، وهذا طرف من حديث صحيح رواه ابن عبد البر وغيره عن أنس وغيره (فيض القدير ٢٦٩/٤).

وتدل الرواية السابقة على الورع والتقوى الذي كان يتحلى به العز في شبابه، مما يرغب به الإسلام، ويثني عليه، ويرفع مكانته ليحظى بظل الله يوم القيامة، كما أخبر الحبيب المصطفى ﷺ قال: «سبعة يُظِلّهم الله في ظلّه، يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّه: الإمام العادل، وشابٌ نشأ في عبادةِ ربه، ورجلٌ قلبُه معلقٌ في المساجد. . .» الحديث[1].

كما تدل الحادثة السابقة على صرامة العز في دينه، وقوة شكيمته، وإرادته على نفسه، وتحمله الصعاب والشدائد، وتعرضه للمخاطر في سبيل مرضاة الله تعالى، وهذه الصفات الجسمية والنفسية والروحية أدت مفعولها، وحققت ثمارها في مواقف العز، وسلوكه في الحياة، وتوليه للمناصب، كما سنرى.

كما أن الشطر قبل الأخير من القصة في المفاضلة بين العلم والعمل، وتحديد العز لاختيار «العلم» والتدليل عليه بأنه يؤدي «ويهدي للعمل» دليل على إدراكه لهذه المعاني، وفهمه لها، ودرايته بها، وهذا يدل على أمرين:

الأول: تحصيل العز على مستوى دراسي أولي لا بأس به، كالمرحلة الابتدائية الدينية في عصرنا الحاضر، ثم الانصراف إلى شؤون الحياة والكسب، أو يمكن أن نقول: إن العز كان على صلة دائمة بدروس العلم، وحلقات العلماء، ولكنه لم يكن متفرغاً لذلك، ولا منقطعاً للدراسة، فكانت هذه القصة مفترق الطرق أمامه، ليختار طريق العلم وإن بدا موحشاً مع الفقر والقلة، ولكنه مضيء للقلب والعقل، والفرد والمجتمع.

---

(١) هذا الحديث صحيح رواه البخاري (١/ ٢٣٤ كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة) ومسلم (٧/ ١٢٠ كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الثاني: حصافة العز، ورجاحة عقله ورأيه، وفراسته بتوفيق الله تعالى له، واستعداده للتحصيل، وتهيُّؤُه للزيادة والارتقاء في الدرجات، فهو لم يختر العلم لمجرد العلم، مع أنه نور، ولكنه اختار العلم الذي يهدي إلى العمل، وهذا هو الهدف الحقيقي للعلم، والثمرة النافعة له، والمناط المرتبط به الإخلاص والأجر والثواب، ويحصل به الخير العميم لصاحبه وللأمة والمجتمع والإنسانية، وإلا كان العلم وَبالاً على صاحبه... وغيره.

وتوجه العز رحمه الله إلى طلب العلم بجد واجتهاد، ونهم وهمة عالية، يساعده في ذلك ذكاؤه الخارق، وملكاته الفطرية، ومواهبه الإلهية، وليعوض ما فاته في المدة السابقة من طفولته وصباه.

وقصد العز العلماء، وجلس في حلقاتهم، ينهل من علومهم، ويكب على الدراسة والحفظ، والفهم والاستيعاب، حتى حفظ «التنبيه» في فينة قصيرة، واجتاز العلوم بمدة يسيرة، وهو ما تحدث به عن نفسه، فقال: «ما احتجت في علم من العلوم إلى أن أكمله على الشيخ الذي أقرأ عليه، وما توسطته على شيخ من المشايخ الذين كنت أقرأ عليهم إلا وقال لي الشيخ: قد استغنيتَ عني فاشتغل مع نفسك، ولم أقنع بذلك، بل لا أبرحُ حتى أكمل الكتاب الذي أقرؤه في ذلك العلم»[1].

وكان يقول: «مضت لي ثلاثون سنة لا أنام حتى أمرّ أبواب الأحكام على خاطري»[2].

ولم يقتصر الشيخ العز على تلقي العلم، بل اختار فطاحل العلماء العاملين، وجهابذة العلم البارعين، فأخذ علمهم أولاً، وتأثر بأخلاقهم الفاضلة، وسلوكهم الرفيع في الحياة، وتلقف توجيههم، ورمق مواقفهم

---

(١) طبقات المفسرين للداودي ١/٣١٣.

(٢) رفع الإصر عن قضاة مصر، لابن حجر ٢/٣٥٠.

التي تركت أثرها الكبير عليه كما سنرى، فجمع بين العلم والأخلاق، والسلوك والعمل، حتى أصبح كما قال ابن السبكي في آخر كلامه السابق «**أعلم أهل زمانه، ومن أعبد خلق الله تعالى**»[1]، وسوف نفرد فقرة لمشايخ العز لبيان مكانتهم باختصار، ومعرفة العلوم التي درسها على كل منهم، وكشف المآثر التي اقتبسها العز من بعضهم، وتركت بصماتها على حياته ثم على تلامذته.

وجمع العز في تحصيله بين العلوم الشرعية والعلوم العربية التي منطلقها ومحورها ومبعثها القرآن الكريم، فدرس التفسير وعلوم القرآن، والفقه وأصوله، والحديث وعلومه، واللغة والتصوف، والنحو والبلاغة، وعلم الخلاف.

ولم يكتف العز بدراسة هذه العلوم، ولكنه بَقَر كنوزها، ووصل أغوارها، وفهم حقائقها ودقائقها، وتفوق في معرفتها والتأليف فيها، ولذلك قال ابن العماد الحنبلي: «وبرع في الفقه والأصول والعربية، وفاق الأقران والأضراب وجمع بين فنون العلم من التفسير والحديث والفقه واختلاف أقوال الناس ومآخذهم، وبلغ رتبة الاجتهاد»[2].

رحلته إلى بغداد:

قضى العز معظم حياته في دمشق، وكان أكثر تحصيله وطلبه للعلم على علمائها، ولكن ذلك لم يشبع نَهَمَ العز في زيادة العلم والتعلم، ولم يَخْفَ على العز أهمية الرحلة في طلب العلم التي أصبحت قاعدة مستقرة في الحضارة العربية والإسلامية، بل تعتبر منقبة ومفخرة ومزية لصاحبها، وشاع ذلك في الأوساط العلمية لما تحققه الرحلة في سبيل العلم من مكاسب جسيمة، ومعارف جديدة، وثقافة متنوعة، تعوّض صاحبها عمن

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٣.
(٢) شذرات الذهب ٥/٣٠٢.

يُفارقه، وعما يلاقيه من عناء السفر ومشاقه وأخطاره، حتى قيل: «الرحلة نصف العلم»، وكان كبار العلماء يرحلون لطلب العلم، وكان العالم لا يأنف من طلب العلم إذا رحل إلى بلد آخر، فيأخذ عن علمائه، ويسمع الحديث ويأخذ ويعطي أينما حل وارتحل.

وكان للعز ثلاث رحلات عن دمشق، اكتسب في كل منها لوناً من المعارف والخبرات، وازداد فيها علماً وخبرة وثقافة، **الأولى**: رحلته إلى بغداد، **والثانية**: رحلته إلى مصر، **والثالثة**: إلى ديار الحجاز.

وكانت الرحلة الثالثة بقصد الحج والعمرة، وكانت في الغالب بعد سنة ٦٤٤ هـ، وكان قد بلغ في العلم غايته، وبعد أن عزل نفسه عن قضاء مصر، وكان الناس يقصدونه هناك بالفتوى والأخذ عنه[١]، وكانت الرحلة الثانية ـ في الحقيقة ـ ليست لطلب العلم، بل كانت هجرة لله تعالى في سبيل نشر العلم، وسوف نخصها بفقرة تالية، وبقيت الأولى فقط في مرحلة شباب العز، وبقصد طلب العلم.

وذكرت معظم المصادر والمراجع التي ترجمت للعز أنه ازداد شغفاً بالعلم وتحصيله، ورحل في ريعان شبابه إلى بغداد، حاضرة الخلافة الإسلامية، ومدينة السلام والعلم، وموئل العلماء، ومقصد الطلاب من كافة الأقطار، وعاصمة الثروة العلمية والمكتبات الزاخرة، فقصدها العز سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وأخذ بعض العلوم والمعارف، و لم يمكث بها طويلاً، فأقام بها أشهراً، كما حددها ابن العماد، وسمع الحديث من أبي حفص بن طَبَرْزد، وحنبل بن عبد الله الرصافي[٢].

قال ابن رافع السلامي: «وسمعت بعض المحدثين يقول: إنه دخل

---

(١) انظر: الإمام العز بن عبد السلام، للدكتور الفقير ص ٩٥ ـ ٩٦.
(٢) انظر: شذرات الذهب ٥/٣٠٢.

بغداد في طلب العلم، فوافق يوم دخوله موت الحافظ أبي الفرج بن الجوزي، . . . وكان ذلك في سنة ٥٩٧ هـ»[١].

ثم عاد العز إلى عرينه في دمشق، بعد أن نال مبتغاه، وحصّل مقصده[٢]، وقبل أن نذكر شيوخ العز، نعرض لرحلته إلى مصر.

هجرته إلى مصر:

لم يترك العز دمشق إلى مصر ـ كما سلف ـ في طلب العلم، كما أنه لم يرحل عن دمشق هرباً من المسؤولية، وخوفاً من بطش حكامها، وما أصابه من عزل وحبس وإهانة، وإنما هاجر من الشام إلى مصر في سبيل نشر العلم، ورفع رايته، وتبليغ أحكام الله تعالى، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل بعد أن ضاق ذرعاً بالخيانة والخونة، وتحالف حكام دمشق مع الفرنج، وخنع الناس لذلك، ويئس من رجالات دمشق وعلمائها، الذين تركوه وحده في الساحة يصارع الطغاة والظلمة، ولم يقف معه إلا صديقه العالم الأصولي النحوي ابن الحاجب المالكي في الإنكار على فِعلة الصالح إسماعيل وخيانته وتحالفه مع الفرنج[٣].

ونقل ابن السبكي قصة رحيل العز إلى مصر مما دوّنه عبد اللطيف ابن العلامة العز، وبيّن سبب الرحلة، وما رافقها في الطريق، ونحن بدورنا

(١) انظر: العز بن عبد السلام، للندوي ص ٣٨.

(٢) ذكر الأستاذ محمد حسن عبد الله ـ عن بعض المصادر ـ أن العز سافر للملك الكامل ـ بعد أن ولاه القضاء بدمشق ـ برسالة خاصة إلى الخليفة في بغداد، وإذا صح ذلك فمعناه أنه ذهب إلى بغداد مرتين (عز الدين بن عبد السلام ص ٥٦)، لكن هذه الرواية لم تتأكد، ولم يلتفت لها معظم المؤرخين، مما يرجح أنه سافر مرة واحدة إلى بغداد لطلب العلم، ويحتمل أن يكون العز قد حمل في هذه الرحلة رسالة إلى الخليفة، وهو ما يعلل قِصر المدة التي مكثها العز في بغداد.

(٣) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٢١٠ ـ ٢٢٩، مفتاح السعادة ١/ ١٤٠، عصر سلاطين المماليك ٣/ ١٧٨.

نقل جانباً منها لأهميتها ووضوحها، وسوف نعود لدراستها واستنباط العبر والفوائد منها عن شخصية العز، فيما سيأتي.

قال الشيخ شرف الدين عبد اللطيف: «... ثم إنَّ المصريين حَلَفوا للملك الصالح نَجْم الدين أيُّوب، وكاتبوه بذلك، فوصل إليهم، وملك الدِّيار المصرية، وسار في أهلها السِّيرة المرضيّة، فخاف منه الصالح إسماعيل (في دمشق) خوفاً منعه المنام والطعامَ والشراب، واصطلح مع الفِرنج على أن يُنْجِدوه على الملك الصالح نجم الدين أيوب، ويُسَلِّم إليهم «صيدا» و«الشَّقيف»، وغير ذلك من حصون المسلمين، ودَخل الفِرنج دمشق لشراء السلاح ليقاتلوا به عباد الله المؤمنين، فشقَّ ذلك على الشَّيخ مشقة عظيمة في مُبايعة الفِرنْج السلاح، فقال: يحرم عليكم مبايعتُهم؛ لأنكم تتحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين، وجدَّد دعاءه على المنبر، وكان يدعو به إذا فرغ من الخطبتين قبلَ نزوله من المنبر، وهو يقول: اللهم أبْرم لهذه الأمة أمراً رشداً، تُعِزُّ فيه وليَّك، وتُذِلّ فيه عدوَّك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهى فيه عن معصيتك، والناسُ يبتهلون بالتأمين والدعاء للمسلمين، والنصر على أعداء الله الملحِدين.

فكاتب أعوان الشيطان السُّلطانَ بذلك، وحرّفوا القول وزخرفوه، فجاء كتابه باعتقال الشيخ، فبقي مدة معتقلاً، ثم وصل الصالح إسماعيل، وأخرج الشيخ بعد محاورات ومُراجعات، فأقام مدة بدمشق، ثم انتزح عنها إلى بيت المَقْدِس، فوافاه الملك الناصر داود في «الغَوْر»، فقطع عليه الطريق، وأخذه، وأقام عنده بنابُلُس مدَّةً، وجرت له معه خُطُوب، ثم انتقل إلى بيت المقدس، وأقام بها مدة، ثم جاء الصالح إسماعيل والملك المنصور صاحبُ حِمْصَ، وملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس، يقصدون الدِّيار المصرية، فسيَّر الصالح إسماعيل بعض خَواصِّه إلى الشيخ بمِنديله، وقال له: تدفع مِنْدِيلي إلى الشيخ، وتتلطّف

به غاية التلطف، وتستنزِله، وتَعِده بالعَوْد إلى مَناصبِه على أحسن حال، فإن وافقك فتدخل به عليَّ، وإن خالفك فاعتقله في خيْمةٍ إلى جانب خيْمَتي.

فلـمّا اجتمع الرسول بالشيخ شَرع في مُسايسته وملاينته، ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلى مَناصبِك، وما كنت عليه، وزيادة، أن تنكسر للسلطان، وتقبِّل يدَه لا غير. فقال له: «والله يا مسكين، **ما أرضاه أن يُقبِّل يدي، فضلا أن أُقبِّلَ يده، يا قَوْم، أنتم في وادٍ، وأنا في وادٍ**، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به».

فقـال له: قد رَسَم لي إن لم تُوافق على ما يُطلب منك وإلا اعتقلتك. فقال: افعلوا ما بدا لكم، فأخذه واعتقله في خَيْمة إلى جانب خيْمة السلطان.

وكـان الشيخ يقرأ القرآن، والسلطان يسمعه، فقال يوماً لملوك الفِرنج: تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟ قالوا: نعم، قال: هذا **أكبر قُسُوس المسلمين**، وقـد حبسته لإنكـاره عليَّ تسليمي حُصُون المسلمين، وعزلته عن الخَطَابة بدِمَشق، وعن مناصِبه، ثم أخرجته فجاء إلى القُدْس، وقد جَدَّدتُ **حبسه واعتقاله لأجْلكم**، فقالت له ملوك الفرنج: **لو كان هذا قِسِّيسَنا لغَسلنا رجليه، وشربنا مَرَقتها**.

«ثم جاءت العساكر المصرية، ونصر الله تعالى الأمة المحمديّة، وقتلوا عساكر الفرنج، ونجّىٰ الله سبحانه وتعالى الشيخَ، فجاء إلى الديار المصرية، فأقبل عليه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله، وولاه خطابة مصر وقضاءها، وفوَّض إليه عمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة، واتَّفق له في تلك الولايات عجائب وغرائب، ثم عزل نفسه عن الحُكم، فتلطَّف السلطان رحمه الله في ردِّه إليه، فباشر مدة، ثم عزل نفسه مرة ثانية، فتلطّف مع السلطان في إمضاء عزله لنفسه فأمضاه،

وأبقى جميع نوّابه من الحكام (أي القضاة في مصر والوجه القبلي) وكتب لكل حاكم منه تقليداً، ثم ولاه تدريسَ المدرسة الصالحية بالقاهرة المُعِزّية»[1].

ولخّصَ ذلك ابن السبكي، فقال: «قلت: واستمر الشيخ عز الدين بدمشق إلى أثناء الصالح إسماعيل المعروف بأبي الخَيْش، فاستعان أبو الخَيْش بالفرنج وأعطاهم مدينة صيدا وقلعة الشقيف، فأنكر عليه الشيخ عز الدين، وترك الدعاء له في الخُطبة، وساعده في ذلك الشيخ أبو عمرو بن الحاجب المالكي، فغضب السلطان منهما، فخرجا إلى الديار المصرية في حدود سنة تسع وثلاثين وستمائة، فلما مر الشيخ عز الدين بالكَرَك تلقاه صاحبها، وسأله الإقامة عنده، فقال له: بلدك صغير على علمي، ثم تَوَجّه إلى القاهرة، فتلقاه سلطانها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، وأكرمه، وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص بمصر والقضاء بها وبالوجه القِبلي مدة»[2].

ويظهر بوضوح من النصين أن الشيخ العز لم يهرب من المعركة وحلبة الصراع ليخلد للراحة، بل قصد الهجرة في سبيل الله تعالى، لنشر العلم، وإحقاق الحق، وإزهاق الباطل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنصح لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، فإن لم يتحقق ذلك، ورفض سلطان مصر الرضوخ للحق والعدل والشرع لم يجد العز غضاضة أن يؤيد قوله بفعله، وأن يزيل المنكر بيده، ثم يعزل نفسه، ويتلطف له السلطان ليحمله على العودة فيقبل، ثم يتلطف هو عند السلطان ليقبل منه ترك الأعمال والمناصب إن لم يتحقق بها رضاء الله وتطبيق شرعه.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٣ - ٢٤٤.
(٢) المرجع السابق ٨/٢١٠.

شيوخ العز:

يمثل العز بن عبد السلام رمزاً لمدرسة معنوية في تاريخ الإسلام والمسلمين، وفي كتب التراجم وسيرة العلماء.

هذه المدرسة ظهرت نواتها ـ في الحقيقة والواقع ـ قبل العز، وبرز كثير من صفاتها وميزاتها في شيوخ العز الذين تخرّج بهم، ودرس على أيديهم، وتتلمذ في حلقاتهم، واقتبس من علمهم وفضلهم وسلوكهم، لأنهم كانوا يجمعون بين العلم والعمل من جهة، وصدرت منهم المواقف الطيبة، والرجولة الكاملة في الحياة، سواء كان في الزهد والورع والتقوى ومجانبة السلطان، وتولي المناصب الرسمية في التدريس والإفتاء والقضاء، أم في قول الحق، والجرأة في الأمور، والصلابة في الدين، والوقوف عند حدود الله، والدفاع عن شرعه وأحكامه، والجهاد باللسان والسنان.

ورفع العز راية هذه المدرسة، وارتبطت باسمه في الغالب، ولكنها انتقلت إلى بعض تلاميذه ـ كما سنرى في فصل لاحق ـ ووجد أنصار لها وأتباع في كل زمان ومكان، كما أن لها أنصاراً وسفراء في كل عصر.

وتلقى العز بن عبد السلام العلم على جلة علماء دمشق وبغداد والقاهرة، ونشرع بالتعريف الموجز، والترجمة المختصرة لأهم شيوخ العز وأشهرهم الذين ذكرهم ابن السبكي باختصار وبيّن اختصاصهم، فقال: «تفقه على الشيخ فخر الدين بن عساكر، وقرأ الأصول على الشيخ سيف الدين الآمدي وغيره، وسمع الحديث من الحافظ أبي محمد القاسم بن الحافظ الكبير أبي القاسم بن عساكر، وشيخ الشيوخ عبد اللطيف بن إسماعيل بن أبي سعد البغدادي، وعمر بن محمد بن طَبَرْزَد، وحنبل بن عبد اللطيف الرصافي، والقاضي عبد الصمد بن محمد الحرستاني،

وغيرهم، وحضر على بَرَكات بن إبراهيم الخُشُوعي»[1]، وهاك شيئاً من التفصيل.

١ ـ فخر الدين بن عساكر:

هو أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله، الدمشقي، الملقب فخر الدين، المعروف بابن عساكر، شيخ الشافعية بالشام، وفقيه زمانه، وكان محدثاً، صالحاً، زاهداً، كثير التهجد، حسن الخَلْق والخُلُق، كثير الأدب والذكر، منقطعاً للعلم والعبادة، وجمع بين العلم والعمل، وهو من أسرة اشتهرت بالعلم والفضل والحفظ، وكان قوياً في الحق، لا يهاب سطوة ظالم، ولا يسكت على منكر أو مخالفة للشرع، وتوفي سنة ٦٢٠ هـ، وطلب للقضاء فامتنع، وعرضت عليه مناصب ولايات دينية فأباها، وأنكر على الملك المعظم بيع الخمور بدمشق، فمنعه من التدريس في أهم المدارس، وهو ابن أخي الحافظ أبي القاسم علي بن عساكر، صاحب «تاريخ دمشق».

لازمه العز كثيراً، وأخذ منه الفقه والحديث، وتأثر به في علمه وأخلاقه وسلوكه[2].

٢ ـ جمال الدين ابن الحرستاني:

هو عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل بن علي، قاضي القضاة، جمال الدين، أبو القاسم، الخزرجي الأنصاري، الدمشقي، المعروف بابن الحَرَستاني، قاضي دمشق، من ذرية سعد بن عُبادة رضي الله عنه.

جمع الحديث، وسماه الذهبي: «مُسْنِد الشام، شيخ الإسلام. .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٠٩.

(٢) انظر: وفيات الأعيان ٢/٣١٦، النجوم الزاهرة ٦/٢٥٦، طبقات الشافعية الكبرى ٨/١٧٧، فوات الوفيات ١/٥٤٤، شذرات الذهب ٥/٩٢، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/٩٧، الأعلام ٤/١٠٥، ذيل الروضتين ص ١٣٦.

وكان إماماً، فقيهاً، عارفاً بالمذهب، ورعاً، صالحاً، محمود الأحكام، حسن السيرة، كبير القدر... وولي القضاء بدمشق نيابة... ثم إنه وليَ قضاء القضاة استقلالاً في سنة ٦١٢ هـ»[١].

وكان عالماً، صالحاً، زاهداً على طريقة السلف في لباسه وعفته، وكان صارماً، عادلاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، وله حكايات عظيمة مع الملك المعظم عيسى في أحكامه[٢]، ولم تفته صلاة بجامع دمشق في جماعة إلا إن كان مريضاً، وعمِّر دهراً طويلاً، وتوفي سنة أربع عشرة وستمائة، وله ٩٥ سنة، وكان من أعدل القضاة وأقومهم بالحق.

تتلمذ عليه الشيخ العز بن عبد السلام، وسمع منه الحديث، وأخذ عنه الفقه، وكان عليه ابتداء اشتغاله، ثم صحب فخر الدين بن عساكر، وسئل العز عنهما فرجَّح ابن الحرستاني، وقال: ما رأيت أحداً أفقه من ابن الحرستاني، وقال عنه: إنه كان يحفظ «الوسيط» للغزالي[٣].

٣ ـ سيف الدين الآمدي:

هو علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي، أبو الحسن، الفقيه الشافعي، الأصولي، المتكلم.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٨٠ ـ ٨٢.

(٢) أرسل الملك العادل كتاباً له للتشفع في شخص، فوجد القاضي الحق مع الخصم، فحكم له، وقال: «كتاب الله قد حكم على هذا الكتاب» فبلغ العادل ذلك، فقال: «صدق كتاب الله أولى من كتابي»، وكان ابن الحرستاني يقول للعادل: «أنا ما أحكم إلا بالشرع، وإلا فأنا ما سألتك القضاء، فإن شئت فأبصر غيري» وكان ابنه ينوب عنه في الحكم، فبلغه شيء عنه فعزله. (انظر: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٨٢، البداية والنهاية ١٣/ ٧٨، شذرات الذهب ٦/ ٦٠).

(٣) انظر المراجع السابقة، طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ١٩٦، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٢٠، طبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٢١٣، سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٨٠ ـ ٨٢، الذيل على الروضتين ص ١٠٦.

تفقه في بغداد على المذهب الحنبلي، ثم انتقل إلى المذهب الشافعي، وتعلم في الشام والقاهرة، وتولى التدريس فيهما، وكان متقناً لعلم الخلاف والنظر وأصول الفقه وأصول الدين والفلسفة، وكان حسن الأخلاق، فصيح اللسان، بارع البيان، وصنف الكتب المحققة المفيدة، وحسده جماعة من فقهاء البلاد بمصر، وتعصبوا عليه، واتهموه بأشياء باطلة، هو منها بريء، وخرج إلى الشام، وتوفي بها سنة ٦٣١ هـ.

قال ابن السبكي: «إنه حفظ «الوسيط» وحمل عنه الأذكياء العلم: أصولاً وكلاماً وخلافاً»(١).

وتتلمذ عليه شيخنا العز، واعترف بفضله، وأثنى عليه، وكان يعظمه، وقال: «ما تعلمنا قواعد البحث إلا منه»، وقال: «ما سمعت أحداً يلقي الدرس أحسن منه، كأنه يخطب» وقال: «لو ورد على الإسلام متزندق يشكك ما تعين لمناظرته غيره»، فدرس العز أصول الفقه على الآمدي البارع في علم الأصول، وصنف فيه كتابه «الإحكام في أصول الأحكام» الذي يعتبر من أمهات كتب أصول الفقه، ومن أهم مصادره الأصيلة(٢).

٤ ـ القاسم بن عساكر:

هو القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله، وهو الحافظ أبو محمد بن الحافظ أبي القاسم بن عساكر، بهاء الدين.

كتب الكثير حتى أنه كتب تاريخ والده (تاريخ دمشق) مرتين، وهو

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٣٠٧.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٠٩ ـ ٣٠٦، وفيات الأعيان ٢/٤٥٥، شذرات الذهب ٥/١٤٤، الذيل على الروضتين ص ١٦١، البداية والنهاية ١٣/١٤٠، حسن المحاضرة ١/٥٤١، ميزان الاعتدال ٢/٢٥٩، طبقات الشافعية للإسنوي ١/٧٣، الفتح المبين ٢/٢٥٩، الأعلام ٥/١٥٣، المرجع في العلوم الإسلامية، لنا ص ٥٨٨، ٦٢١، ٧٤٤، مفتاح السعادة ٢/١٨١، ١٨٩، ٣٥٣، سير أعلام النبلاء ٢٢/٣٦٤، ٣٦٦.

من أسرة علمية، وله كتاب «فضل المدينة» و«فضل المسجد الأقصى» و«الجهاد»، وتولى مشيخة دار الحديث النورية بعد والده، ولم يتناول أجراً على ذلك، بل كان يدفعه للطلبة، وكان ناصر السنة في إماتة البدعة.

سمع منه خلق كثير، وأملى كثيراً، وحدث، ودخل مصر وانتفع به أهلها، وعاد إلى دمشق ومات بها سنة ٦٠٠ هـ، وكان يحب المزح، وكثير النوافل والذكر، معرضاً عن المناصب بعد عرضها عليه، وكان حسن المعرفة، شديد الورع، كثير الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قليل الالتفات إلى الأمراء وأبناء الدنيا.

سمع العز منه الحديث، وانتفع به في منهجه وسلوكه[١].

٥ ـ الخُشُوعي:

هو بركات بن إبراهيم بن طاهر الخُشُوعي، مسند الشام في وقته، شارك الحافظ ابن عساكر في كثير من مشيخته سماعاً بدمشق، والغرباء إجازة، وطالت حياته بعد وفاته بسبع وعشرين سنة، فألحق الصغار بالكبار، وانتفع به خلق كثير.

واختلف في تاريخ وفاته، فحدده ابن كثير سنة ٥٩٧ هـ، ونقل ابن تغري بردي أنها سنة ٥٩٨ هـ.

والتقى به العز في أيامه الأولى، وتلقى عليه العلوم، وحضر دروسه، وسمع منه الحديث[٢].

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٣٥٢/٨، طبقات الشافعية للإسنوي ٩٥/٢، البداية والنهاية ٣٨/١٣، وفيات الأعيان ٤٧٣/٢ (في ترجمة والده)، النجوم الزاهرة ١٨٦/٦، تذكرة الحفاظ ١٣٦٧/٤، شذرات الذهب ٣٤٧/٤، الأعلام ١٢/٦، الذيل على الروضتين ص ٤٧.

(٢) انظر: البداية والنهاية ٣٢/١٣، النجوم الزاهرة ١٨١/٦، الذيل على الروضتين ص ٢٨.

٦ ـ عبد اللطيف البغدادي:

هو عبد اللطيف بن إسماعيل بن أبي سعد الصوفي، أبو الحسن، المعروف بابن شيخ الشيوخ، ولقبه ضياء الدين، وهو أخو شيخ الشيوخ صدر الدين بن إسماعيل الذي قدم رسولاً على صلاح الدين من بغداد مراراً.

سمع عبد اللطيف الحديث من والده أبي البركات إسماعيل وغيره، وكان صالحاً ثقة، وحج، وسافر إلى مصر ثم إلى القدس، وقدم دمشق، وتوفي فيها سنة ٥٩٦ هـ.

وسمع العز منه الحديث[1].

٧ ـ عمر بن طَبَرْزَد:

هو عمر بن محمد بن مُعَمَّر بن يحيى بن حَسَّان، أبو حفص المعروف بابن طَبَرْزَد، والطَبَرْزَد هو السكر، البغدادي، وهو المُسْنِد الكبير للحديث، سمع الحديث من عدد من علماء بغداد، ورحل إلى الآفاق، وأسمع الحديث، وسماه ابن كثير: شيخ الحديث، وكان ظريفاً، ويؤدب الصبيان بدار القز (محلة ببغداد) وقدم دمشق مع حنبل بن عبد الله المكبِّر، وسمع أهلها منهما الحديث، وعاد إلى بغداد، فمات فيها سنة ٦٠٧ هـ، وله سبع وتسعون سنة.

وسمع العز منه الحديث[2].

٨ ـ حنبل الرُّصافي:

هو حَنْبل بن عبد الله بن الفرج بن سُعادة، أبو علي الرُّصَافي،

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٠٩، النجوم الزاهرة ٦/١٥٩، الإمام، مقدمة المحقق ص ٣٥، الذيل على الروضتين ص ١٧.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٠٩، النجوم الزاهرة ٦/٢٠١، البداية والنهاية ١٣/٦١، الذيل على الروضتين ص ٧٠.

الحنبلي، المكبِّر بجامع المَهْدي بالرصافة، وهو راوي مسند الإمام أحمد بسنده إلى عبد الله عن أبيه أحمد، وعُمّر تسعين سنة، وخرج من بغداد إلى أربل فأسمع المسند، واستقدمه ملوك دمشق إليها، فسمع الناس بها عليه المسند، وكان الملك المعظم عيسى بدمشق يكرمه، ويجزل له العطاء، وكان معه في هذه الرحلة ابن طَبَرْزَد، وكان الملك عيسى يسمع منه الحديث في «الكلاسة» مع الجمع الكثير، وعاد إلى بغداد وتوفي بها سنة ٦٠٤ هـ، وكان العز بن عبد السلام أحد الذين سمعوا منه الحديث[1].

هؤلاء أهم الشيوخ الذين أخذ عنهم العز العلم، والذين ذكرتهم كتب التراجم والتاريخ في سيرة العز، ولا شك أن شيوخه أكثر من ذلك بكثير، وأنه أخذ العلم عن علماء دمشق التي كانت تغصُّ بالعلم والعلماء، ويرد إليها العلماء من مختلف البلدان في تلك الظروف المتفاوتة في الاضطراب والازدهار، وكانت وسط الطريق، ومحط الرحال بين المشرق العربي والمغرب العربي، كما أخذ العز عن علماء بغداد، واكتسب الكثير من علماء مصر بعد هجرته إليها، وإن تجاوز عمره الستين، ولذلك نعرض لجانب من معاصريه وأقرانه الذين تأثر بهم وتأثروا به، وحصلت الاستفادة المتبادلة بينهم، وهم في أعلى درجات العلم.

معاصرو العز وأقرانه:

يتجه الإنسان عادة للتعلم في الصغر، ويبحث عن العلماء ليأخذ منهم، ويجلس بين أيديهم، ويكون بمثابة الطالب والمستفيد والتلميذ، وهم بمثابة الشيوخ والأساتذة، وهكذا يستمر الحال في مراحل الطفولة والصبا والشباب، ويتخذ شيوخه في هذه الحالة، فإذا نضج عقله،

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٠٩، النجوم الزاهرة ٦/١٩٥، البداية والنهاية ١٣/٥٠، الذيل على الروضتين ص ٦٣.

واكتسب قدراً كافياً من العلم تنعكس الآية، وتنقلب الصورة ليصبح الطالب أستاذاً، والتلميذ شيخاً، والآخذ معطياً.

ولكن الشرع والعقل والواقع يقررون أن العلم من المهد إلى اللحد، وأن الإنسان يبقى طالب علم ولو بلغ من الكبر عتياً، والعاقل لا يتكبر عن الاستفادة العلمية ولو من تلاميذه وطلابه، فقد يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر، وأن العلم لا حد له، ولا ساحل لشواطئه، ويصدق فيه قول الشاعر:

مـا حَـوَى العلمَ جميعـاً أحـدُ　　لا ولَـوْ حَـصَّـلَه ألـفَ سنـة

ولذلك فلا غرابة أن يأخذ العالم العلم عن أقرانه وأصحابه، وأن يتبادل معهم المعارف، فيكسب ويربح في الحالتين، لأن كل شيء ينقص بالعطاء إلا العلم فإنه يزيد وينمو، ويستقر ويثبت بالعطاء.

ومشى العز على هذه السيرة، فلم يمنعه كبر السن، وعلو الدرجة العلمية، والمكانة الأدبية، والمنزلة الرفيعة أن يجلس إلى علماء عصره، ويستفيد منهم، ويستفيدوا منه، ويحضر دروسهم وتوجيهاتهم، فيأخذ ويعطي، ويستفيد ويفيد، وهنا في الحقيقة والواقع تظهر مكانة العالم الحقيقية بين أقرانه وعلماء عصره، أكثر من جلوسه بين تلاميذه وطلابه، ولذلك رأينا مكانة العز العلمية ترتفع وتسمو، ويقر العلماء بفضله وعلمه، ويثنوا عليه، لأنه لا يعرف الفضل إلا ذووه.

لذلك رأينا أن نعرج قليلاً على ترجمة مختصرة لأهم معاصري العز وأقرانه، لتكتمل الصورة العلمية عن عصر العز من جهة، وتظهر المكانة العلمية للعز من جهة ثانية، ونتعرف على معظم المصادر والمنابع التي استقى منها العز علومه ومعارفه من جهة ثالثة.

وتتنوع ثقافة معاصري العز وأقرانه، وتختلف مشاربهم، وتتعدد اتجاهاتهم، وكان بعضهم في دمشق، والآخر في مصر، ورافقه بعضهم

في البلدين، وكان العز صديقاً حميماً معهم، ومقراً أيضاً بعلمهم وفضلهم، ويحسن العشرة معهم، والتعامل الدمث، والتعاون المخلص فيما يحبه الله ويرضاه، كما أن معرفة الأصحاب والأقران توحي بسمات الشخص وصفاته، فالصاحب ساحب، وجاء في المثل: قل لي من تصاحب أقل لك من أنت، والأرواح جنود مجنّدة ما تعارف منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف، وإن الطيور على أشكالها تقع، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «مَثَل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثل صاحب المسك وكير الحداد، لا يعدَمُك من صاحب المسك: إما أن تشتريه أو تجد ريحه، وكير الحداد: يحرق بدَنَك أو ثوبك، أو تجد منه ريحاً خبيثة»[1].

١ ـ ابن الحاجب:

هو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أبو عمرو، جمال الدين، المعروف بابن الحاجب، الفقيه المالكي، الأصولي، النحوي، الأديب، الشاعر.

ولد في أسنا من صعيد مصر، وهو كردي الأصل، وحفظ القرآن الكريم، وتعلم بالقاهرة، وأتقن الفقه وأصوله، ثم العربية والقراءات، وصار من كبار علماء العربية، وانتقل إلى دمشق سنة ٦١٧ هـ واستوطنها، ودرّس بزاوية المالكية في الجامع الأموي، وذاع صيته، وأكب عليه الناس للاشتغال به، ثم رجع إلى مصر، فاستوطنها، وعكف على الدرس والتأليف، ثم انتقل إلى الإسكندرية فمات بها سنة ٦٤٦ هـ، له كتب كثيرة أهمها «مختصره» المشهور في أصول الفقه، و«مختصره» في الفقه، و«الكافية» في النحو.

كان ابن الحاجب ركناً من أركان الدين في العلم والعمل، وكان ثقة

(١) رواه البخاري (٢/ ٧٤١ كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك) عن أبي موسى رضي الله عنه، ورواه البخاري ومسلم بلفظ آخر.

حجة، متواضعاً، عفيفاً، محباً للعلم، ناشراً له، صبوراً على البلوى، محتملاً للأذى[1].

وكان ابن الحاجب محباً للشيخ العز بن عبد السلام، ويقدر علمه وفضله، وقال فيه: ابن عبد السلام أفقه من الغزالي[2]، وكان ابن الحاجب يعاضد العز، ويقف إلى جانبه في وجه الانحراف أو الزيغ أو الظلم، ولما نال الملك الأشرف موسى من العز، واستشاط غضباً، وهدد وتوعد في حضور عامة الفقهاء فلم يجرؤوا أن يردوا عليه، وكأنهم أفتوا بموافقته، أنكر ابن الحاجب ذلك عليهم، وشدد النكير، وعاتبهم بعدم النطق بالحق، والنصرة لدين الله وشرعه، ثم وصل بهم إلى التعنيف والتوبيخ، وكتب فتوى بصحة كلام العز، وأخذ خطوطهم بموافقته، ورفعها للملك الأشرف[3]، ولما حبس الصالح إسماعيل العز، لأنه أنكر عليه تحالفه مع الفرنج ضد ابن أخيه الملك الكامل بمصر، دخل ابن الحاجب السجن معه، ليؤنسه، ويدوم معه، ولما خرج العز من الشام إلى بيت المقدس صاحبه ابن الحاجب وارتحل معه إلى مصر سنة **٦٣٩ هـ**، بعد أن ساعده في الإنكار على الصالح إسماعيل[4].

٢ ـ المنذري:

هو عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة، زكي الدين،

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٣٠٦، وفيات الأعيان ٢/٤٥٥، شذرات الذهب ٥/١٤٤، الفتح المبين ٢/٥٧، البداية والنهاية ١٣/١٤٠، حسن المحاضرة ١/٥٤١، ميزان الاعتدال ٢/٢٥٩، طبقات الشافعية للإسنوي ١/٧٣، الأعلام ٥/١٥٣، مفتاح السعادة ١/١٣٨، الذيل على الروضتين ص ١٨٢.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٤.

(٣) المرجع السابق ٨/٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٠، الإمام العز، للدكتور الفقير ص ٢٥٨، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/٨٤، مفتاح السعادة ١/١٤٠.

أبو محمد، المنذري المصري، من حفاظ الحديث، الفقيه الشافعي، العالم بالعربية.

أصله من الشام، ومولده ووفاته بمصر، وسمع الحديث في عدة بلدان، وبرع فيه، وفي معرفة أحكامه ومعانيه، ولي مدرسة دار الحديث الكاملية، وانقطع بها نحو عشرين سنة.

وكان زاهداً، شديد الورع، أحفظ أهل زمانه، مفرط الذكاء، وله شعر(١)، وقال فيه أبو الحسن الشاذلي: «ما على وجه الأرض مجلس في الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكي الدين عبد العظيم»(٢).

وكانت الصلة قوية بينه وبين العز، والصداقة حميمة، والاحترام متبادلاً، واعترف كل منهما بفضل صاحبه وتفوقه في اختصاصه، ولما قدم العز الديار المصرية امتنع عن التحديث، وكان يُسمعه في دمشق، احتراماً وإجلالاً للحافظ المنذري، واعترافاً بنبوغه وسبق معاصريه في الحديث، وفي المقابل فقد اعترف المنذري بفضل العز وفهمه وسبقه في الفقه، فكان المنذري يفتي قبل قدوم العز إلى مصر. وقال ابن السبكي عن العز: «فلما استقر مقامه بمصر، أكرمه حافظ الديار المصرية وزاهدها عبد العظيم المنذري، وامتنع من الفتيا، وقال: كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعيِّن فيه»(٣)، وقال الإسنوي:

---

(١) انظر: تذكرة الحفاظ ٤/١٤٣٧، طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٥٩، فوات الوفيات ١/٦١٠، حسن المحاضرة ١/٣٥٥، البداية والنهاية ١٣/٢١٢، شذرات الذهب ٧/٦٣، ٦٨، الأعلام ٤/١٥٦، مرجع العلوم الإسلامية ص ٢٦٨، ذيل مرآة الزمان ١/٢٤٨، ذيل الروضتين ص ٢٠١.

(٢) انظر: حسن المحاضرة ١/٣١٥.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١١، وانظر: الإمام العز، للدكتور الفقير ص ٢٥٤، الفتح المبين ٢/٧٤.

«فامتنع من الفتوى مع وجوده، وكان كل منهما يأتي إلى مجلس الآخر»[1].

٣ ـ جمال الدين الحُصَيْري:

هو محمود بن أحمد بن عبد السيد بن عثمان، جمال الدين، أبو المحامد البخاري، المعروف بالحُصَيْري، نسبة إلى قرية من أعمال بخارى، تفقه بها وسمع الحديث الكثير، ورحل في طلبه، حتى صار إلى دمشق، وانتهت إليه رئاسة الحنفية، لا سيما في أيام الملك المعظم عيسى الذي كان يقرأ عليه «الجامع الكبير» وغيره، وصنف «شرح الجامع الكبير»، وكان المعظم يجله ويحترمه.

وكان الحصيري من العلماء العاملين، كثير الصدقة، غزير الدمعة، نزهاً عفيفاً، ديِّناً وقوراً، ودرّس بالنورية، وأفتى، وحج، ومات سنة ٦٣٧ هـ عن تسعين سنة، وجمع بين العلم والعمل[2].

وكان الحصيري يعرف مكانة العز، وانتصر له في فتنة الحنابلة التي أثاروها ضد العز وعقيدته عند الملك الأشرف موسى بدمشق، فمنع العز من الفتوى، وأمره بالإقامة الجبرية والحبس في بيته، وأن لا يجتمع بأحد، فقصد الحصيري السلطان، ودافع عن العز، وأيده في آرائه، وقال للملك: «وهذا رجل لو كان في الهند، أو في أقصى الدنيا، كان ينبغي للسلطان أن يسعى إليه في بلاده، لتتم بركته عليه وعلى بلاده، **ويفتخر به على سائر الملوك**»، وقال عن عقيدة العز التي بعث بها إلى الأشرف ليرد على المبتدعة الحنابلة: «هذا اعتقاد المسلمين، وشعار الصالحين،

---

(١) طبقات الشافعية، له ٢/٨٥، وانظر حسن المحاضرة ١/٣١٥.

(٢) انظر: الفوائد البهية ص ٢٠٥، البداية والنهاية ١٣/١٥٢، شذرات الذهب ٥/١٨٢، النجوم الزاهرة ٦/٣١٦.

ويقيـن المؤمنين، وكل ما فيها صحيح، **ومن خالف ما فيها، وذهب إلى ما قاله الخَصْم... فهو حمار**»[١].

يقول الدكتور الفقير: «ومثل هذه الجرأة لا تصدر إلا عن عالم واثق بربه، لا يهاب سطوة الظالمين، ولا يخاف في الحق لومة لائم، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء»[٢].

٤ - أبو الحَسَن الشَّاذلي:

هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار، أبو الحسن الشاذلي المغربي، رأس الطائفة الشاذلية في التصوف، وصاحب الأوراد في الذكر الذي يعرف باسمه «حزب الشاذلي».

ولد في غمارة من قرى أفريقيا بالمغرب الأقصى، قريبة من مدينة سبتة، درس العلوم الشرعية وتفقه، ورحل إلى بغداد وغيرها، وتصوف وسكن شاذلة بتونس، وإليها نسبته، وحج مراراً ثم سكن الإسكندرية، واتجه إلى الحج فمات بصحراء عَيْذاب، وكان ضريراً، سنة ٦٥٦ هـ.

التف الناس حوله في شاذلة، والإسكندرية، وصار يتمتع بمكانة شعبية أدت إلى حسده ومحاولة الإيقاع به عند الحكام، وكان كبير القدر، كثير الكلام في اصطلاحات الصوفية، وله نظم ونثر، وفي عباراته متشابهات، ويناظر فيها، قال ابن دقيق العيد: ما رأيت أعرف بالله منه، صار له أتباع وتلاميذ، منهم أبو العباس المرسي.

وكان العز بن عبد السلام يلتقي به، ويحضر مجالسه، ويتواجد في درسه لشدة إعجابه به، ويسمع كلامه، وكان أبو الحسن الشاذلي يقر بفضل العز وعلمه، ويعتبره عالم الأمة في زمانه، وقال الشاذلي: «قيل لي: ما

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٣٦، ٢٣٧.
(٢) الإمام العز، للدكتور الفقير ص ٢٦٤.

على وجه الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وما على وجه الأرض مجلس في الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكي الدين عبد العظيم (المنذري)، وما على وجه الأرض مجلس في علم الحقائق أبهى من مجلسك»[1].

٥ ـ أبو العباس المُرْسِي:

هو أحمد بن عمر، شهاب الدين، أبو العباس المرسي الأنصاري الإسكندري المالكي، العارف بالله، رأس أصحاب الشيخ أبي الحسن الشاذلي، كان علامة زمانه في العلوم الإسلامية، وله القدم الراسخة في علم التصوف، وكان صالحاً مشهوراً، توفي بالإسكندرية سنة ٦٨٦ هـ، ودفن فيها، وقبره معروف، ولم يضع شيئاً من الكتب[2].

وحضر أبو العباس المرسي مرة إلى القاهرة، وكان الشيخ عز الدين يقرأ «رسالة القشيري» في العقيدة والتصوف، فقال له الشيخ عز الدين: تكلم عن هذا الفصل، فأخذ المرسي يتكلم، والشيخ عز الدين يزحف في الحَلْقة، ويقول: اسمعوا هذا الكلام الذي هو حديث عهد بربه[3].

٦ ـ ابن الصَّلاح:

هو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى، الكردي، الشَهْرَزُوري، أبو عمرو، المعروف بابن الصلاح، الفقيه الشافعي، المحدث، الأصولي، اللغوي.

---

(١) انظر: حسن المحاضرة ٣١٥/١، ٥٢٠، نكت الهميان ص ٢١٣، الطبقات الكبرى للشعراني ٤/٢، شذرات الذهب ٢٧٨/٥، النجوم الزاهرة ٦٩/٧، الأعلام للزركلي ١٢٠/٥، الإمام العز، للفقير ص ٢٦٢.

(٢) انظر: حسن المحاضرة ٥٢٣/١، النجوم الزاهرة ٣٧١/٧، نيل الابتهاج ص ٦٤، الطبقات الكبرى للشعراني ١٢/٢.

(٣) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٢١٤/٨ ـ ٢١٥.

تفقه على والده صلاح الدين الذي كان يشار إليه بالبنان بين علماء الأكراد في الشهرزور، وهي كورة واسعة بين أربل وهمذان من بلاد الأكراد، ورحل إلى عدة بلاد في طلب العلم، وتفقه وبرع في المذهب الشافعي وأصوله، وفي الحديث وعلومه، وفي التفسير واللغة، واشتغل عليه الناس بالحديث، وأفتى وحدث ودرس بالقدس ودمشق وحلب، وتوفي بدمشق سنة ٦٤٣ هـ.

وكان مثالاً فذاً في الدأب على العلوم، وكان زاهداً، ورعاً، جليلاً، وإذا أطلق الشيخ في علوم الحديث فهو المراد، لأهمية كتابه «معرفة أنواع الحديث» ويعرف بمقدمة ابن الصلاح[١].

وكانت علاقته بالعز بالمناظرات والمنازعات في بعض المسائل الفقهية كصلاة الرغائب التي أنكرها العز، وانتصر لها ابن الصلاح، وهذه عادة الأقران في الغالب، ولكن كل منهما اعترف بالفضل للآخر، فاعترف العز بمكانة ابن الصلاح الفقهية، ومرتبته العلمية، واعتمد عليه في بعض فتاويه، كما هي أخلاق العلماء، كما أقر ابن الصلاح بعلم العز وفضله[٢].

ويضاف لما سبق من الأقران والمعاصرين للعز شهاب الدين أبو حفص السُهْروردي صاحب الكتاب المشهور «عوارف المعارف»، وكان العز يحضر مجالسه في الذكر ودروس التصوف، وقراءة «رسالة القشيري» معه إلى أن مات سنة ٦٣٢ هـ.

ومنهم أيضاً علي بن أحمد بن الحسن التجيبي المالكي، المعروف بالحراكي، الأندلسي الأصل، وكان ينافس العز في «تفسير القرآن الكريم» ويضع القوانين والقواعد للتفسير، بمثابة أصول الفقه للأحكام، ومات

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣٦٧/٨، مرجع العلوم الإسلامية ص ٢٦٦ والمراجع الواردة في الهامش، ذيل الروضتين ص ١٧٥.
(٢) انظر: الإمام العز، للفقير ص ٢٥٦.

بحماة سنة ٦٣٧ هـ، وله تقدم في علم الحديث والعربية والفرائض والشعر، وترك تآليف حسنة[1].

ونكتفي بهذه النبذة عن بعض كبار العلماء الأجلاء الذين عاصروا العز بن عبد السلام، ولم يتتلمذ عليهم، ولم يدرسوا على يديه، وإنما شاركوه في كثير من العلوم، وأخذوا منه، وأخذ منهم، واعترفوا له بالفضل والتفوق العلمي، والمواقف المشهودة، وهو ما يندر حصوله بين الأقران إلا إذا تأكد التفوق، وظهر للعيان، وأصبح حجة دامغة لا يمكن إنكاره من جهة، وكان الأقران من أصحاب الفضل والتقوى، من جهة ثانية، فإنه لا يعرف الفضل إلا ذووه، كما وقعت بينهم المنافسة العلمية، والمناظرات، والمساجلات الفقهية، لكن عرف كل منهم فضل أصحابه، ومكانتهم، وأقر بعلمهم، وخلى الجو لما يتفردون به من اختصاص، وفي هذا إتمام ـ كما ذكرنا ـ للصورة العلمية، والمكانة الاجتماعية التي كان يتمتع بها العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر: مرجع العلوم الإسلامية ص ٧١٨، الإمام العز، للفقير ص ٢٤٤، ٢٥٩.

الفَصل الثالث
مَنَاصِبُ العِزِّ وَأَعْمَالُهُ

أصناف الناس في العلم:

يقول رسول الله ﷺ: «مَثَل ما بعثني الله به مِن الهدى والعلم كمثل غَيْثٍ أصاب أرضاً، فكانت منها **طائفةٌ طيِّبةٌ**، قبلتِ الماءَ فأنبتت الكلأ والعُشْبَ الكثير، وكان منها **أجادب** (صلبة لا تشرب الماء سريعاً فيستقر عليها) أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها، وسَقَوْا وزَرَعُوا، وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هي **قيعان** (الأرض المستوية الملساء التي لا نبات فيها) لا تُمسك ماء، ولا تنبتُ كلأً، فذلك مثل من **فقه في دين الله**، ونفعه ما بعثني الله به، فعلِم وعَلَّم، ومثل من **لم يرفع بذلك رأساً**، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»(١).

فالناس ثلاثة أصناف، منهم من يحفظ العلم، ويعمل به، ويعلمه غيره، ومنهم من يحفظ العلم، وينقله إلى غيره ممن يستفيد منه، وليس له اجتهاد في العمل بمقتضاه، أو الزيادة عليه أو الانتفاع منه لذاته، ومنهم من يعرض عن العلم، فلا يسمعه لينتفع به، ولا يحفظه لينقله لغيره، وهذه الأصناف أيضاً على مراتب ودرجات كذلك(٢).

---

(١) هذا حديث صحيح رواه البخاري (١/٤٢) ومسلم (١٥/٤٦).
(٢) انظر: نزهة المتقين ٢/٩٥١.

فبعض الناس إذن كالأرض الطيبة، تتلقى الخير والمطر من السماء، ثم يلقى فيها البذار، وتوضع الغراس، فتنبت فيها، وتمدها بالغذاء والنماء حتى تكبر، وتعطي وتفيد.

والإنسانية سلسلة متصلة الحلقات، متعددة الأطراف، فيأخذ الإنسان من السابقين، ويُحصِّل ما عندهم، حتى يختمر ذلك في نفسه، ثم يبدأ بالعطاء، وبعض الناس تكتفي بمجرد النقل مع الأمانة، لتكون كالوعاء الصحيح يحفظ ما فيه (كالأرض الصلبة التي لا تشرب الماء، ولا تنتفع به، وإنما تحفظه لينتفع الغير به)، وهذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: «نَضَّر الله امرأً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يُبَلِّغه، **فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقهٍ ليس بفقيه**»[1]، والفئة الأفضل والأحسن هي التي تحفظ العلم، وتعمل به، وتستفيد منه، ثم تزيد في العطاء من عندها، وتبدع من فكرها، وتنتج من ذاتها، وهي التي يتمثل فيها العلماء الأفذاذ، والأئمة المجتهدون، والمفكرون العباقرة، ومنهم العز بن عبد السلام.

وسار العز على هذه الخُطىٰ الرشيدة فطلب العلم، كما سبق، وأخذه عن العلماء والشيوخ، حتى ارتوى منه، واكتملت ثقافته، وهضم ما تلقاه، وأدرك أغواره ومقاصده، ثم بدأ بالعطاء المبارك، والنفع العميم، فقدم لغيره الكثير الكثير، كما سنرى في إنتاجه وتلاميذه، وتعددت الأعمال التي قام بها، والخدمات التي أداها، وكان كثير منها طوعياً وشعبياً، ومارس بعض المناصب الرسمية والأعمال الوظيفية من قبل الدولة الأيوبية في

---

(١) هذا حديث صحيح رواه أبو داود (٢/ ٢٨٩) والترمذي (٧/ ٤١٦) وابن ماجه (١/ ٢٣٠) والدارمي (١/ ٧٥) وأحمد (٥/ ١٨٣) عن زيد بن ثابت وابن مسعود ومعاذ وجبير بن مطعم وأبي الدرداء وأنس، وقال الترمذي: حديث زيد بن ثابت حديث حسن، وفي رواية أخرى «فربَّ مبلَّغ أوعى من سامع» وفي رواية «فرب مبلَّغ أحفظ من سامع».

دمشق، والدولة الأيوبية والمملوكية في القاهرة، وهو ما نفرده في هذا الفصل.

والمناصب الرسمية التي تولاها العز هي: الإفتاء، والتدريس، والخطابة، والقضاء، والسفارة، وقاضي القضاة، ورافق ذلك وأتبعه القيام بالدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإفتاء والتدريس العام[١]، وهذا عرض لكل منصب.

١ ـ الإفتاء:

لم يكن للإفتاء ـ في الحقيقة ـ منصب رسمي، ووظيفة مرسومة في الدولة الإسلامية، وأول ما ظهر ذلك بصفة رسمية وحكومية في الخلافة العثمانية، وكان العلماء يقومون بهذا المنصب الجليل من تلقاء أنفسهم، أداء للواجب المقدس الملقى على عاتقهم بتبليغ الشرع، وبيان الأحكام للناس.

وكل من حصل علماً، وبلغ مرحلة التعرف الصحيح للأحكام، وجب عليه ـ ابتداء ومن تلقاء نفسه ـ أن يبين الشرع والدين للناس، حتى أمر رسول الله ﷺ كل مسلم تعلَّم ـ ولو آية ـ أن يبلغها لغيره في بيته وأسرته ومجتمعه، فقال عليه الصلاة والسلام: «بَلِّغُوا عَنّي ولو آيةً»[٢]، كما يجب على المسلم عامة، والعلماء والفقهاء خاصة أن يبينوا ذلك عند السؤال

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٠ وما بعدها، حسن المحاضرة ١/٣١٥، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/٨٤، مفتاح السعادة ٢/٣٥٣، فوات الوفيات ١/٥٩٥، البداية والنهاية ١٣/٢٣٥، العز بن عبد السلام، للندوي ص ٣٨، وعز الدين بن عبد السلام، محمد حسن عبد الله ص ٥٧، الإمام العز، للدكتور الفقير ص ١٠١.

(٢) هذا حديث صحيح رواه البخاري (٣/١٢٧٥ كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل) ورواه الامام أحمد والترمذي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما (الفتح الكبير ٢/٩).

والاستفتاء، اقتداءً برسول الله ﷺ، وتحصيلاً للثواب والأجر، والنفع والخير، وخروجاً من الوعيد الشديد «لمن سُئِل عن علمٍ فكتَمَه، ألْجَمَه الله يومَ القيامةِ بلجامٍ مِنْ نارٍ»[1].

ولذلك كان منهج التربية والتعليم الإسلامي الجمع بين التعلم والتعليم في آن واحد، وأن الشيخ أو الأستاذ كان يجيز الطالب بالإفتاء والفتوى متى أنس منه الحد اللازم في حفظ الأحكام الشرعية، وتنزيلها على الأسئلة والتطبيق العملي.

ومتى كان العالم متضلعاً بعلم الفقه، وقادراً على إدراك الأحكام، وفطناً وذكياً لاستنباط أحكام الشرع للمسائل الجديدة، استطاع أن يبزَّ غيره في الفتوى ويشتهر، وهذا ما حدث مع العز رحمه الله تعالى، وازداد شهرة في الفتوى لأمر آخر، وهو جرأته في بيان الأحكام الشرعية القديمة التي تخص الأمة ومصيرها ومصالحها العليا وشؤونها العامة، وتتعلق بالحكام، وخاصة إذا خالفت ميولهم وتوجيهاتهم الرسمية، ومن هنا تنبع خطورة منصب الإفتاء وأهميته ومسؤوليته، ليصبح منصب المفتي بمثابة مجلس الدولة لمعرفة دستورية القوانين والأنظمة، ومشروعية الأحكام ومدى انطباقها على القرآن والسنة ومصادر التشريع.

ومارس العز بن عبد السلام الفتوى والإفتاء بدافع ذاتي، وباعث ديني، وبقصد بيان الشرع، وكسب الثواب والأجر، وتبليغ الرسالة الدينية، وأداء الأمانة العلمية المقدسة، وقام بهذا العمل في الشام، واستمر في الإفتاء، وكان يدعى «مفتي الشام»[2] حتى أصدر الحَشْوِية من الحنابلة

---

(١) هذا الحديث صحيح رواه الإمام أحمد (٢/٢٦٣) والحاكم وصححه في (المستدرك ١/١٠١) وأبو داود (٢/٢٨٨) والترمذي (٧/٤٠٧) وابن ماجه (١/٩٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الذيل على الروضتين ص ١٧٠.

فتياهم في مسألة كلام الله تعالى، وأنه حرف وصوت، وكان الملك الأشرف موسى يوافقهم على هذا الرأي، وصار يعتقد أن من يخالف ذلك كافرٌ حلال الدم، فدسَّ الحشوية إلى الملك أن العز أشعري العقيدة، ويُخطِّىء من يعتقد الحرف والصوت ويبدِّعه، فاستعظم ذلك الملك، فأرادوا إحراج العز، وتوريطه إما بموافقة رأي الملك، وهو رأيهم، وإما بالإيقاع بينه وبين الملك، ففطن العز إلى هذه المكيدة، وحافظ على سيرته، وموقفه بأداء الأمانة بصدق ويقين ونزاهة، وإعلان الحق ولو كان مراً، ولو أوصله إلى المهالك، فالمهم عنده هو مرضاة الله تعالى، وبيان شرعه، سواء رضي الملك الأشرف أم غضب، فلما وصلته الفتيا في مسألة الكلام قال: «هذه الفتيا كتبت امتحاناً لي، والله لا كَتَبْتُ فيها إلا ما هو الحق» وكتب «العقيدة المشهورة» فأوصلوها إلى الملك الذي أخذته العزة بالإثم، واستشاط غضباً على العز، وقال أمام العلماء: «وهذا رجل كنا نعتقد أنه متوحِّد في زمانه في العلم والدِّين، فظهر بعد الاختبار أنّه من الفُجّار، لا بل من الكفار»[1]، ولم يَجرُؤْ أحد على الدفاع عن العز، وبيان الحق والحقيقة للملك، حتى ثار في اليوم الثاني أبو عمرو بن الحاجب، وجمع توقيع العلماء على موافقة العز، فهدأ الملك، وكتب رسالة تأنيب للعز، فرد عليه برسالة حاسمة وقوية، فاشتد غضب الملك ثانية، وأرسل في حبسه ولزوم بيته، وألا يجتمع بأحد، وأن لا يفتي[2].

وهنا ظهر موقف العز من الإفتاء والفتوى، وقال «. . . أما الفتيا فإني كنت متبرماً بها وأكرهها، وأعتقد أن المفتي على شفير جهنم[3]، ولولا أني أعتقد أن الله أوجبها عليَّ، لتعيُّنها عليَّ في هذا الزمان، لما كنت تلوثت

---

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٨ وما بعدها.

(2) المرجع السابق ٨/٢٣٥.

(3) وذلك خوف الخطأ في بيان الحكم الشرعي، لأن المفتي يخبر عن الله تعالى، ويوقع عنه، ولذلك سماهم ابن القيم «أعلام الموقعين عن رب العالمين».

بها[1]، والآن فقد عذرني الحق، وسقط عني الوجوب، وتخلصت ذمتي، ولله الحمد والمنة»[2].

وبقي الشيخ العز على تلك الحالة ثلاثة أيام، حتى تدخل العلامة جمال الدين الحصيري شيخ الحنفية في زمانه، وأنكر على السلطان عمله، وأيد كلام العز، كما سبق في ترجمته، فتراجع السلطان نهائياً عن موقفه ومعتقده، وقال: «نحن نستغفر الله مما جرى، ونستدرك الفارط في حقه، والله لأجعلنه أغنى العلماء» وأرسل إلى الشيخ، واسترضاه، وطلب محالَلَته ومخاللته، ومنع الحشوية من الحنابلة من الخوض في مسألة الكلام، ووصل الملك الكامل من الديار المصرية إلى دمشق، وأيد كلام العز وعقيدته، وطلب الاجتماع بالشيخ العز، واعتذر إليه مما جرى، وأوصى الملك الأشرف وحكام دمشق بالعز خيراً، فصاروا يأخذون بفتواه ومشورته، حتى طلبه الملك الأشرف في مرض موته لنصحه والدعاء له[3].

وعاد العز إلى الإفتاء، ولكنه رفض صلة الملك وأمواله، وتجاوزت شهرته بلاد الشام، وأرسلت إليه الفتاوى من مختلف البلاد، قال ابن كثير «وقصد بالفتاوى من الآفاق»[4]، حتى قصده أهل الموصل من العراق بالاستفتاء في مجموعة أسئلة، أجاب عنها، وجمعت في مؤلفاته باسم «الفتاوى الموصلية» كما سنرى.

وكان العز موفقاً في الفتاوى جريئاً فيها، لذلك قال صاحب النجوم

---

(١) تصبح الفتوى فرض عين إذا تعينت على شخص، ولم يوجد غيره يبين حكم الله تعالى، وهو ما أراده العز، وهو ما دفعنا لاعتبار «الإفتاء» من المناصب الرسمية، ولذلك توجه الملك إليه بالعزل والمنع.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٣٥.

(٣) انظر: المرجع السابق ٨/٢٣٧ وما بعدها.

(٤) البداية والنهاية ١٣/٢٣٥.

الزاهرة: «وله . . . الفتاوى السديدة»[1]، ولما كان الملك الكامل (سلطان الديار المصرية)، في دمشق، واجتمع بالعز بعد وفاة الملك الأشرف موسى، وتعيين الملك الصالح إسماعيل، فسأل الكامل الشيخ العز عما يصدر من أخيه الملك إسماعيل بحضوره من هواية رمي البندق، وهل يجوز ذلك؟ فلم يتهيب العز من بيان الحق والحكم الشرعي، فقال: «بل يحرم عليه، فإن رسول الله ﷺ نهى عنه، وقال: إنّه يَفْقَأُ العَيْن، ويَكْسِرُ العظم»[2].

ولما توجه العز إلى مصر في هجرته التي ذكرناها، كانت سمعته في الفتوى والإفتاء قد سبقته، فلما حل في الديار المصرية (سنة ٦٣٩ هـ) اعترف له علماؤها ومفتوها بالفضل، وامتنعوا عن الفتوى بوجوده، وقال الحافظ المنذري، الفقيه الشافعي المفتي: «كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين، فأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه»[3].

وكان الشيخ عز الدين قد تجاوز الستين من عمره، ولكن لم تخر قواه، ولم يؤثر عليه كبر السن في سداد الرأي، وقوة البيان، وجرأة الجنان، وأصدر في مصر الفتاوى الجسيمة التي تتعلق بالأمراء وبيع الملوك، وفتوى هدم الطبلخانة التي بناها نائب السلطان فوق المسجد للهو والطرب واللعب، وقام العزُّ بنفسه ـ مع أولاده وتلاميذه ـ بهدمها، وغير ذلك من الفتاوى التي خلدت حياة العز وبيّنت مواقفه ورجولته، كما سنذكرها فيما بعد، وبقي العز يمارس الإفتاء في مصر حتى توفاه الله تعالى.

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/٢٠٨.
(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤١ ـ ٢٤٢.
(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١١، وانظر: طبقات الشافعية للإسنوي ٢/٨٥، الفتح المبين ٢/٧٤، حسن المحاضرة ١/٣١٥.

وكان العز رحمه الله تعالى متهيباً من الفتوى، كما جاء في كلامه، وكان في ذات الوقت قوي الشخصية في بيان الحق، كما كان جريء الجنان في الرجوع إلى الحق إذا تبين أنه أخطأ، مع ما بلغ من الفقه. وسبق لنا قول ابن الحاجب عنه: ابن عبد السلام أفقه من الغزالي، ولكن الإنسان غير معصوم ومعرض للخطأ، فإن أخطأ العز فلا يجد غضاضة بإعلان ذلك وتوضيحه، فقد حكى القاضي عز الدين البكاريُّ أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام أفتى مرة بشيء، ثم ظهر له أنه أخطأ، فنادى في مصر (القديمة) والقاهرة على نفسه: من أفتى له ابن عبد السلام بكذا، فلا يعمل به، فإنه خطأ[1].

٢ ـ التدريس:

التدريس في نظام التعليم الإسلامي قسمان؛

الأول: وهو المهم والأصل والأكثر شيوعاً وخاصة في العصور الإسلامية الأولى تدريس طوعي واختياري، وغير رسمي وفردي، فلا تشرف عليه الدولة، ولا يتحدد في مكان، فقد يكون في مسجد أو جامع، أو مدرسة أو بيت، كما أن زمانه طويل من بعد صلاة الفجر، وحتى بعد صلاة العشاء، وفي الصيف والشتاء وطول العام.

الثاني: التدريس الرسمي، ويكون إما في المدارس المبنية لذلك، والمخصصة للتدريس بإشراف الدولة، أو هيئات خاصة ومؤسسات معينة، وإما في المساجد الكبرى التي ترعاها الدولة، وخاصة في المسجد الجامع في المدن، والمساجد الأساسية الكبرى في العواصم، التي كانت بمثابة جامعة، كالجامع الأموي بدمشق، وجامع عمرو بن العاص بالفسطاط (مصر القديمة)، والجامع الأزهر بالقاهرة، وجامع المنصور ببغداد،

---

(١) حسن المحاضرة ١/٣١٥، طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٤.

والحرمين في الحجاز، وجامع القرويين بفاس، وجامع الزيتونة بتونس[1].

وكان نظام التعليم في البلاد الإسلامية اختيارياً، فالطالب يقصد التخصص الذي يريده، وينضم إلى المدرسة التي يحبها، والمدينة التي يرغب فيها، ويختار من يشاء من العلماء والفقهاء والشيوخ ليحضر دروسهم، وخاصة في نظام المساجد، وحلقات الدرس، وكل ذلك بعد الاستشارة وما يعرف عن المدارس والعلماء، ثم تُهيأ للطلاب السبل المحققة له عائلياً واجتماعياً ورسمياً.

ولذلك كان الطلبة يتجهون إلى البلدان المتعددة، ويرحلون في طلب العلم، ويقصدون بلداً معينة، ومدرسة خاصة، ومسجداً بذاته، ويتأثرون بسمعة العالم وصيته، وشهرته وتأثيره وعلومه.

وبعد أن حصّل العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى العلوم، وتقدم في الحفظ والفهم، اتجه إلى العطاء والإفادة في عدة جوانب، وخاصة التدريس الذي مارسه من أول حياته العلمية في دمشق، وحتى آخر عمره في القاهرة.

ومارس العز التدريس في أول حياته في القسم الأول من التدريس الحر الاختياري في دمشق، وألقى الدروس في بيته، وفي المساجد، وفي كل مكان وجد فيه، ولم تسعفنا المصادر والمراجع ببيان الأمكنة التي درّس بها في أول أمره في دمشق، ولم تبين لنا العلوم التي درّسها، ولعله درّس العلوم التي حصلها وبرع فيها، وخاصة الفقه وأصوله، قال ابن كثير: «وأفاد الطلبة ودرّس بعدة مدارس بدمشق»[2].

واقتصرت المراجع والمصادر على تحديد مكانين درَّس فيهما العز، وهما:

---

(١) انظر كتابنا: طرق تدريس التربية الاسلامية ص ٣٥، ٥٠.
(٢) البداية والنهاية ١٣/٢٣٥.

أ ـ المدرسة الشِبْلية البرانية، وكانت خارج دمشق على سفح جبل قاسيون بالصالحية، ولعل ذلك في أيام الملك الأشرف موسى الذي لم يكن على وفاق تام مع العز في أول الأمر، وكان الحنابلة يتجمعون في تلك المنطقة، ولعل ذلك كان سبباً للمنافسة والخلاف والاصطدام مع الحشوية من الحنابلة الذين تسببوا في الفتنة التي أشرنا إليها مع الملك الأشرف، وسوف نعود إليها فيما بعد.

ب ـ المدرسة الغزالية: وهي الزاوية الغرْبية بالجامع الأموي، ونسبت إلى الغزالي، لكثرة اعتكافه فيها، وتدريسه وتأليفه حين إقامته بدمشق، ثم قام بالتدريس فيها كبار العلماء[1].

ونصت المصادر على أن الملك الكامل عندما ملك دمشق وحضر إليها سنة ٦٣٥ هـ كلف العز بالتدريس في هذه المدرسة، قال ابن السبكي: «وولّى الملك الكامل رحمه الله الشيخ تدريس زاوية الغزالي بجامع دمشق، وذكر بها الناس»[2]، وذلك بعد وفاة جمال الدين محمد الدولعي في جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ، وكان يدرس بها، واستمر العز بالتدريس في هذه الزاوية حتى آخر مقامه بدمشق، وهجرته إلى القدس فمصر.

وكان العز رحمه الله تعالى مدرساً ناجحاً، ومتفنناً بالتدريس والإلقاء وإيراد الملح والنوادر والأشعار في دروسه، ليغذي بها الطلاب والمستمعين، ويجدد نشاطهم، ويحمسهم على الاستماع والمثابرة، ويزدادوا على الإقبال، وصار صيت العز شائعاً، وشهرته عامة، وأكدت معظم كتب التراجم على عبارة «وقصده الطلبة من الآفاق، وتخرج به

---

(١) العز بن عبد السلام، للندوي ص ٣٩، العز بن عبد السلام، للوهيبي ص ٥٤.
(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٢، وقال ابن السبكي أيضاً: «ودرّس بدمشق أيام مقامه بها بالزاوية الغزالية وغيرها» (المرجع السابق ٨/٢١٠).

أئمة»[1] «ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد»[2].

قال الشيخ قطب الدين اليُونيني عن تدريسه: «كان مع شدته فيه حسن المحاضرة بالنوادر والأشعار»[3]، وكان العز متأثراً بجودة التدريس وحسن الخطابة والإلقاء بشيخه الآمدي، كما تأثر بالقاسم بن عساكر في المرح بالدرس، واستعمال المزح، وطرح التكلف.

وإن نجاح المدرس في تدريسه، والداعي في دعوته، والعالم في إلقائه، يعتمد على صفات فطرية كالذكاء والاستعداد العقلي، وحضور البديهة، وسرعة الخاطر، وحسن النطق، وقوة الجسم، وتعدد المواهب، والنفس الرضية، كما يعتمد على عوامل كسبية تخضع للنماء والزيادة كالنطق بالفصحى، وجودة البيان، وسعة الثقافة، وكثرة التحصيل، ومتابعة الاطلاع، وحسن المعاملة والأخلاق، والتعمق بالبحث، وهذه العوامل الكسبية لا تؤتي ثمارها إذا لم يتوفر لدى صاحبها الاستعداد الكافي لذلك[4].

وتوفرت الصفات السابقة، والعوامل المتعددة في شخصية العز وتدريسه، فكان مدرساً ناجحاً من الطراز الأول، لذلك قال الشريف عز الدين عنه: «كان علم عصره في العلم، جامعاً لفنون متعددة، مضافاً إلى ما جبل عليه، من ترك التكلف، مع الصلابة في الدين، وشهرته تغني عن الإطناب في وصفه»[5].

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/٢٠٨، وانظر: الفتح المبين ٢/٧٤، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/٨٤.
(٢) شذرات الذهب ٥/٣٠١.
(٣) حسن المحاضرة ١/٣١٦، شذرات الذهب ٥/٣٠٢، وقال ابن كثير: «وكان لطيفاً يستشهد بالأشعار» البداية والنهاية ١٣/٢٣٥، وانظر: فوات الوفيات ١/٥٩٥.
(٤) انظر: طرق تدريس التربية الاسلامية ص ٢٢٨.
(٥) شذرات الذهب ٥/٣٠٢.

ولما انتقل العز إلى مصر واظب على التدريس الحر، والدروس العامة، مع وظيفته في الخطابة والقضاء، ولم يعين للتدريس في وظيفة رسمية، حتى عزل نفسه من القضاء ـ كما سنرى ـ ، وكان السلطان الصالح نجم الدين أيوب يبني المدرسة الصالحية بين القصرين في القاهرة، وأعدَّها لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة، واكتمل بناؤها سنة ٦٣٩ هـ، فحاول السلطان أن يثني العز عن استقالته من القضاء، فأبى، فلما رأى زهده في منصب القضاء قبل استقالته، وعرض عليه تدريس الفقه الشافعي في هذه المدرسة فقبله، وبقي فيها حتى توفاه الله تعالى في العاشر من جمادى الأولى، سنة ستين وستمائة(١).

ولما بنى الملك الظاهر بيبرس مدرسته (الظاهرية) بالقاهرة، سأل العز أن يكون مدرساً بها، فأجابه: إن معي تدريس الصالحية، فلا أضيق على غيري(٢).

ولما مرض العز ـ مرض الموت ـ أرسل له الملك الظاهر بيبرس، وقال له: عيّن مناصبك لمن تريد من أولادك، فقال: ما فيهم من يصلح، وهذه المدرسة الصالحية تصلح للقاضي تاج الدين بن بنت الأعز أحد تلاميذه، ففوضت إليه(٣).

ولم يقتصر تدريس العز في مصر والقاهرة على مدرسة الصالحية، كوظيفة رسمية، بل قام بهذا العمل المقدس في ميادين أخرى، وألقى الدروس في بيته، وفي المدارس والمساجد، وفي كل مكان وجد فيه،

---

(١) طبقات الشافعية للإسنوي ٢/٨٥، طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١١، ٢٤٤، الفتح المبين ٢/٧٤، وقال المراغي: «فعكف على التدريس فيها للشافعية، وقصده الطلبة من كل البلاد، وتخرج به الأئمة».
(٢) طبقات الشافعية للإسنوي ٢/٨٤.
(٣) انظر: فوات الوفيات ١/٥٩٥.

وكان من ميزاته التي تفرد بها أنه ابتدأ في إلقاء دروس في التفسير لأول مرة، ولم يكن ذلك معهوداً من قبل، وهو اللغوي الأديب المفسر، ولذلك قال ابن العماد الحنبلي: «وأخذ التفسير في دروسه، وهو أول من أخذه في الدروس»[1]، وقال السيوطي: «وألقى التفسير بمصر دروساً، وهو أول من فعل ذلك»[2]، وسوف نرى أثر ذلك في فصل «العز مفسراً» وبيان كتبه في تفسير القرآن الكريم، وهكذا بدأ العز حياته بالتدريس، وظل كذلك حتى آخر عمره، لأن التدريس والتعليم هو عمل العالم الحقيقي، وشغله الدائم ما دام قادراً على العطاء، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت معلماً»[3]، والعلماء ورثة الأنبياء.

٣ ـ الخطابة:

الخطابة من أهم أساليب الدعوة والتوجيه، وهي إحدى فنون الأدب، واعتمدها الإسلام وسيلة أساسية في العبادات والتعليم.

وتمثل الخطابة جهاز الإعلام في الدولة الإسلامية، أو الإذاعة الحرة باسم الشرع والشعب، فتراقب السياسة العامة، ويقف الخطباء إلى جانب الحكام بالتأييد ورص الصفوف إن كانوا على الحق، وسعوا في مصالح الأمة والرعية، والتزموا الشرع والعدل، بينما تقود المنابر الثورات، وتخلع الحكام، وتؤلب الشعب إذا انحرف الحاكم، أو خان، أو ظلم، أو طغى وبغى، أو استبد، أو اختل، وقد يكون الخطباء في موقف سلبي بحسب الظروف العامة والخاصة.

والخطابة ـ في الغالب ـ وظيفة رسمية، يتم التعيين فيها من الخليفة

---

(١) شذرات الذهب ٥/٣٠٢.
(٢) حسن المحاضرة ١/٣١٥، وانظر: العز بن عبد السلام، للندوي ص ٤٩.
(٣) هذا جزء من حديث ضعيف رواه ابن ماجه (١/٨٣ المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

أو السلطان أو نائبهما، أو من قبل إحدى المؤسسات المختصة، وقد يتم تعيين الخطيب من الشعب مباشرة بترشيح من العلماء لصلتها الوثيقة بجميع فئات الشعب المسلم في صلاة الجمع والأعياد والمناسبات.

وتعتبر الخطابة في المساجد الكبرى في المدن، وخاصة في جامع العاصمة، منصباً جليلاً وخطيراً، فتتم رعايته من السلطات العليا مباشرة، وقد يتدخل فيه ولي أمر المسلمين في التعيين والعزل، لأن الأنظار متجهة إليه، ويعتبر الخطيب فيها كمتحدث رسمي باسم الدولة، أو الناطق بسياستها، أو الموجّه لرغباتها، وقد يكون النائب عن الشعب، والمعبر عن مطالب الأمة، والدفاع عن حقوقها ومصالحها، والمبين حكم الشرع في السياسة والتخطيط، لذلك كانت الأنظار تتطلع إلى هذا المنصب الحساس الذي يُعرِّض صاحبه أحياناً لسخط الشعب، أو لبطش الحاكم وعزله إن خرج عن الخط المرسوم.

وتولى العز بن عبد السلام الخطابة في الجامع الأموي بدمشق من قبل السلطان الصالح إسماعيل، وذلك في ربيع الآخر سنة ٦٣٧ هـ، حتى وصف تلميذه أبو شامة جدارة الشيخ بهذا المنصب، فقال: «وفي العشر الأخير من ربيع الآخر تولى الخطابة بدمشق أحق الناس بالإمامة يومئذ، الشيخ الفقيه عز الدين بن عبد السلام السُّلمي، مفتي الشام يومئذ، ناصر السنة، قامع البدعة»[1].

وكان العز خطيباً لَسِناً جريئاً، وعالماً مخلصاً، فكان كلامه يباشر شغاف القلوب، وتتلقفه الآذان، ليستقر في النفس والقلب، ثم يترجم إلى

---

(١) الذيل على الروضتين ص ١٧٠، وانظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٢، شذرات الذهب ٥/٣٠٢، فوات الوفيات ١/٥٩٥، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/٨٤، الامام العز، للفقير ص ١٠٥، العز، للندوي ص ٤٠، عز الدين، محمد حسن عبد الله ص ٥٩، العز، للوهيبي ص ٥٩.

عمل وسلوك، لأن الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب، وإذا خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان.

وأحيا العز رسالة المنبر الأصيلة، فتعلقت به النفوس، فبين الأحكام، ولما أنس منهم الإصغاء والاستماع شرع في إبطال البدع، وإزالة ما لحق بالدين من الخطباء والأئمة وغيرهم، كدق السيف على المنبر، ولبس السواد، وسجع الخطب، والثناء المفرط على الحكام فلم يلبس العز السواد في خطبته، ولا سجع فيها، وكان يقولها مترسلاً، واجتنب الثناء على الملوك، ولكنه كان يدعو لهم إن كانوا صالحين وما داموا على الحق، وكان العز أيضاً في الخطابة يمارس هوايته الأساسية في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وكان فوق ذلك ينفذ ذلك بنفسه، ويدعمه بعلمه وفكره وتصنيفه، لذلك أبطل عملياً صلاة الرغائب لأنه لم يثبت فيها دليل شرعي، ثم أبطل صلاة النصف من شعبان لنفس السبب(١)، فعارضه علامة عصره ابن الصلاح، كما سبق، وصنف رسالة في تأييدها والدفاع عن ثبوتها، فرد عليه العز برسالة مدعمة بالأدلة، ووافقه عليها كبار العلماء(٢).

ولم يستمر العز طويلاً في خطابة دمشق، فبقي فيها مدة سنة تقريباً، إذ وقعت قصة الملك الصالح إسماعيل في تحالفه مع الفرنج، وتسليمهم صيدا وقلعة الشقيف، فترك العز الدعاء له، وأنكر عليه هذه الفعلة

---

(١) انظر: مفتاح السعادة ١/٣٥٣، طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٠، حسن المحاضرة ٢/١٦٢، شذرات الذهب ٥/٣٠٢، الفتح المبين ٢/٧٣، الإمام العز، للفقير ص ١٠٦، العز، للندوي ص ٤١.

(٢) انظر تفصيل ذلك مع شرح حالة صلاة الرغائب، وما اتفق فيها بين العز وابن الصلاح في طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٥١ وما بعدها، وانظر المساجلة بين العالمين، وفتوى العز وابن الصلاح، وفتوى عدد من العلماء في آخر الجزء الثامن من كتاب المجموع للنووي ص ٤٢٧ ـ ٤٦٢.

الشنيعة، وفضح أمره على الملأ، فعزله عن الخطابة سنة ٦٣٨ هـ، وحبسه، ثم أطلقه(١).

ولما انتقل العز إلى مصر عام ٦٣٩ هـ، كانت شهرته قد سبقته، وكان علمه وفضله وفتاواه قد انتشرت في البلاد، ومواقفه المشهورة عمت الآفاق، فتلقاه بمصر سلطانها الملك الصالح نجم الدين أيوب بالتعظيم والتبجيل والإكرام، وعينه فوراً خطيباً لأعظم مساجد مصر، وهو جامع عمرو بن العاص، ليواصل الشيخ أداء رسالته، والقيام بواجبه، ويواظب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع بقية المناصب في التدريس والإفتاء وقاضي القضاة(٢).

وقام الشيخ العز بمناصبه خير قيام حتى وقعت حادثة الطبلخانة التي أشرنا لها سابقاً، وسنعود إليها تفصيلاً، وهدم بنفسه البناء الجائر على ظهر المسجد، وبادر إلى عزل نفسه عن القضاء، فتحركت هواجس السلطان وخوفه من منصب العز بالخطابة، وتذكر ما فعله من التشنيع على الملك إسماعيل بدمشق، وزحفت حاشية الملك في الخفاء لتقدم له النصيحة، وقالوا له: «اعزله عن الخطابة، وإلا شنَّع عليك على المنبر كما فعل في دمشق، فعزله»(٣)، فاستغل السلطان هذه المناسبة وعزل الشيخ العز عن الخطابة دون الإساءة له، وكلفه بالتدريس.

٤ ـ السفارة:

السفارة منصب رسمي جليل وخطير، في الماضي والحاضر، ولم

---

(١) انظر: طبقات الشافعية، للإسنوي ٢/٨٤، طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٢، ٢٤٣، الذيل على الروضتين ص ١٧٠.

(٢) انظر: حسن المحاضرة ١/١٦٢، طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٤، فوات الوفيات ١/٥٩٥، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/٨٥.

(٣) فوات الوفيات ١/٥٩٥، وانظر الإمام العز، للفقير ص ١١٣، البداية والنهاية ١٣/٢٣٦.

يكن السفير والسفارة منتظمة ودائمة في القديم، خلافاً لما هو عليه الحال الآن.

ولا يتم اختيار الشخص في هذا المنصب إلا إذا كان يتمتع بصفات بارزة، ومواهب طيبة، وشخصية معتبرة، وسمعة حسنة، وصيت واسع، وفوق كل ذلك لا بد أن يحظى بالقبول والرضا عند الحاكم الذي يختاره، ويصطفيه، ويأتمنه على أسرار الدولة، وشؤون الأمة، ولا بد أيضاً من القبول المبدئي عند الجهة الموفد إليها.

والغالب أن يختار الملك أو السلطان أحد كبار العلماء أو الوجهاء، ويبعث معه الرسائل إلى الخليفة أو الملوك، وبالعكس، وفي ذلك زيادة في سمعة الرسول أو السفير، ورفع لشأنه، واشتهار لأمره، وتعريف فيه.

ونص ابن العز الشيخ عبد اللطيف في الرسالة التي كتبها عن والده أن الملك الكامل محمداً، سلطان الديار المصرية، لما قدم دمشق وحكمها، واستلم السلطة فيها أوائل جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ ولّى الشيخ العز عدة مناصب وولايات، ثم عيّنه للرسالة إلى الخلافة المعظمة ببغداد، ثم اختلسته (للملك الكامل) المنيّة[١].

ولم يثبت في المراجع قيام الشيخ العز بهذه السفارة، وذهب بعض العلماء إلى أنها الرحلة الثابتة للشيخ إلى بغداد، والتي تحدثنا عنها في طلبه للعلم، ورحلته في سبيله، وأنه ذهب إلى بغداد، وأخذ عن علمائها، وسمع الحديث فيها، ولم يمكث طويلاً، فاستنتج بعض الباحثين أن قصر المدة كانت بسبب السفارة، وأنه كان بمهمة رسمية[٢]، وقال آخرون إن

---

(١) مات الكامل يوم الأربعاء، حادي عشر رجب الفرد سنة خمس وثلاثين وستمائة بقلعة دمشق ودفن بها، وقيل ٢١ رجب (انظر: الجوهر الثمين ص ٢٣٦)، وانظر: (طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٢).

(٢) انظر: عز الدين بن عبد السلام، لمحمد حسن عبد الله ص ٥٦، الإمام في أدلة الأحكام، للعز، المقدمة ص ١٩.

العز سافر إلى بغداد مرتين، الأولى في مطلع شبابه لطلب العلم، والثانية في شيخوخته سفيراً[1]، وهو احتمال ضعيف، وقال فريق ثالث: إن العز سافر إلى بغداد مرة واحدة في شبابه، وإن ذهابه في السفارة لم يتم عملياً، ولم يأخذ طريقه للتنفيذ، شأن بقية الأعمال التي كلفه بها الملك الكامل خلال مدة حكمه القصيرة التي لم تتجاوز الشهرين ونصفاً، واستلم بعده الملك الصالح إسماعيل السلطة، فجمد القرارات السابقة، وعطل الأعمال التي كلف بها العز[2]، وهذا هو الراجح، والله أعلم.

ومهما كان الأمر فالخبر صحيح في التعيين بالسفارة، وسواء نفذ أم لم ينفذ، فإنه يدل على المكانة المرموقة التي كان العز يحظى بها، والرضا الواضح من الملك الكامل به والثقة فيه.

٥ ـ القضاء:

إن علم القضاء من أجل العلوم قدراً، وأعزها مكاناً، وأشرفها مركزاً، لأنه يحفظ الحقوق والأنفس، ويبين الحلال والحرام.

والقضاء أفضل مظهر يتمثل به العدل، الذي جعله أرسطو قوام العالم، وهو أساس الملك، وأقوى دعامة لاستتباب الأمن، واستقرار الأنظمة، ورقي المجتمع وتقدم الأمة، وهو المعيار الحقيقي، والمحك الدقيق لتطبيق المبادىء والأحكام والشعارات المتعلقة بالإنسان وحقوقه، والشرائع والدولة، لذلك يعتبر القضاء ركناً من أركان الدولة، وجزءاً هاماً من مقومات المجتمع، وتقع على مسؤوليته حماية الأنفس والأرواح والأموال والحقوق، وتأمين الطمأنينة والهدوء، والأمن والسلام والأمان في المجتمع.

---

(١) انظر: عز الدين، لمحمد حسن عبد الله ص ٥٦.

(٢) انظر: طبقات المفسرين للداودي ١/٣٢٢، العز للندوي ص ٤٣، العز، للوهيبي ص ٥٨.

والقضاة يجمعون بين فقه العلماء وعقل الحكماء من جهة، وبين نفوذ الحاكم والسلطان الذي يستمد منه القاضي القوة والسلطة لكونه نائباً عنه، وهذا الشطر الثاني هو ما يميز القاضي من المفتي.

وقد أنزلت الكتب السماوية، وبعثت الرسل لتحقيق العدل، فكان من وظائف الأنبياء والمرسلين، واعتنى به الإسلام عناية كاملة، فكان رسول الله ﷺ أول قاض في الدولة الإسلامية الأولى، وفطن المسلمون إلى أهمية القضاء والعدل: نظرياً في الدراسة والكتب والفقه والاستنباط والأحكام، وعملياً في نظام الدولة، وسياسة الأمم والشعوب وتطبيق شرع الله ودينه، وتحقق هذا في الواقع في ظل التاريخ الإسلامي، وكان القضاة المسلمون مَضرب المثل في تاريخ الأمم في النزاهة والعدل والتجرد، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإقامة شرع الله على أرضه وعباده.

وكانت وظيفة القاضي من أسمى الوظائف، وأنبل الأعمال، فالقاضي يحاط بالهيبة، ويقرن بالإجلال والاحترام، وقد أثبت القضاة في ظل الشريعة الإسلامية سمو مركزهم، وعلو منزلتهم، ونزاهة عملهم، حتى كسبوا محبة الناس، ونالوا الثقة الكاملة، وكانوا محط أنظارهم وآمالهم ورجائهم، وبلغ من محبة الناس للقضاة، وثقتهم بهم، ووقوفهم خلفهم، أن أصبح الولاة والأمراء يفكرون طويلاً إذا حدثتهم أنفسهم بالإقدام على عزلهم، حتى لا يتعرضوا لكراهية الجمهور وسخطه(١).

ولم يستلم العز بن عبد السلام وظيفة القضاء في مقتبل عمره، وإنما انصرف إلى التدريس والإفتاء والخطابة حتى ذاع صيته، واشتهر أمره، وإن كان المفتي يشبه القاضي في الإخبار عن الحكم الشرعي عند السؤال والاستفتاء، ولكنه لا يلزم الناس بفتواه، وبسبب مكانة العز العلمية والأدبية والاجتماعية والفقهية، وكذلك عمله في التدريس والخطابة،

---

(١) انظر: أصول المحاكمات الشرعية والمدنية، لنا ص ١٨ وما بعدها، ٤٧.

فإن فتواه كانت تحظى بالقوة المعنوية والأدبية، وتأخذ طريقها للتنفيذ والتطبيق، كما لو كان قاضياً وزيادة، لتعلق الناس به، والتفافهم حوله، فأصبح الناطق بالحق، وتمثلت به شريعة السماء ليبلغها للناس، ويروي القلوب الولهى، والنفوس العطشى، وخاصة في عصر الاضطراب السياسي والاجتماعي والفكري في وقته.

وبقي الأمر كذلك حتى وصل الملك الكامل محمد من الديار المصرية إلى دمشق بقصد انتزاع السلطة من أخيه الملك الصالح إسماعيل، فدخلها صلحاً وحليفاً وصديقاً، وأقر له الملك الصالح بالسلطة والسيادة في أوائل جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ، وكان الملك الكامل شديد الإعجاب بالعز، وقد سمع به في مصر، وكان شديد الثقة بعلمه، ونزاهته وكفاءته، وكان يوافقه في المذهب الشافعي في الفقه، والمذهب الأشعري في العقيدة، فلما استلم الكامل دمشق «ولّى الشيخ العز تدريس زاوية الغزالي بجامع دمشق، كما سبق، ثم ولّاه قضاء دمشق، بعد ما اشترط عليه الشيخ شروطاً كثيرة لقبول القضاء، ودخل في شروطه، ثم عيّنه للرسالة إلى الخلافة المعظمة ببغداد»[١].

ولكن المنية اختلست الملك الكامل في ٢١ رجب سنة ٦٣٥ هـ، أي بعد شهرين ونيف من ملكه بدمشق، واستلم الملك الصالح إسماعيل دمشق من جديد، ولم ينفذ تعيين العز في القضاء بعد ذلك، وهنا حصل الاختلاف بين الكتاب والمترجمين والمصنفين في ثبوت ولاية القضاء للعز في دمشق، فعبارة ابن السبكي عن ولد العز عبد اللطيف أنه تولى القضاء، بينما أغفل آخرون ذكر العز في قضاة دمشق، لأنه لم يمارس القضاء فعلاً[٢].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٢.

(٢) انظر: عز الدين بن عبد السلام، لمحمد حسن عبد الله ص ٦١، العز بن عبد =

ولعل الأقرب ما ذكره الداودي أن الملك الكامل ولّى الشيخ تدريس الزاوية الغزالية بجامع بني أمية، وعزم على ولاية قضاء دمشق، وإرساله في الرسالة إلى بغداد، فمات دون إمضاء ذلك بدمشق[1].

والغالب أن الكامل طلب العز للقضاء فامتنع وأبى، فساومه وراجعه وتلطف معه، فاشترط العز شروطاً لقبول ذلك، كما يفعل كثير من قضاة العدل، لضمان الحياد من الحكام، وتأمين تنفيذ الأحكام على الجميع، حكاماً ومحكومين، أغنياء وفقراء، فرضي الملك بذلك، ولعله صدر التعيين، ولم يمارسه العز عملياً، لموت الملك، أو مارسه في القليل النادر، كما هو الحال في المجتمع الإسلامي أن الخلافات قليلة، والمنازعات نادرة، ولا تشغل جميع وقت القاضي، وفي جميع الحالات لم يثبت لدينا أن العز مارس القضاء والنظر في الدعاوى والمنازعات في هذه المدة بدمشق، سواء تمَّ التعيين للقضاء، أم كان مجرد قرار، ومات الكامل قبل تنفيذه، والثابت أيضاً أن الملك إسماعيل لم يعين العز قاضياً في دمشق.

ولما هاجر العز إلى مصر سنة ٦٣٩ هـ إثر خلافه مع الصالح إسماعيل، كان يقصد أن يتابع مسيرته في إعلان الشرع، وإحقاق الحق، وتأمل في الملك الصالح نجم الدين أيوب الخير والفائدة، وكان نجم الدين أيوب ملكاً قوياً مهيباً شديداً، ولكنه كان حسن السيرة، ويعرف فضل العز[2]، ويسمع بغزارة علمه، وقوة إيمانه، ووفور علمه وفقهه، ووقوفه

= السلام، للندوي ص ٤٢، الإمام العز بن عبد السلام، للفقير ص ١٠٧، العز بن عبد السلام، الوهيبي ص ٥٨، الجوهر الثمين ص ٢٣٦.

(١) طبقات المفسرين، للداودي ١/٣٢٢.

(٢) قال أبو شامة: «وفيها (سنة ٦٣٩ هـ) وصل إلى الديار المصرية شيخنا عز الدين بن عبد السلام، وحصل له من سلطانها الصالح بن الكامل قبول عظيم على ما بلغنا، وتولى الخطابة والقضاء بمصر» (الذيل على الروضتين ص ١٧١).

على الحق والعدل، ووافق وصول العز إلى مصر بعد وفاة قاضي القضاة شرف الدين بن عين الدولة التي كانت في السابع عشر من ذي القعدة عام ٦٣٩ هـ، فاستقبل السلطان نجم الدين أيوب العز استقبالاً حافلاً، ورحب به ترحيباً شديداً، وعهد إليه بالمناصب.

قال ابن السبكي في ذلك: «ونجّى الله سبحانه وتعالى الشيخ، فجاء إلى الديار المصرية، فأقبل عليه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله، وولاه خطابة مصر وقضاءها، وفوَّض إليه عمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة، واتفق له في تلك الولايات عجائب وغرائب»[1].

فالعز بن عبد السلام تولى القضاء بمصر في التاسع عشر من ذي القعدة سنة ٦٣٩ هـ، وكان ذلك من السلطان تقديراً لمكانته، وبمثابة رد اعتبار للشيخ، ووفاء له، بعد ما حاول الصالح إسماعيل الإساءة إليه، وفوض إليه السلطان أيضاً الخطابة، كما سبق، وأسند إليه عملين آخرين:

الأول: الإشراف على عمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة، وهي من الأعمال التي تناط اليوم بمديرية الأوقاف، ولكنها كانت تسند هي وغيرها من الأعمال الخطيرة والدقيقة والجسيمة إلى القضاة نظراً لمكانتهم الدينية والاجتماعية، وثقة الناس والدولة بهم، وحيادهم والتزام تطبيق الشرع فيها، وقام العز بهذا العمل الجليل خير قيام حتى وقعت له حادثة الطبلخانة التي بناها معين الدين بن شيخ الشيوخ، أستاذ دار السلطان، على ظهر مسجد بمصر، فأمر بهدمها، وهدمها بنفسه[2]، كما سنرى.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٤، وانظر: شذرات الذهب ٥/٣٠٢، حسن المحاضرة ٢/١٦٣، تاريخ القضاء في الإسلام، عرنوس ص ١٩٢.

(٢) انظر: الإمام العز، للفقير ص ١١٠، العز بن عبد السلام، الوهيبي ص ٦٢، عز الدين، للندوي ص ٤٤، عز الدين، عبد الله ص ٦٥، الفتح المبين ٢/٧٣.

الثاني: **قاضي القضاة**: وهو أحد المناصب الجليلة التي ظهرت في الخلافة الإسلامية، وأول من تولى هذا المنصب الإمام أبو يوسف، صاحب أبي حنيفة، في عهد الرشيد.

وقاضي القضاة يمثل في عصرنا وزير العدل، باعتباره المسؤول الأول عن المحاكم والسلطة القضائية، ومهمته تعيين القضاة، والإشراف عليهم، ومراقبة أعمالهم، والاطلاع على الأحكام التي يصدرونها لبيان مدى موافقتها للشرع لتصديقها وإقرارها، فإن خالفت الشرع نقضها قاضي القضاة وردها إلى القاضي الذي أصدرها لتصحيحها، كما يقوم قاضي القضاة بعزل القضاة إن اقتضى الأمر، فيكون عمله إذن كمحكمة النقض، ومجلس القضاء الأعلى اليوم.

وكان منصب قاضي القضاة وحيداً في عاصمة الخلافة العباسية ببغداد، ثم وجد نظيره باسم قاضي الجماعة في الخلافة الأموية بقرطبة بالأندلس، ثم وجد في كل قطر قاضياً للقضاة، وقد يطلق هذا اللقب على المسؤول عن عدد من القضاة والمحاكم.

وعين السلطان نجم الدين أيوب الشيخ العز على قضاء مصر (القديمة أي الفسطاط) والوجه القبلي (الصعيد)، وأبقى القاضي السنجاري على قضاء القاهرة والوجه البحري، لأن الإدارة القضائية في كل من هذه المناطق الأربعة مستقلة، فقسمها السلطان بين اثنين، وعرف العز بن عبد السلام في كتب التراجم والتاريخ بقاضي القضاة(١).

وليس المهم أن نعرف أن العز بن عبد السلام عُين قاضياً، وقاضياً للقضاة، وأنه استلم منصب القضاء بدمشق والقاهرة، واعتلى ميزان

---

(١) انظر: الذيل على الروضتين ص ١٧١، من قضايا الرأي، أحمد حسين ص ١٧١، والمراجع السابقة.

العدالة، ومارس الفصل في الدعاوي والخصومات، فإن القضاة في الإسلام كثيرون، وهم في العالم - في الماضي والحاضر - أكثر وأكثر، ولكن المهم أن نعرف شخصية العز القضائية، ومواقفه في القضاء، والأحكام التي أصدرها على الحكام والأمراء والسلاطين، والقضايا التي عالجها في حقوق الأمة ومصير الوطن والدين والمجتمع، والتحدي الذي مارسه بإيمانه، والفكر القضائي الناصع الذي كان يشع في صدره وقلبه، وسال على لسانه وقلمه، وأعلنه في محكمته وقراراته، ونفذه بيده، وسطره في كتابه، ورسمه منهجاً قويماً، ونوراً ساطعاً للقضاة بعده، فكان الرجل كل الرجل، وقاضي الحق كل الحق، وحاكم العدل: عدل السماء والشرع، فأعلن ذلك بملء شدقيه، وجاهر بالحق، وحارب الفساد مهما كان مصدره، ودافع عن حقوق الأمة والشعب، وحرس الشرع ممن يدَّعون ولايتهم عليه، وأصدر الأحكام على الحكام «الذين لم يتعودوا أن يسمعوا أحداً يراجعهم في قول، أو يعصي لهم أمراً، أو يشغب عليهم بما لا يريدون»، فإن أعجبهم ذلك والتزموا به فبها ونعمت، وحصل المقصود والمأمول، وإلا هددهم بعزل نفسه الذي يعني قيام الثورة الشعبية معه، فيذعنوا ثانية للحق والعدل والشرع، فضرب العز بن عبد السلام المثل الأعلى للقضاة، وتبوأ الذروة بين قضاة الحق والعدل في الخلافة الإسلامية، والعالم أجمع، وصار المثل الأعلى، والنموذج الفذ في التاريخ، وبقي ذكرى عطرة للأجيال، ومحل العبرة والاعتبار، ويقاس به الرجال والقضاة، ويستوحى من سيرته العدل الكامل أمام الظلمة والطغاة، والجبابرة والمتسلطين.

وقد تولى العز رحمه الله تعالى القضاء وهو على بينة من الأمر، وعمق في الفقه، ودراية في فهم الشرع، ولم يقتصر ذلك على كونه في مخزونه وعقله وفكره فحسب، بل أوضحه للناس، ووضعه أمام الفقهاء والعلماء والقضاة بعده في قواعد وفوائد وحِكم وأحكام، ولم يكن أيضاً

مجرد قاض يفصل في النزاعات بناء على الأحكام المذهبية بل كان يرسم للقضاة الطريق القويم، ويرشدهم إلى الحق الأقوم من الأمور، ويبين المنهج السديد في سير الدعوى، وإجراءات الخصومة، والحياد بين الأطراف، والحكم بما أنزل الله، وكان يمثل النائب العام في الدفاع عن الأمة، ويقوم بعمل مجلس الدولة في إقرار مشروعية الأنظمة والقرارات التي يصدرها السلطان والحكام.

وزاد العز على ذلك بأن تحلى بأهم صفات القاضي، وهو النطق بالحق دون أن تأخذه في الله لومة لائم، وكان لبعض شيوخه ـ كما سبق ـ أثر في تنمية هذا الاستعداد الفطري عنده، وكان يعلن الحكم ولو كان على السلطان والأمراء، ويبين الحكم الشرعي عند لزومه، دون أن يخشى بطش جبار أو متسلط، ويصرّ على التطبيق والالتزام والتنفيذ، لذلك وصفه الأديب أبو الحسين يحيى بن عبد العزيز الجزّار كأنه الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز، ومدحه فقال فيه:

سَارَ عبدُ العزيز في الحُكْم سَيْراً لم يَسِرْه سِوى ابنِ عبد العزيـز
عَمَّنـا حـكمُـه بـعَـدْلٍ وَسيط شـامِـل للوَرَى، ولفظ وَجِيـز[1]

أمثلة علمية من حياة العز القضائية:

سوف نذكر بعض النماذج العملية من أقضية العز، والأحكام التي سطرها في جبين الدهر في «مواقف العز» الخالدة والشهيرة، ونقتصر الآن على أمثلة نظرية وعلمية من ذلك.

---

(١) حسن المحاضرة ٢/١٦٣، طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٧ والبيت الثاني فيه: «عمنا حكمه بفضل بسيط»، وانظر مفتاح السعادة ٢/٣٥٣، طبقات الشافعية، للإسنوي ٢/٨٥، الإمام العز، للفقير ص ١١٢، عز الدين بن عبد السلام، محمد حسن عبد الله ص ٦٥.

قال العز ـ مبيناً الغرض والهدف من وجود القضاء ونصب القضاة ـ: «الغرض من نصب القضاة إنصاف المظلومين من الظالمين، وتوفير الحقوق على المستحقين، والنظر لمن يتعذر نظره لنفسه كالصبيان والمجانين والمبذرين والغائبين، فلذلك كان سلوك أقرب الطرق في القضاء واجباً على الفور، لما فيه من إيصال الحقوق إلى المستحقين، ودرء المفسدة عن الظالمين، والمبطلين...»(١).

وأرشد العز إلى دقائق الأحكام الشرعية في القضاء في الحدود، فقال: «قاعدة: في الشبهات الدارئة للحدود: الشبهات دارئة في الحدود، وهي ثلاثة، إحداها: في الفاعل...، الثانية: شبهة في الموطوءة...، الثالثة: في السبب المبيح...»(٢).

وقال العز رحمه الله تعالى: «العفو عن القصاص والعقوبات لازم لا يقبل الجواز، وكذلك الإبراء عن الديون (أي لا يصح التراجع فيها)، وأما الولايات فإن تعين المتولي، ولم يوجد من يقوم مقامه، فإنها لازمة في حقه، لا يقبل العزل ولا الانعزال إلى أن يوجد من يقوم مقامه فينفذ العزل والانعزال، فلو عزل الإمام أو الحاكم أنفسهما، وليس في الوجود من يصلح لذلك، لم ينفذ عزلهما أنفسهما لوجوب المضي عليهما»(٣).

وقال العز: «قاعدة: فيما يوجب الضمان والقصاص: يجب الضمان بأربعة أشياء: اليد، والمباشرة، والتسبب، والشرط»(٤) وشرح هذه القاعدة مع الأمثلة الفقهية، وختم ذلك فقال: «فائدة: إذا شهد اثنان بالزور على تصرف، ثم رجعا، فإن كان ذلك التصرف مما لا يمكن تداركه كالوقف

---

(١) قواعد الأحكام ٢/٤٣.
(٢) المرجع السابق ٢/١٦٠.
(٣) المرجع السابق ٢/١٥١.
(٤) المرجع السابق ٢/١٥٤.

والعتاق والطلاق، لزمهما الضمان، وإن كان مما يمكن تداركه، كالأملاك والأقارير، وجب الضمان على الأصح»(١).

وقال: «فصل فيما يجب على الغريم إذا دُعي إلى الحاكم»(٢)، وغير ذلك من أحكام الدعوى والبينات، والقواعد الفقهية التي تعتبر نبراساً للفقيه والمتفقه، وضياء أمام القاضي أثناء نظره وحكمه، وخصص فصلاً في «بيان العَدْل: تقدير النفقات بالحاجات مع تفاوتها عدل وتسوية»(٣)، وفصلاً آخر في «تفضيل الحكام على المفتين، والأئمة على الحكام»(٤)، وغير ذلك مما يكثر في كلامه النفيس(٥).

انعزال العز عن القضاء:

إن العز بن عبد السلام لم يطلب القضاء، وقوفاً عند قول جمهور الفقهاء من كراهة طلب القضاء، لما رواه عبد الرحمن بن سَمُرة أن رسول الله ﷺ قال له: «يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة، فإنك إن تُؤْتها من غير مسألة تُعَن عليها، وإن تُؤْتها عن مسألة تُوَكَّل إليها»(٦)، ولما رواه أنس

---

(١) قواعد الأحكام ٢/ ١٥٧.

(٢) المرجع السابق ٢/ ٣٠.

(٣) المرجع السابق ١/ ٧١.

(٤) المرجع السابق ١/ ١٤٢، وانظر: تاريخ القضاء في الإسلام ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٥) ومن ذلك قوله: «فائدة: ليس قول الحاكم يثبت عندي حكماً به إلا . . .» (قواعد الأحكام ٢/ ٤٦)، وقوله: «فائدة: لا يتغير حكم الباطن بحكم الحاكم في فسخ ولا عقد ولا في غيرهما إلا أن يقع الحكم في مجتهد فيه، ففي تغير الباطن فيه خلاف. . .» (قواعد الأحكام ٢/ ٤٦)، وقوله: «فائدة: بحث الحاكم عن الشهود عند الريبة والتهمة حق واجب في حقوق الله وحقوق عباده» (٢/ ٤١)، وقوله: «لا ترد شهادة أهل الأهواء؛ لأن الثقة حاصلة بشهادتهم، حصولها بشهادة أهل السنة، ومدار قبول الشهادة والرواية على الثقة بالصدق، وذلك متحقق في أهل الأهواء تحققه في أهل السنة» (قواعد الأحكام ٢/ ٣٨). وسوف نعود للمزيد في دراسة الكتب العلمية للعز.

(٦) رواه البخاري (٦/ ٢٤٤٣ كتاب الأيمان والنذور، المقدمة) ومسلم (١١/ ١١٦ =

رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من طلب القضاءَ واستعان عليه، وُكِلَ إلى نفسه، ومن لم يطلبه، ولم يَسْتَعِن عليه أَنْزل الله عليه ملكاً يسدِّده»[1]، ولأن طلب القضاء فيه شبهة واتهام أن يكون طلبه لحظ النفس، أو لغرض شخصي، أو هدف محرم[2].

والعز بن عبد السلام رحمه الله كان متمتعاً بأهلية القضاء، وإن مكانته العلمية، وسمعته العطرة، وعمقه بالفهم، ومعرفته بأحكام الشرع، وفتاويه كانت المؤهل لترشيحه للقضاء، ومبادرة السلطان الكامل بدمشق، ثم الملك الصالح نجم الدين أيوب بمصر إلى تعيينه في القضاء، وقضاء القضاء.

ولكن العز رغم ذلك كله كان متبرماً من القضاء، ومتحرجاً من الانغماس فيه، ويدرك مخاطره ومتاعبه وعواقبه، ولم يقبله إلا على مضض، لتعيُّنه عليه بعد الطلب، ولأنه أصلح من غيره.

ولما قبل القضاء ومارسه جاءه بعض أصحابه فلامه وعاتبه عليه، فأعلن العز عن رأيه وأن ذلك حكم الله وقدره، وأنه لم يطلب إلا رضاء الله فيه، وأنشد قائلاً[3]:

يـاذا الـذي يـؤلمـني عُـتبـه ... أَنسيتَ مـا قُـدِّر في المـاضي
إنَّ الـذي سـاقَـك لي واعـظاً ... هـو الـذي صـيَّـرني قـاضـي
والله مـا اختـرت سـوى قـربـه ... واختـار أن يعـكس أغـراضـي
إن كنت لا تـرضى بـأحكـامـه ... إنـي بـمـا قـدَّره راضـي

= كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها).

(١) رواه أبو داود (٢/٢٦٩ كتاب الأقضية، باب طلب القضاء) والترمذي (٤/٥٥٤ كتاب الأحكام، الباب الأول) وابن ماجه (٢/٧٧٤ كتاب الأحكام، باب ذكر القضاة) وأحمد (٣/١١٨، ٢٢٠).

(٢) انظر: أصول المحاكمات الشرعية والمدنية ص ٤٦.

(٣) انظر: الإمام العز، للفقير ص ١١٠.

وسار العز في القضاء سيرة مرضية، وقام بعمله على أحسن حال، فكان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، كقاض للحسبة، كما التزم أحكام الشرع ومرضاة الله تعالى، فأقام العدل في المجتمع، وكان صارماً في تطبيق الأحكام، والتسوية بين الناس، فالقوي ضعيف عنده حتى يأخذ الحق منه، والضعيف قوي حتى يعطيه حقه، ولا يرضى عن الحق والشرع بديلاً ولو قيد شعرة، ومهما كان الأمر جسيماً وخطيراً ومحرجاً ولو للسلطان وأمرائه وأعوانه.

وكانت هذه الصورة المشرقة سبباً في تعب القاضي الشيخ، وعرضته للخطر والتهديد والعزل والحبس، فكان يبادر غالباً لعزل نفسه لتأييد حكمه وقوله ورأيه، وذلك في ثلاث مرات.

الأولى: لما عينه الملك الكامل قاضياً في دمشق ثم اختلسته المنيّة ومات بعد وقت قصير، وجد الملك إسماعيل الفرصة مواتية لعزل العز من القضاء، بل لعله لم يتح له الفرصة لممارسته أصلاً فلم يجد العز غضاضة في ذلك، واستمر على أعماله الأخرى في التدريس والخطابة والفتوى.

الثانية: في مصر، ولم ينص أحد المترجمين على السبب فيها، والغالب أنها كانت بعد قرار العز ببيع الأمراء الذين كانوا مماليك، ولم يثبت عنده أنهم أحرار ليتولوا السلطة والولاية وتصريف أمور الدولة، ولم يصحح لهم بيعاً ولا شراء ولا نكاحاً، وتعطلت مصالحهم، وكان من جملتهم نائب السلطنة، فغضبوا من الشيخ، وشكوه إلى السلطان الذي طلب الرجوع عن الحكم فلم يرجع الشيخ، فغضب السلطان نجم الدين وقال: هذا ليس من اختصاصه، فثار العز لحكم الله تعالى، وعزل نفسه عن القضاء، وقرر الرحيل عن مصر، وخرج فعلاً من القاهرة التي شاع فيها الخبر، فلحق به العلماء وعامة الشعب، حتى قيل للسلطان: أدرك ملكك، وإلا ذهب منك، فلحق بالعز، واسترضاه وطيّب قلبه، فرجع العز

بشرط أن يتم بيع الأمراء والحكام، وتمّ له ما طلب، وباشر القضاء من جديد.

الثالثة: في مصر أيضاً، وصرح بها ابن السبكي وغيره، وكانت بعد هدم الطبلخانة فوق المسجد، وإسقاط عدالة معين الدين بن شيخ الشيوخ، أستاذ دار السلطان، فهدم العز البناء بنفسه وحكم بفسق الوزير، وأسقط شهادته، وعزل نفسه عن القضاء، وذلك سنة ٦٤٠ هـ، ولم يعد بعدها للقضاء الذي كان يتحين الفرص للخلاص منه، وراجعه السلطان فأصر وأبى، وقبل السلطان استقالته، وعين أحد نوابه صدر الدين الموهوب الجزري في الحكم منابه، ثم ولي القضاء بعده أفضل الدين محمد الخوَنجي.

قال ابن السبكي: «واتفق له في تلك الولايات عجائب وغرائب، ثم عزل نفسه عن الحكم، فتلطف السلطان رحمه الله في رده إليه، فباشره مدة، ثم عزل نفسه منه مرة ثانية، وتلطّف مع السلطان في إمضاء عَزْله لنفسه، فأمضاه، وأبقى جميع نوّابه من الحكّام، وكتب لكل حاكم منه تقليداً، ثم ولاّه تدريس الصالحية بالقاهرة المعزيّة»(١).

وهكذا انتهت ولاية القضاء في حياة العز، وقد ضرب فيها المثل الأعلى الذي خلّده التاريخ، وصارت تنظر إليه النفوس، وترمقه العيون، وترك القضاء وهو قرير العين، وقد حقق أغراضه وأهدافه، ورسم الطريق القويم لغيره، ولم يخلد للراحة والفراغ وضياع الوقت، وقد جاوز الستين

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٤.

وانظر: حسن المحاضرة ٢/١٦٢، ١٦٣، فوات الوفيات ١/٥٩٥، شذرات الذهب ٥/٣٠٢، البداية والنهاية ١٣/٢٣٦، تاريخ القضاء في الإسلام، عرنوس ص ١٩٣، عصر سلاطين المماليك ٢/٧٨ ـ ٧٩، ٨١. الإمام العز، للفقير ص ١١٠، العز، للندوي ص ٤٥، عز الدين، محمد حسن عبد الله ص ٦٦، العز، للوهيبي ص ٦٢.

من العمر، بل اتجه إلى الأعمال الأخرى في الخطابة، والتدريس العام والخاص، والإفتاء، ثم إلى العبادة والذكر، ثم عزله السلطان من الخطابة خوفاً من لسانه، وتأثر الجماهير به، فلزم بيته للتدريس، وخاصة التفسير.

قال ابن العماد الحنبلي: «ثم عزل نفسه من القضاء، وعزله السلطان من الخطابة، فلزم بيته يشغل الناس، ويدرس، وأخذ في التفسير في دروسه، وهو أول من أخذه في الدروس»[1].

---

(١) شذرات الذهب ٣٠٢/٥، وانظر: طبقات الشافعية للإسنوي ٨٥/٢، البداية والنهاية ٢٣٦/١٣.

الفصل الرابع
صِفَاتُ العِز الخَلْقِيَّةُ وَالخُلُقِيَّةُ

إن الصفات الخَلْقية والخُلُقية للشخص تكمل صورته، وتعطي الانطباع الدقيق لسيرته الشخصية، ونظرته إلى الحياة والناس، ونظرة الناس إليه سلباً وإيجاباً، وإن كمال الصورة وحسن المنظر أولاً، ثم السلوك الاجتماعي السليم، والتصرفات العملية الرشيدة توحي بآثارها الطيبة على الآخرين، وتمنح صاحبها ثقة في النفوس، ومحبة في القلوب، ومكانة في المجتمع، وقبولاً في التوجيه والوعظ والنصح.

وإن كتب التراجم والسيرة لم تسعفنا إلا بالقليل النادر عن صفات العز الخَلْقية التي خلقه الله تعالى عليها، ولكنها أفاضت علينا بنماذج عديدة عن صفاته الأخلاقية، وتصرفاته الاجتماعية والعملية، مما يصعب علينا استقصاؤها وحصرها في هذا الكتاب، والمهم دائماً وباستمرار حسن الصفات الخُلُقية، لا الخَلْقية، فالصفات الخَلْقية لا دخل للإنسان فيها، وهي من عطاء الله ونعمه، ولا تترك أثراً كبيراً وحاسماً في سيرة الإنسان الشخصية، بخلاف الصِّفات الخُلُقية فأغلبها كسبي ومن أعمال الإنسان الإرادية، وهي ذات التأثير الفعال في الصلات مع الآخرين، وهي مجال التكليف والثواب والعقاب والمؤاخذة في الدنيا والآخرة.

ونعرض في هذا الفصل نماذج من صفات العز رحمه الله تعالى.

أ ـ صفاته الخَلْقية:

إن المتتبع لسيرة العز وترجمته يرى له صفتين في هذا المجال، الأولى: أنه كان طويل القامة، لما جاء في القصة التي حكاها ابن السبكي في عمر العز ووفاته، ومقارنته مع كُثَيِّر عَزّة الذي كان قصيراً، خلافاً للعز الذي كان طويلاً[1]، والثانية: أن العز كان كامل الصورة والأوصاف، مما جعله مقبولاً عند الناس، وليس فيه عاهة أو علامة فارقة تلفت نظر الناظر، أو قلم الباحث والكاتب في عصره أو بعده، ومجموع هذه الصفات أضفت للعز صفة أصيلة ثابتة، وهي تعظيمه عند الناس والسلاطين، وهيبته في جميع الظروف والمناسبات، وفي مختلف المناصب والتصرفات.

ب ـ صفاته الخُلُقية:

إن صفات العز الخُلُقية كثيرة، وهي في مجملها تدل على تمتعه بأكمل الصفات، وأجمل الخصال، وأنبل المزايا، ليحقق التطبيق العملي للدعوة الإسلامية في مكارم الأخلاق، والتأسي الصحيح بخلق المصطفى عليه الصلاة والسلام، القائل «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[2] وهو الذي مدحه ربه في القرآن العظيم بأعلى وسام، فقال تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ القلم/٤، ونذكر بعض صفات العز الخُلُقية.

ورعه:

عرّف الجرجاني الورع بأنه: «اجتناب الشبهات، خوفاً من الوقوع في المحرمات، وقيل: ملازمة الأعمال الجميلة»[3].

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٦.

(٢) هذا الحديث رواه البخاري في «الأدب» والحاكم، والبيهقي في «شعب الإيمان» وأحمد وابن سعد عن أبي هريرة، وقال السيوطي: صحيح، وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح، وصححه الحاكم، وقال ابن عبد البر حديث متصل من وجوه صحاح. (انظر: فيض القدير ٢/٥٧٣، الفتح الكبير ١/٤٣٧).

(٣) التعريفات ص ٢٢٤، وانظر تعريف العز للورع في كتابه (شجرة المعارف ص ٤٢٥).

والورع من مكارم الأخلاق، ومن الصفات الإسلامية الحميدة التي يدعو إليها الدين، ويثني على صاحبها، وينال به الأجر الكبير، والفضل العظيم، لوقوفه على أحكام الشرع، واجتناب المنهيات، ويؤدي إلى التقوى والإخلاص، والورع فضيلة للمسلم العادي، ولكنه يأتي في قمة الواجبات وصفات العالم والداعية.

والورع صلة مباشرة بين الإنسان وربه، ويكسب صاحبه الثواب والأجر، ولكنه يفعل سحره العجيب في التأثير بالناس الذين يرقبون العلماء، وتتعلق أنظارهم بهم، للتعلم من عملهم، والاقتداء بسلوكهم.

واتفقت كلمة معاصري العز وتلاميذه، ومن بعدهم من العلماء والمصنفين ـ التي سنذكر بعضها في الفصل السابع ـ اتفقوا على وصف العز بهذه الصفة، وأنه كان ورعاً تقياً، بل شديد الورع، بالالتزام بالحلال، والبعد عن الحرام، واجتناب الشبهات في أعماله وتصرفاته، وفي مناصبه ومواقفه، وفي كسبه ورزقه وإنفاقه، وفي عباداته ومعاملاته، ومما يدل على ورعه كثير من التصرفات، ومنها ما ذكرناه سابقاً في قصة طلبه للعلم، ونومه في الكلاسة، واغتساله في ليلة واحدة باردة ثلاث مرات، ليحافظ على الطهارة، ويؤدي قيام الليل، وصلاة الفجر جماعة في المسجد، ومنها وقوفه عند أحكام الشرع في نفسه وكسبه وإنفاقه، وفي وظائفه وأعماله، وفي مواقفه وزهده، كما سنرى فيما يلي.

زهده:

قال الجرجاني: «الزهد في اللغة: ترك الميل إلى الشيء، وفي اصطلاح أهل الحقيقة هو بغض الدنيا والإعراض عنها، وقيل: هو ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة، وقيل: هو أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك»[1].

---

(١) التعريفات ص ١٠١ ـ ١٠٢.

والزهد من أصل الشرع، واتصف به السلف الصالح، وسمُّوا بالزهاد[1]، وهم الذين يرون أن الدنيا مزرعة للآخرة، وأنها ممر وليست مقراً، وأن الحياة الدنيا متاع قليل، وهدفهم الأساسي في نعيم الآخرة، وغايتهم القصوى مرضاة الله تعالى، سواء تملك أحدهم القليل أم الكثير، وسواء عاش في رغد العيش أم في شظفه، فالمهم أنه لا يتعلق بالدنيا وأموالها ومتاعها، ويتمسك بأهدابها، ويَعض عليها بالنواجذ.

وكان العز من الزهاد حقاً وصدقاً، بل كان شديد الزهد، فلم يجمع من الدنيا إلا القليل، وإذا عرضت عليه أعرض عنها، وقصصه في ذلك كثيرة.

منها: عندما انتهت فتنة الحَشْوية في الإيقاع بينه وبين الملك الأشرف بدمشق، وحصل ما حصل فيها كما سيمر، وانتهت المحنة بانتصار العز، واقتناع الملك الأشرف بصحة عقيدة العز أراد أن يسترضيه، ويعوضه بالصلة والمال، وقال: «والله، لأجعلنَّه أغنى العلماء»[2]، ولكن العز لم يأبه لذلك، ولم ينتهز هذه الفرصة لمصالحه الشخصية، ولم يقبل درهماً من الملك، لأن غناه في قلبه ونفسه وعلمه، بل رفض الاجتماع به لأمور شخصية، أو مجاملات رسمية، كما اعتذر عن الاجتماع بالملك الكامل عندما قدم دمشق وطلبه إليه[3].

ولما مرض الملك الأشرف مرض الموت، وطلب الاجتماع بالشيخ

---

(١) انظر: الرسالة القشيرية ص ٧، تعريف عام بالعلوم الشرعية، لنا ص ١٩٣ وما بعدها.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٣٧.

(٣) انظر: المرجع السابق ٨/٢٣٨. والعز في هذا يتمثل قول القائل:

قل للأمير مقالة من حاذق فطِن نبيه
إن الفقيه إذا أتى أبوابكم لا خيرَ فيه

العز ليدعو له، ويقدم له النصيحة، اعتبر العز ذلك قربة لله تعالى، وقال: «نعم، إن هذه العبادة لمن أفضل العبادات، لما فيها من النفع المتعدي إن شاء الله تعالى» وذهب ودعا للسلطان «لما في صلاحه من صلاح المسلمين والإسلام»، وأمره بإزالة المنكرات. . .، وطلب منه الملك العفو والصفح عما جرى في المحنة، قائلاً: «يا عِز الدين، اجعلني في حلٍ. . .» فقال الشيخ العز: «أما محاللتك فإني كل ليلة أحالِلُ الخَلق، وأبيتُ وليس لي عند أحدٍ مَظْلمة، وأرى أن يكون أجري على الله»، وفي نهاية الجلسة «أطلق له (السلطان) ألف دينار مصرية، فردَّها عليه، وقال: هذه اجتماعة لله، لا أكدرها بشيء من الدنيا»[١].

ولما هاجر الشيخ العز من دمشق، وقد ناهز الستين، لم يحمل معه شيئاً من حطام الدنيا، ومتاع البيت، أو ما كدَّسه من مناصبه وأعماله.

ولما استقال العز من القضاء عند فتواه ببيع الأمراء، ورفض السلطان لذلك، خرج من القاهرة، وكل أمتعته في الحياة، مع أسرته، حِمْل حمار واحد[٢]، مما يدل على قناعته بالقليل، وزهده في المال والمتاع.

ولما مرض الشيخ العز، وأحس بالموت، أرسل له الملك الظاهر بيبرس أن يعين أولاده في مناصبه، وقال: «. . . أن يكون ولدك مكانك بعد وفاتك (في تدريس الصالحية)، فقال العز: ما يصلح لذلك، قال له: فمن أين يعيش؟ قال: من عند الله تعالى، قال له: نجعل له راتباً؟! قال هذا إليكم»[٣]، ثم أشار إلى تعيين تقي الدين بن بنت الأعز.

والحقيقة أن ولد العز الشيخ عبد اللطيف كان عالماً فقيهاً، ويصلح

---

(١) انظر تفصيل القصة في: طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٢٤٠ وما بعدها.
(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٢١٦.
(٣) انظر: ذيل مرآة الزمان ١/ ٥٠٦، وانظر: طبقات الشافعية، للإسنوي ٢/ ٨٤، فوات الوفيات ١/ ٥٩٥.

للتدريس، ولكن ورع العز وزهده منعه من جعل منصب التدريس وراثة لأولاده[1].

فالعز كان زاهداً في الدنيا، وشديد العزوف عن الجاه والمناصب ومجالسة الحكام والملوك والأمراء الذين يغرون الناس بأموالهم ويفتنون العلماء بمناصبهم.

قال الداودي: «وكان كل أحد يضرب به المثل في الزهد والعلم»[2].

حبه للتصدق:

ويؤكد صفة الزهد عند العز أنه كان كثير الصدقات، باسط اليد فيما يملك، يجود بماله ولو كان قليلاً، طمعاً بالأجر والثواب، وادخار ذلك إلى يوم الدين.

حكى قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، رحمه الله، أن الشيخ لما كان بدمشق وقع مرة غلاء كبير حتى صارت البساتين تباع بالثمن القليل، فأعطته زوجته مَصاغاً لها، وقالت: اشتر لنا به بستاناً، نَصِيف به، فأخذ ذلك المصاغ، وباعه، وتصدق بثمنه، فقالت: «يا سيّدي اشتريت لنا؟ قال: نعم، بستاناً في الجنة، إني وجدت الناس في شدة فتصدقت بثمنه، فقالت له: جزاك الله خيراً»[3]، فجدد سيرة أصحاب رسول الله ﷺ والسلف الصالح[4].

---

(١) انظر: العز، للندوي ص ١٦٧.
(٢) طبقات المفسرين ١/٣١٢.
(٣) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٤.
(٤) انظر قصة أبي طلحة رضي الله عنه وعمر بن الخطاب عندما نزلت ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ آل عمران/٩٢ (صحيح البخاري ٤/١٦٥٩، تفسير ابن كثير ١/٣٨١).

ولما جاء أستاذ الدار الغِرْز[١] خليل برسالة الملك الأشرف بدمشق للشيخ العز بعزله عن الإفتاء، وعدم الاجتماع بأحد، ولزوم بيته، فتقبل هذه الأمور بصدر رحب، واعتبرها «هدية من الله تعالى، أجراها على يد السلطان، وهو غضبان، وأنا بها فرحان، والله يا غِرز، لو كانت عندي خِلعةٌ تصلح لك على هذه الرسالة المتضمنة لهذه البشارة، لخلعتُ عليك، ونحن على الفتوح، خذ هذه السجَّادة صَلِّ عليها، فقبِلها وقبَّلَها، وودّعه وانصرف إلى السلطان، وذكر ما جرى بينه وبينه، فقال السلطان لمن حضره: قولوا لي ما أفعل به؟ هذا رجلٌ يرى العقوبة نِعمة، اتركوه، بيننا وبينه الله»[٢].

فالقصة تدل على نفسية العز المجبولة على السخاء والكرم، وأنه قدم الهدية لمندوب السلطان، خلافاً للمعتاد، وأنه لو يملك ما يتناسب معه من خلعة الملوك لقدمها، وأنه لا يملك إلا سجادة الصلاة ليقدمها هدية رمزية لأستاذ الدار، لتكون درساً للسلطان عن عِزة الشيخ وغناه في قلبه، واستعداده للعطاء، وليس للأخذ، وأنه لم يبال بالوظائف والمناصب إن كان فيها مذلة، أو مَسَاس بكرامة العلماء والمفتين، وحَجْر على أحكام الشرع، فكان فقير اليد، لكنه غني القلب، عظيم الثقة بالله، وبما عنده.

ولذلك قال ابن السبكي في حب العز للتصدق: «وحكي أنه كان مع فقره كثير الصَّدقات، وأنه ربَّما قطع من عِمامته، وأعطى فقيراً يسأله إذا لم يجد معه غير عِمامته»[٣].

---

(١) الغرز كلمة مدح وتعظيم وثناء، وهو إطلاق مجازي، ومعناه: مكان الخير والسعادة، قال الزمخشري: «اطلب الخير في مغارسه ومغارزه، وابغ الكرم في معادنه ومراكزه»، أساس البلاغة ص ٦٧٥ مادة غرز.
(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٣٦.
(٣) المرجع السابق ٨/٢١٤.

تواضعه وعدم التكلف:

وعلى الرغم من كل هذه الثقة بالنفس، والهيبة التي يخشاها السلطان والأمراء كما سنرى، والمكانة الاجتماعية والعلمية، فقد كان الشيخ العز متواضع النفس، مع نفسه، ومع ربه، ومع الناس جميعاً، ولا يتكلف لشيء في حياته، ومعيشته، ولباسه، وسلوكه مع الجميع.

فعندما كتب له الملك الأشرف رسالته، وفيها ما يَلْمزه بالاجتهاد لمذهب خامس في العقيدة «إن كنت تدّعي الاجتهاد، فعليك أن تثبت، ليكون الجواب على قَدْر الدعوى، لتكون صاحب مذهب خامس»، أجابه العز بكل تواضع، وقال عن هذه النقطة: «وأمَّا ما ذُكر من أمر الاجتهاد، والمذهب الخامس، فأصول الدين ليس فيها مذاهب، فإن الأصل واحد»[1].

وعندما جاءه نائب السلطنة في مصر حاملاً سيفه ليقتل العز لفتواه ببيع الأمراء المماليك، كما سيمر معنا، فقام لاستقباله، فاعترضه ابنه خشية عليه من القتل، فقال له: «يا ولدي، أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله»[2].

وكان العز يترك التكلف في لباسه، فكان يلبس مرة العمامة، ومرة قبعة من لبّاد، بحسب ما يتيسر له، ويحضر بها المناسبات والمواكب، قال ابن السبكي بعد حكاية تصدقه بالعمامة: «وفي هذه الحكاية ما يدل على أنه كان يلبس العمامة، وبلغني أنه كان يلبس قبَعَ لبّاد، وأنه كان يحضر المواكب السلطانية به، فكأنه كان يلبس تارة هذا، وتارة هذا، على حسب ما يتفق من غير تكلف»[3].

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٣١، ٢٣٣.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٧، حسن المحاضرة ٢/١٦٣.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٤.

ولما هاجر من دمشق لم يتكلف لحمل شيء من متاعه وأمواله، ولما أراد الخروج من القاهرة كان كل متاعه حمل حمار واحد[1].

هيبته:

كان الشيخ العز رحمه الله تعالى مهيباً في شخصيته، وكان يظهر أثر ذلك في دروسه وخطبه، وفي اجتماعه مع الناس، ومعاملته مع طلابه، ومعاصريه، بل كانت هذه الهيبة تضفي آثارها الجسيمة على المتجبرين والمتكبرين والمتعالين والمتجرئين على الله والناس.

وهذه قصة العز مع نائب السلطان في مصر الذي اغتاظ غيظاً شديداً من فتوى الشيخ ببيع الأمراء المماليك، وهو منهم، وازداد غيظاً عندما ركب السلطان بنفسه ليلحق بالشيخ ويسترضيه ويطيب قلبه، ويُذعِنُ لطلبه، ويتفق معه على المناداة ببيع الأمراء، «فأرسل نائب السلطنة للعز بالملاطفة، فلم يُفد فيه، فانزعج النائب، وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا، ونحن ملوك الأرض؟! **والله لأضربنَّه بسيفي هذا**، فركب بنفسه في جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ، **والسيف مسلول في يده**، فطرق البابَ، فخرج ولد الشيخ عبد اللطيف، فرأى من نائب السلطنة ما رأى، فعاد إلى أبيه، وشرح له الحال، فما اكترث لذلك وما تغيّر، وقال: يا ولدي، أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله، ثم خرج **كأنه قضاء الله نزل على نائب السلطنة، فحين وقع بصره على النائب يَبِسَت يدُ النائب، وسقط السَّيف منها، وأرعدت مفاصله**، فبكى، وسأل الشيخ أن يدعوَ له، وقال: يا سيدي: خَبِّر إيش تعمل؟ قال: أنادي عليكم، وأبيعكم، قال: ففيم تصرف ثمننا؟ قال: في مصالح المسلمين، قال: من يقبضه؟ قال: أنا، فتمَّ ما أراد، ونادى على الأمراء واحداً واحداً، وغالى في ثمنهم، وقبضه،

---

(١) نظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٣٦.

وصرفه في وجوه الخير، وهذا ما لم يسمع بمثله عن أحد»[1].

وقال الأستاذ محمود رزق سليم عن بيبرس: «وكان يهاب سلطانَ العلماء في زمانه، وهو عز الدين بن عبد السلام»[2].

وتظهر هيبة الشيخ العز أيضاً، وثقته بنفسه، وحبّه للخير والتصدق حتى إلى الأشقياء، وذلك في قصة أخرى بعد عزله من المناصب بدمشق، ليلزم بيته، ويمتنع من ملاقاة الناس فاستأجر بستاناً متطرفاً عن البساتين، وكان مخوفاً، فقال له الغِرْز: البستان هو الآن بيتك، قال ابن السبكي: «واتفقت له فيه أعجوبة، وهو أن جماعة من المفسدين قصدوه في ليلة مُقْمِـرة، وهو في جَوْسق عالٍ، ودخلوا البستان واحتاطوا بالجوْسق (قصر صغير)، فخاف أهله خوفاً شديداً، فعند ذلك نزل إليهم، وفتح باب الجَوْسق، وقال: أهلاً بضيوفنا، وأجلسهم في مقعد حسن، وكان مهيباً، مقبول الصورة، فهابوه، وسخّرهم الله له، وأخرج لهم من الجَوْسق ضيافة حسنة، فتناولوها، وطلبوا منه الدعاء، وعصم الله أهله، وجماعته منهم، بصدق نيّته، وكرم طويته، وانصرفوا عنه»[3].

ولعل هذا من كرامات الشيخ العز، وحماية الله له، وهو القائل: ﴿إنّ الله يُدافع عن الذين آمنُوا﴾ الحج/٣٨، فصدق مع الله تعالى، فكان الله معه، وكان يخاف الله تعالى، فأخاف الله تعالى منه كل شيء، وهو القائل في رسالة الاعتقاد: «فمن آثر الله على نفسه آثره الله، ومن طلب رضا الله بما يسخط الناس، رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس»[4].

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٧ مع بعض التصرف.
(٢) عصر سلاطين المماليك ١/٥٣٣، وقال أيضاً: «لقد كان الشيخ عز الدين ذا مهابة وجرأة في الحق، وكان يلقب بسلطان العلماء» المرجع السابق ١/٩٤.
(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٣٥ ـ ٢٣٦.
(٤) انظر: المرجع السابق ٨/٢٢٨.

جرأته:

كان الشيخ العز جريئاً في الحق، يعلنه في كل مناسبة، وينطق به في خطبه ودروسه، ويبينه في الفتاوى والأحكام، ولا يخشى في الله لومة لائم.

ولم تكن هذه الجرأة على ضعاف الناس، أو على أحكام الشرع، كما يحصل أحياناً من أنصاف العلماء، وإنما كانت جرأة العز في مواطنها المطلوبة، وحتى مع السلطان مهما كان قوياً أو مهيباً، أو بطاشاً، وكان يستمد هذه الجرأة من ثقته بالله، وإعلانه لشرعه، ووقوفه عند حدوده، دون أن يكون له مطمع شخصي، أو رغبة في المصالح الخاصة، أو خوف على نفسه وروحه، وفي ذلك أمثلة كثيرة، ومواقف عديدة في حياة الشيخ العز، نذكر جانباً منها.

نقل ابن السبكي عن والده أنه سمع شيخه الباجي (تلميذ العز) يقول: طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان (نجم الدين أيوب) في يوم عيد إلى القلعة، فشاهد العساكر مصطفين بين يديه، ومجلس المملكة، وما السلطانُ فيه يومَ العيد من الأُبَّهَة، وقد خرج على قومه في زينته على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان، وناداه، يا أيوب، ما حجَّتُك عند الله إذا قال لك: أَلَم أُبَوِّىء لك مُلك مصر، ثم تبيح الخمور؟ فقال: هل جرى هذا؟ فقال: نعم، الحانة الفلانية يُباع فيها الخمور وغيرُها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة، يناديه كذلك بأعلى صوته، والعساكر واقفون، فقال: يا سيِّدي، هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي، فقال: أنت من الذين يقولون: «إنا وَجَدْنا آباءنا على أمّة» الزخرف/٢٢، ٢٣، فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة، قال الباجي: «سألت الشيخ لما جاء من عند السلطان، وقد شاع الخبر، يا سيدي كيف

الحال؟ فقال: يا بُنَيّ رأيته في تلك العظمة، فأردت أن أُهينَه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه، فقلت: يا سيدي أما خفته؟ فقال: والله يا بُني، استحضرت هيبة الله تعالى، فصار السلطان قُدَّامي كالقط»[1].

فكان العز جريئاً، ولا يبالي أن يخاطر بنفسه، تنفيذاً لما يعتقد من جهة، ولما كتبه في رسالته «ملحة الاعتقاد»، «والمخاطرة بالنفوس مشروعة في إعزاز الدِّين»[2]، ثم قال في رسالته للملك الأشرف: «وبعد هذا، فإننا نزعم أننا من جملة حزب الله، وأنصار دينه وجنده، وكل جندي لا يخاطر بنفسه فليس بجندي»[3].

ولما أراد الظاهر بيبرس أن يستلم السلطة والحكم، استدعى الأمراء والعلماء لمبايعته، وكان بينهم الشيخ العز الذي فاجأ الظاهر بيبرس بكل جرأة وشجاعة وقال له: «يا ركن الدين أنا أعرفك مملوك البندقدار» أي لا يصح مبايعة المملوك في استلام السلطة، فأحضر بيبرس ما يثبت أن البندقدار قد وهبه للملك الصالح أيوب، وأن الصالح أيوب قد أعتقه، وهنا تقدم الشيخ العز وبايعه على الملك[4]، ليكون من أعظم ملوك العالم في هزيمة الصليبيين، ومطاردة التتار، «وكان يعظم الشيخ العز ويحترمه، ويعرف مقداره، ويقف عند أقواله وفتاويه»[5]، وقال السيوطي عن الظاهر: «وكان بمصر منقمعاً تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام، لا يستطيع أن يخرج عن أمره، حتى إنه قال لما مات الشيخ: ما استقر ملكي إلا الآن»[6]، وقال طاش كبري زاده في وصف العز: «وكان رحمه الله

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١١ - ٢١٢، طبقات المفسرين ١/٣١١.
(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٢٨.
(٣) انظر: المرجع السابق ٨/٢٣٤.
(٤) انظر: من قضايا الرأي ص ١٧٨، عصر سلاطين المماليك ١/٩٤.
(٥) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٥.
(٦) حسن المحاضرة ٢/٩٥.

يتكلم بالحق، ويصدع به، ولا تأخذه في الحق لومة لائم»[1].

إزالته للبدع:

وصف المؤرخ أبو شامة شيخه العز بقوله: «ناصر السنة، وقامع البدعة»[2]، فكان الشيخ العز ملتزماً بدين الله وشرعه وأحكامه، ومتبعاً السنة النبوية، وسيرة السلف الصالح، ومقتفياً عبادات الرسول ﷺ وأفعاله، ولكنه رأى بين المسلمين مخالفات كثيرة، وبدعاً منكرة، يفعلونها باسم الدين، وهي في الحقيقة تشوه جوهر الدين، وتؤدي إلى تحريفه والإساءة إليه، فأعلن العز حربه على البدع والمنكرات حتى عرف بذلك، فأزال كثيراً من بدع عوام المسلمين، فأفتى بمنع صلاة الرغائب، كما سبق، وأيده في أول الأمر الشيخ ابن الصلاح الذي أفتى بمنعها، ثم صمم على خلاف العز، وجرى بينهما كلام طويل، ولهما رسائل مشهورة[3]، كما منع صلاة نصف شعبان، ومنع إقامتها بالجامع الأموي، لأنه لم يرد فيها سنة صحيحة من رسول الله ﷺ، وقال العز عن صلاة الرغائب: «البدع ثلاثة أضرب... الضرب الثالث: ما كان مخالفاً للشرع، أو ملتزماً لمخالفة الشرع، فمن ذلك صلاة الرغائب، فإنها موضوعة على النبي ﷺ، وكذب عليه»[4]، وقال العز: «القيام للمصحف بدعة لم تعهد في الصدر الأول، بينما قال النووي معاصره: يستحب القيام لما فيه من التعظيم وعدم التهاون»[5].

كما أزال العز بدع الخطباء في المساجد كلبس السواد، ودق السيف

---

(١) مفتاح السعادة ٢/٣٥٣.

(٢) ذيل الروضتين ص ١٧٠.

(٣) انظر هذه الرسائل في: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٥١، المجموع للنووي ٨/٤٢٧، وطبعت مستقلة.

(٤) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٥١، ٢٥٢.

(٥) انظر: مفتاح السعادة ٢/٣٥٤، أحوال الناس، للعز ص ٥٥.

على المنبر، والتسجيع في الخطبة، واجتنب الثناء على الملوك والحكام.

ووقف العز في وجه البدع الفكرية، وخاصة ما يتعلق بالعقيدة والإيمان وصفات الله تعالى، وأكد ذلك في رسالة الاعتقاد، والرد على الملك الأشرف، فقال: «وليس ردّ البدع وإبطالها من باب إثارة الفتن، فإن الله سبحانه وتعالى أمر العلماء بذلك، وأمرهم ببيان ما علموه، ومن امتثل أمر الله، ونصر دين الله، لا يجوز أن يلعنه رسول الله ﷺ»[1].

وعقد العز فصلاً عن البدع في كتابه: «قواعد الأحكام»، فعرفها فقال: «البدعة فعل ما لم يعهد في عصر رسول الله ﷺ» ثم قسمها وبين حكم كل قسم[2].

العز ناصحاً أميناً:

كان العز يدرك إدراكاً عميقاً وظيفة العالم في النصح والإرشاد، تحقيقاً لقول رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة، قلنا لمن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»[3]، وقام العز بهذه الوظيفة الجليلة في جميع حياته، ومن خلال دروسه، ووعظه، وخطبه، وإفتائه، وتولي القضاء، وقضاء القضاة، ولم يقتصر هذا النصح لعامة المسلمين، بل كان لله في دينه، وكتابه القرآن، ولرسوله في السنة، ولأئمة المسلمين من الحكام والأمراء والسلاطين الذين يحتاجون للنصح لتحقيق مصالح الدين والدنيا، وقد لا يصل إليهم إلا القلة النادرة من العلماء، ومن وصل إليهم فقد يَجْبُن عن إبداء النصح، أو يخفف ويلطف، أو يقتصر على

---

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٣٣.
(2) قواعد الأحكام ٢/٢٠٤ وما بعدها.
(3) هذا حديث صحيح رواه مسلم عن أبي رقية تميم بن أوس الدَّاري (٢/٣٧ كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة).

مجرد الإرشاد والتلميح والتورية. بينما كان العز في القمة في هذا المضمار، ونذكر طرفاً من ذلك.

لما مرض السلطان الملك الأشرف بدمشق مرض الموت طلب من الشيخ العز أن يعودَه ويدعو له وينصحه، فلبى العز واجب عيادة المريض، وقال للملك: «وأما دعائي للسلطان، فإني أدعو له في كثير من الأحيان، لما في صلاحه من صلاح المسلمين والإسلام...، وأما وصيتي ونصيحتي للسلطان فقد وجبت وتعينت لقبوله وتقاضيه»[1]، وكان السلطان قبل مرضه قد وقع بينه وبين أخيه السلطان الكامل بمصر جفوة ووحشة، في الوقت الذي ظهر فيه التتار في الشرق، فقال الشيخ للسلطان: «أخوك الكبير، ورحمك، وأنت مشهور بالفتوحات، والنصر على الأعداء، والتتر قد خاضوا بلاد المسلمين...» وأمره بصلة أخيه والتعاون معه في وجه التتار، وإزالة مظاهر القطيعة والعداوة بينهما قائلاً: «ولا تقطع رحمك في هذه الحالة، وتنوي مع الله نصرَ دينه، وإعزاز كلمته، فإن منَّ الله بعافية السلطان رجونا من الله إدالتَه على الكفار، وكانت في ميزانه هذه الحسنة العظيمة، فإن قضى الله تعالى بانتقاله إليه كان السلطان في خفارة نيته» فقال له: جزاك الله خيراً عن إرشادك ونصيحتك، وأمر ـ والشيخ حاضر في الوقت ـ بتنفيذ ذلك، ثم قال له: زدني من نصائحك ووصاياك، فقدم الشيخ النصائح، وأمره بإزالة المنكرات، ومنع المحرمات، ورفع المكوس عن المسلمين، وإبطال القاذورات، ودفع المظالم، فتقدَّم السلطان فوراً بإبطال ذلك كله، وقال له: جزاك الله عن دينك وعن نصائحك وعن المسلمين خيراً، وجمع بيني وبينك في الجنة بمنه وكرمه، وودّع الشيخ السلطان، ومضى إلى البلد، وقد شاع عند الناس صورة المجلس، وتبطيل المنكرات، وباشر الشيخ بنفسه تبطيل بعضها[1].

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٢٤٠ وما بعدها بتصرف.

وعندما كان الشيخ العز بمصر سنة ٦٥٧ هـ تقدم التتار ـ بعد سقوط بغداد ـ إلى بلاد الشام، واستولوا على بعض مدنها، ليواصلوا الطريق إلى مصر، وكان على عرش مصر شاب صغير، وبعث صاحب حلب والشام الملك الناصر يطلب النجدة على قتال الكفار، فجمع قطز العلماء والأعيان، والفقهاء والقضاة، لمشاورتهم في الأمر لمواجهة التتار، وحضر الشيخ العز، وعمره ثمانون سنة، وطرحت المشكلة في استيلاء هولاكو على البلاد، وأن بيت المال خال من الأموال، والسلطان صغير السن، قال ابن تغري بردي: «وأفاضوا في الحديث، فكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبد السلام» وسكت الأمراء والقضاة والعلماء، ولم يَجْرُؤْ أحد على الاعتراض على عزم الملك الجديد قطز في فرض الضرائب على الشعب دون الأمراء وبيت السلطان، وهنا ظهرت نصيحة العز الجريئة والحازمة، فأفتى بخلع السلطان الصغير، وجواز تعيين ملك قوي مكانه، وهو قطز، ثم وجه له النصيحة في أمر الضرائب مدافعاً عن الشعب، ومبيناً للحق فقال: «إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهبية والفضية، والكبابيس المزركشة، وأسْقاط السيوف والفضة وغير ذلك، وأن تبيعوا مالكم من الحوائص الذهبية، والآلات النفيسة، ويقتصر كل الجند على سلاحه ومركوبه، ويتساووا هم والعامة، وأما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا»[1].

وهكذا وضع الشيخ العز الحق في نصابه، وبين حكم الشرع الذي التزم به قطز، وطبقه الأمراء، وسار الجيش على بركة الله ومرضاته، وحقق

---

(١) انظر: النجوم الزاهرة ٧٢/٧ بتصرف، شذرات الذهب ٢٩١/٥، الجوهر الثمين ص ٢٦٤.

أعظم نصر في التاريخ في «عين جالوت» سنة ٦٥٨ هـ، ورد التتار على أعقابهم، فنصر المسلمون ربهم، فنصرهم الله على عدوهم ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ محمد/٧.

أمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من دعائم الإسلام الرئيسة، ومن وظائف العلماء الأساسية، ومن واجبات كل مسلم، ولذلك وردت فيها آيات قرآنية كثيرة، وأحاديث نبوية عديدة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يَدْعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾ آل عمران/١٠٤، وقوله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(١).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهم الأسس لصلاح الفرد، وتربية الإنسان، وصلاح المجتمع، ونفي السوء عنه، وتجنب المخاطر والمزالق، والمفاسد والأزمات، لذلك حذر القرآن الكريم من تركه أو التهاون فيه، فقال تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ الأنفال/٢٥، وأكد ذلك رسول الله ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهوُنَّ عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»(٢).

ومارس الشيخ العز هذه الوظيفة المقدسة ـ غير الرسمية أو الحكومية ـ في جميع حياته، ومن خلال جميع مناصبه، وفي جميع

(١) هذا الحديث رواه مسلم (٢/٢٢ كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) هذا الحديث رواه الترمذي (٦/ ٣٩٠ كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) عن حذيفة، وقال: حديث حسن.

ممارساته، وعلى مختلف الأصعدة العامة والخاصة، حتى اشتهر بذلك، وكانت هذه الصفة أهم صفاته، وأكثر مميزاته على غيره من العلماء، ولذلك أجمع المصنفون على وصفه بذلك، فمن ذلك:

قال الكتبي في وصف الشيخ العز: «كان ناسكاً ورعاً، أمَّاراً بالمعروف، نهَّاء عن المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم»[1].

وقال ابن العماد في وصف العز بدمشق: «هذا مع الزهد والورع، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصلابة في الدين» ثم يقول عنه في مصر: «فأقام بالمنصب أتم قيام، وتمكن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[2].

وقال عنه السيوطي: «وقدم مصر، فأقام بها أكثر من عشرين سنة، ناشراً للمعروف ناهياً عن المنكر، يعظ الملوك فمن دونهم»[3].

وقال ابن السبكي: «إمام عصره بلا مدافعة، القائم بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في زمانه»[4].

فالشيخ العز أمر بالمعروف في المسجد، والمدرسة، والبيت، والمجتمع، وأمام السلاطين والحكام والأمراء والملوك، ونهى عن المنكر مهما كان مصدره، وأياً كان شكله، وحذر الملوك من وجود المنكرات والمفاسد في الحياة، والتجارة، والأسواق، وما يصدر عن القادة والأمراء، ومن أشد المنكرات شيوع المحرمات وبيع الخمور مثلاً، وظلم الرعية، وسلب الحقوق، والاعتداء على الأموال، وفرض الضرائب الجائرة، فكان

---

(١) فوات الوفيات ١/٥٩٥.

(٢) شذرات الذهب ٥/٣٠٢.

(٣) حسن المحاضرة ١/٣١٥.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٠٩، وانظر بقية أقوال العلماء في وصف العز والثناء عليه في الفصل السابع من هذا الباب.

الشيخ العز يحذر من كل ذلك، ليصحح المسار، ويدافع عن أفراد الشعب، ويؤمن تطبيق أحكام الشرع، ومواقفه في ذلك كثيرة ومشهورة وعديدة، فكان صورة للعالم العامل، والداعية الصادق المخلص، والناصح الأمين الجريء، لا يخشى في الله لومة لائم، والأمثلة السابقة واللاحقة تؤكد ذلك، حتى سماه أحد المعاصرين: فقيه الشعب المدافع عن حقوقه[1].

جهاده:

الجهاد ذروة سنام الإسلام، ومن أعظم الخيرات، ويهدف إلى إعلاء كلمة الله تعالى، ولذلك يتنوع الجهاد إلى جهاد بالقلم واللسان، والبيان والعلم، وجهاد بالسيف والسنان، والحرب والقتال، وجهاد بالمال على الأغنياء والموسرين[2].

وكان رسول الله ﷺ سيد المجاهدين، وشاركه الصحابة الكرام، وسار على منوالهم معظم العلماء في جهاد العلم وجهاد القتال.

وكان للشيخ العز شرف الجهاد بنوعيه، وكان يدعو إليه ويكتبه في كتبه ورسائله، وهو القائل في رسالة الاعتقاد: «الجهاد ضربان، ضرب بالجدل والبيان، وضرب بالسيف والسنان. . .» «ولكن قد أَمَرنا الله بالجهاد في نصرة دينه، إلا أن سلاح العالم علمُه ولسانُه، كما أن سلاح المِلِك سيفه وسنانه، فكما لا يجوز للملوك إغمادُ أسلحتهم عن الملحدين والمشركين، لا يجوز للعلماء إغماد ألسنتهم عن الزائغين والمبتدعين، فمن ناضل عن الله، وأظهر دين الله كان جديراً أن يحرسه الله بعينه التي لا

(١) عز الدين، محمد حسن عبد الله ص ١٥٧، وانظر: وحي القلم ٣/٥٤.

(٢) ذكر الجصاص أنواع الجهاد بالنفس والجهاد بالمال وجهاد العلم ثم قال: «فجهاد العلم أصل وجهاد النفس فرع، والأصل أولى بالتفضيل عن الفرع» (أحكام القرآن ٣/١٤٧).

تنام، ويُعِزَّه بعزّه الذي لا يضام، ويحوطه بركنه الذي لا يُرام، ويحفظه من جميع الأنام. . . وعلى الجملة ينبغي لكل عالم إذا أذل الحق، وأخمد الصواب أن يبذل جُهده في نصرهما، وأن يجعل نفسه بالذل والخمول أولى منهما. . .، والمخاطرة بالنفوس مشروعة في إعزاز الدين، ولذلك يجوز للبطل من المسلمين أن ينغمر في صفوف المشركين، وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصرة قواعد الدين بالحجج والبراهين مشروعة. . .»(١).

وقام العز بجهاد العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعرّض نفسه للمخاطر الشديدة، والأهوال العجيبة، كما سيمر معنا، وعزل بسبب ذلك، كما مر، وكان مجاهداً جريئاً، ومناظراً قوياً، ومدافعاً صلباً عن دين الله وشرعه، مطبقاً حديث رسول الله ﷺ الذي رواه أبو الوليد عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعْنا رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعة، في العُسْر واليُسْر، والمَنْشَط والمكرَه، وعلى أَثَرَةٍ علينا، وأن لا نُنازع الأمرَ أهلَه، إلا أن تَرَوْا كفراً بواحاً عندكم من الله تعالى فيه برهان، وعلى أن نقول الحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم»(٢).

وجاهد الشيخ العز في الحياة والمجتمع لإقامة شرع الله ودينه، وحارب البدع، ووقف في وجه الفرق المنحرفة والآراء الباطلة، والعقائد الضالة، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ونصح أئمة المسلمين وعامتهم كما مرّ، وجاهد أمام الظلمة والطغاة والمستبدين، وخاطر بنفسه تطبيقاً لما

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٢٣، ٢٢٦، وما بعدها.

(٢) هذا حديث صحيح متفق عليه، رواه البخاري (٦/٢٥٨٨ كتاب الفتن، باب سترون من بعدي أموراً تنكرونها)، ومسلم (١٢/٢٢٨ كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء من غير معصية)، والمنشط والمكره أي في السهل والصعب، والأثرة الاختصاص بالمشترك، وبواحاً أي ظاهراً لا يحتمل تأويلاً. (انظر: نزهة المتقين ١/٢١٠).

قال، وامتثالاً للحديث الشريف الذي رواه جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سيِّدُ الشهداء حَمْزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره، ونهاه، فقتله»[1] أي لأجل أمره أو نهيه عن ذلك، وهذا ما بيّنه رسول الله ﷺ سلفاً، وأرشد فيه إلى الصواب، وقام الشيخ العز بهذا الجهاد والنصح للحكام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يعلن الثورة عليهم، ولم يطلب العصيان ضدهم، ما داموا مسلمين، ويقيمون الصلاة، ويطبقون الإسلام، مع الخطأ أو الانحراف، فعن أم سلمة هند بنت أبي أُمية حذيفة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه يستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برىء، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع» قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة»[2].

ومعناه: أي تعرفون بعض أعمالهم لموافقتها للشرع، وتنكرون أي تنكرون بعض أعمالهم لمخالفتها للشرع، قال النووي رحمه الله تعالى: «معناه: من كره بقلبه ولم يستطع إنكاراً بيد ولا لسان فقد برىء من الإثم، وأدى الوظيفة، ومن أنكر بحسب طاقته فقد سلم من هذه المعصية، ومن رضي بفعلهم وتابعهم فهو العاصي»[3]، وقال أيضاً: «هذا الحديث فيه معجزة ظاهرة بالإخبار بالمستقبل، ووقع ذلك كما أخبر ﷺ»[4].

---

(١) هذا الحديث أخرجه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (المستدرك ٣/١٩٥) ورواه الضياء والديلمي (انظر: الفتح الكبير ٢/١٦٨، فيض القدير ٤/١٢١)، وسيمر معنا حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن، ورواه ابن ماجه وأحمد والطبراني (انظر: نزهة المتقين ١/٢١٦).

(٢) رواه مسلم (١٢/٢٤٢ كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع).

(٣) رياض الصالحين مع شرح نزهة المتقين ١/٢١٢.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/٢٤٣.

ويطول بنا الحديث عن جهاد العز بعلمه وبيانه ولسانه وقلمه، ونكتفي بذلك، لنؤكد أن العز رحمه الله تعالى لم يتأخر عن الدعوة إلى الجهاد، والمشاركة في الإعداد له عندما يهدد العدو بلاد المسلمين وأرضهم وأنفسهم وأموالهم ودينهم، وقد رأيناه لبى دعوة قطز، وهو في الثمانين من عمره، للمشاروة في لقاء التتار، ودعوة المسلمين لذلك، وبيان الحكم الشرعي، وكان الاعتماد في الاجتماع على فتوى العز رحمه الله تعالى التي تحقق أثرها بالنصر المبين في عين جالوت على التتار.

ولما كانت همة العز أقوى، وجسمه أصلب، وسنه أقل بقليل شارك عملياً في الجهاد والقتال، وملاقاة الصليبيين الذين اتجهوا لاحتلال دمياط وسائر مصر بعد أن وصلوا إلى المنصورة، واستظهروا على المسلمين، فهب الجيش المسلم في مصر لمواجهة الغزاة، قال ابن السبكي: «وكان الشيخ مع العسكر، وقويت الريح، فلما رأى الشيخ حال المسلمين نادى بأعلى صوته مشيراً بيده إلى الريح، يا ريح خُذيهم، عدة مرات، فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتها، وكان الفتح، وغرق أكثر الفرنج، وصرخ من بين يدي المسلمين صارخ: الحمد لله الذي أرانا في أمة محمد ﷺ رجلاً سخّر له الريح»[1] وكان النصر المبين للمسلمين، واعتبر المؤرخون هذه الصيحة من كرامات العز رحمه الله تعالى.

وسوف نشير في الفصل الأخير من الباب الثاني إلى نظرة العز للدعوة، وبيان قواعد الدعوة، واختلافها بحسب الأشخاص والأحوال.

منزلته الرفيعة:

كان العز رحمه الله تعالى يتمتع بمكانة اجتماعية، ومنزلة علمية رفيعة، وحظوة عالية، عند الخاصة والعامة، وعلى الصعيد الشعبي والرسمي عند الحكام.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٦، وانظر حسن المحاضرة ٢/٣٥.

وتدل الصفات السابقة، والمواقف المشهودة التي سنذكرها، على هذه المنزلة، وتعطي الدليل الكامل، والبرهان الساطع على ما نقول، ونضيف هنا صورة جديدة تؤكد سمو منزلته على السلطان المشهور في زمانه، وهو بيبرس الذي له حظوته في السلطة والجيش والقتال والانتصارات.

لما قدم المستنصر، وهو من نسل آخر خلفاء بني العباس، بعد سقوط بغداد، والقضاء على الخلافة الإسلامية، وقتل آخر خلفاء بني العباس، إلى القاهرة سنة ٦٥٩ هـ، وبعد انتصار قطز على التتار في عين جالوت سنة ٩٥٨ هـ، وآلت السلطة إلى بيبرس، وأراد ـ مع بقية المسلمين ـ مبايعة المستنصر على الخلافة، لتجديد دولة بني العباس، واجتمعت الحشود لذلك، وهنا توقف السلطان الظاهر بيبرس عن المبايعة إلى أن يتقدم العز أولاً، قال الشيخ العز: «لما أخذنا في بيعة المستنصر قلت للملك الظاهر (بيبرس البندقداري): بايعه، فقال: ما أحسن، لكن **بايعه أنت أولاً، وأنا بعدك**»[1].

كراماته:

عرّف الجرجاني الكرامة فقال: «هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة، فما لا يكون **مقروناً بالإيمان والعمل الصالح** يكون استدراجاً، وما يكون مقروناً بدعوى النبوة يكون معجزة»[2].

وتظهر الكرامة على يد أولياء الله الصالحين تكريماً من الله تعالى لهم، ومصدر الكرامة هو الإيمان الصادق، والإخلاص الكامل، والعبودية التامة، والاعتماد الحقيقي على الله تعالى، والالتزام بشرع الله تعالى،

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء ٢٣/١٦٩، طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٥، الجوهر الثمين ص ٢٧٤، عصر سلاطين المماليك ٢/١١، ٢١، ٩١.

(٢) التعريفات ص ١٦١.

وكثرة التقرب إليه، وقال الله تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ يونس/٦٢ - ٦٤.

وهذا ما أكده رسول الله ﷺ في الحديث القدسي عن رب العزة، فيما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[١].

وبيَّن الشيخ العز هذا المعنى بنفسه، فقال: «والشرع ميزان يوزن به الرجال، وبه يتبين الربح والخسران، فمن ربح من ميزان الشرع كان من أولياء الله» ثم قال: «فإن رأيت إنساناً يطير في الهواء، أو يمشي على الماء، أو يخبر عن المغيبات، ثم يخالف الشرع بارتكاب المحرمات بغير سبب، ويترك الواجبات بغير سبب مجوِّز، فاعلم أنه شيطان نصبه الله فتنة للجهلة، وليس ذلك ببعيد من الأسباب التي وضعها الله للضلال»[٢].

وكان العز رحمه الله يطبق كتاب الله تعالى، ويتمثل الأحاديث الشريفة حقاً وحقيقة، قولاً وفعلاً، واقعاً وعملاً، فكان مع الله تعالى، وسنة رسول الله ﷺ، ويلتزم بميزان الشرع وأحكامه، وينصح لله، ويحقق ما جاء في الحديث الشريف السابق «العلماء ورثة الأنبياء»، و«علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»[٣].

---

(١) صحيح البخاري ٥/٢٣٨٤ كتاب الرقاق، باب التواضع.
(٢) أحوال الناس ص ٢٢.
(٣) جزم بعض العلماء كالفخر الرازي وابن قدامة والإسنوي والبارزي واليافعي إلى أنه =

وكان العز لا يبغي إلا رضاء الله تعالى، ولا يخاف إلا منه، ولا يتوكل إلا عليه، فكان الله معه، وكان الله له حافظاً ومعيناً، وكان الله عنه مدافعاً من أذى المعتدين، وتسلط الظالمين، وسطوة الحكام والأمراء، ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ الحج/٣٨، وكفاه الله همَّ الدنيا والآخرة، ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ النساء/٨١، ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ الأحزاب/٣٩.

وكان العز حبيباً لله تعالى في تطبيق شرعه، والسير على جادته، وتنفيذ ما أمر به، فكان ينظر بنور الله، ويبصر بعين الله، ويتكلم بقوة الله وجبروته، ويبطش بيد الله، ويمشي في سبيل الله، وعلى بركة الله، كما جاء في الحديث القدسي السابق.

ومن هنا أكرمه الله تعالى بأمور خارقة للعادة، مر معنا منها قصته مع اللصوص في البستان[1]، وقصته في تسخير الريح في معركة دمياط ضد الفرنج[2]، وقصته مع نائب السلطنة الذي جاء العز وهو شاهر السيف ليقتله «فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب، وسقط السيف منها، وأرعدت مفاصله، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له»[3].

ونضيف هنا قصة جديدة وطريفة، نقلها ابن السبكي فقال: «كان في الريف شخص يقال له: عبد الله البَلْتَاجي من أولياء الله، وكانت بينه وبين الشيخ عز الدين صداقة، وكان يُهْدي إليه في كل عام، فأرسل إليه مرة حِمْل جَمَل هدية، ومن جملته وعاء فيه جُبْن، فلما وصل الرسول إلى باب

= حديث مرفوع، وأخذ آخرون بمعناه، وقال السيوطي: لا أصل له، وكذا قال ابن حجر، وختم العجلوني الكلام فقال: «وقد يؤيده أنه الواقع» (كشف الخفا ٨٣/٢)، ومهما قيل في صحته فإن معناه صحيح.

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٢٣٥/١.

(٢) المرجع السابق ٢١٦/٨.

(٣) المرجع السابق ٢١٧/٨.

القاهرة انكسر ذلك الوعاء، وتبدّد ما فيه، فتألم الرسول لذلك، فرآه شخص ذمي، فقال له: لِم تتألم؟ عندي ما هو خير منه، قال الرسول: فاشتريت منه بَدَله وجئت، فما كان إلا بقدر أن وصلت إلى باب الشيخ، ولم يَعْلم بي ولا بما جرى لي غير الله تعالى، وإذا بشخص نزل من عند الشيخ، وقال: اصعد بما جئت، فناولته شيئاً فشيئاً، إلى أن سلمته ذلك الجبْن، فطلع ثم نزل، فقلت: أعطيته للشيخ؟ فقال: أخذ الجميع إلا الجبْن ووعاءه، فإنه قال لي: ضعه على الباب، فلما طلعت أنا، قال لي: يا ولدي لَيْش تفعل هذا؟ إن المرأة التي حَلَبت لبن هذا الجبْن كانت يدها متنجسة بالخنزير، وردَّه، وقال: سلِّم على أخي»(١).

لطفه وأدبه:

ذكرنا سابقاً أن الشيخ العز درس علوم العربية وأتقنها وبرع فيها، وتدل مصنفاته في «مجاز القرآن» وغيره على تعمقه في اللغة، وقدرته على البيان، وذخيرته اللغوية، وحفظه للأشعار، واستشهاده بالشعر الرفيع، والأبيات الجميلة المعبرة مما يكمل الصورة الدقيقة للعز، فكان مع شدته في المواقف، وصلابته في الدين، حسن المحاضرة بالنوادر والأشعار، لذيذ الحديث، ولذلك وصفه ابن كثير فقال: «وكان لطيفاً ظريفاً، يستشهد بالأشعار»(٢)، وقال ابن العماد الحنبلي: «كان مع شدته فيه حسن محاضرة بالنادرة والأشعار»(٣).

وعلى سبيل المثال، ففي رسالته في الاعتقاد التي لا تتجاوز عشر صفحات، أورد أكثر من اثني عشر بيتاً من الشعر الجيد، الذي يجري مجرى الحِكَم والأمثال(٤)، فمن ذلك:

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٣.
(٢) البداية والنهاية ١٣/٢٣٥.
(٣) شذور الذهب ٥/٣٠٢، وانظر: تاريخ القضاء في الإسلام، عرنوس ص ١٩٣، العز، للندوي ص ١٧٠.
(٤) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٩ وما بعدها.

- أمرُّ على الديار ديار ليلى أُقبّل ذا الجدارَ وذا الجِدارا
- وما حبُّ الديار شَغَفْن قلبي ولكن حبُّ من سكن الديارا
- وكلٌ يَدَّعونَ وصال ليلى وليلى لا تُقِرّ لهم بذاكا
- إذا قالت حَذامِ فصدِّقوها فإن القول ما قالت حَذامِ
- قليلٌ منك يكفيني ولكن قليلُك لا يُقال له قليل
- فليتَك تَحْلُو، والحياةُ مريرة وليتَك ترضى والأنام غضاب

وهكذا ورد استشهاده بالشعر في جميع كتبه وبحوثه(١)، وفي دروسه ووعظه وإرشاده، ولم يقتصر على ذلك، ولكنه كان يتمتع بملكة شاعرية، ويقرض الشعر، ولكنه قليل، فيكمله طلابه وأصحابه، فمما أنشده للطلبة:

لو كانَ فيهم مَنْ عَراه غرامُ ما عَنَّفُوني في هواه ولامُوا

فأكمل القصيدة على الوزن والمعنى شمس الدين الأسواني، قاضي اسوان، فقال أبياتاً كثيرة، منها:

لكنهم جَهِلُوا لذاذة حُسْنه وعلمتُها ولذا سَهرتُ ونامُوا
لو يعلمون كما علمتُ حقيقةً جَنَحُوا إلى ذاك الجَنَابِ وهاموا
إذ لو بدت أنواره لعيونهم خروا ولم تثبت لهم أقدام
فبقيت أنظره بكل مُصَوَّر وبكل ملفوظ به استعجام

إلى أن مدحه وقال:

مَوْلاي عِزَّ الدين عزَّ بك العُلا فَخْرا فدون حِذاك منه الهامُ

(١) انظر فهرس الأشعار في كتاب العز «شجرة المعارف ص ٤٦٨» وكتابه «الإمام ص ٣٣١»، وكتابه «الفوائد في مشكل القرآن» ص ٣١٠.

لما رأينا منك علماً لم يكن في الدَرْس قُلْنا إنه إلهامُ
جاوزت حد المدح حتى لم يُطق نظماً لفضلك في الورى النظّام
فعليك يا عبد العزيز تحيّةٌ وعليك يا عبدَ العزيز سلام

وسمع الشيخ العز جميع الأبيات في مجلس الدرس، ولما قضاها، قال له: أنت إذاً فقيه شاعر[1].

العز وكمال الأخلاق والصفات:

هذه بعض الصفات التي تحلى بها العز بن عبد السلام، وتؤكد التطابق والتكامل بين قوله وفعله، وبين سلوكه وما جاءت به الشريعة الغراء، ليعطي العز صورة عن صفات الداعية المسلم، ليكون العالم العامل بعلمه:

فكان العز يطبق أخلاق القرآن، وسيرة الرسول ﷺ، وأحكام الدين على نفسه، ويدعو بها غيره، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر على جميع المستويات، وخاصة عند أصحاب السلطة والنفوذ، وهو أعلى درجات الجهاد.

وكان العز ناصحاً أميناً ومخلصاً، لأن النصيحة واجبة على جميع المسلمين، وخاصة العلماء والدعاة، لأنها عماد الدين وقوامه، حتى قال العلماء في حديث «الدين النصيحة»: «عليه مدار الإسلام» وهو أصل عظيم جمع كل خير[2]، وهو ما صرح به العز نفسه، ولذلك ورد التحذير الشديد من ترك النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن الفساد والخطر والشر والعقاب يعمُّ الجميع، فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٦، وانظر بقية الأبيات، وما ورد من الشعر عن العز في كتاب «الإمام العز» للدكتور الفقير ص ١/٢١٠ وما بعدها.
(٢) انظر: نزهة المتقين ١/٢٠٦.

أنفسكم، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ المائدة/١٠٥، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمَّهم الله بعقاب منه»(١)، وعن ابن مسعود رضي الله عنه في حديث طويل عن سبب النقص والفساد والانحراف في بني إسرائيل، قال رسول الله ﷺ: «كَلَّا والله، لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتنهَوُنَّ عن المنكر، ولتأخذُنَّ على يد الظالم، ولَتَأطِرُنَّه على الحق أطراً، ولتَقْصُرُنَّه على الحق قصْراً أو ليضربَنَّ الله بقلوبِ بعضكم على بعض، ثم ليلعنَنّكم كما لَعَنهُم»(٢).

ولم يكن العز ضد الحكام والملوك والسلاطين المسلمين، ولم يكن مجرد معارض وثائر على الأوضاع السائدة، والحكومات المتقلبة، بل كان مع الحق حيث سار، وضد الباطل أينما اتجه، فإن رأى الحكام على الحق، ويدعون إلى الخير، ويتجهون إلى جهاد الكفار، والوقوف في وجه الأعداء، كان العز مؤيداً لهم، وناصراً، ومؤازراً، وكان في مقدمة الركب معهم، يجمع لهم الجموع، ويوحد صفوف الناس، ويعلن صيحة الإسلام لبيانه والدفاع عن أهله، وإن انحرف الحاكم، وأعلن الباطل، أو تجاوز الحق، أو خالف الشرع، أو تخاذل أمام الأعداء، أو ارتكبت في عهده الفواحش والمحرمات كان العز ضده، ووقف في وجهه، وصحح مساره، وقدم له النصيحة التي تتناسب مع الوصول إلى الحق والصواب.

---

(١) هذا الحديث رواه أبو داود (٢/٤٣٦ كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي) والترمذي (٦/٣٨٨ كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر) وأسانيده صحيحة (انظر: نزهة المتقين بشرح رياض الصالحين ١/٢١٩).

(٢) هذا الحديث رواه أبو داود، وهذا لفظه (٢/٤٣٦ كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي) والترمذي، وقال: حديث حسن (٨/٤١٤ كتاب التفسير، باب تفسير سورة المائدة) وقوله: لتأطرنه أي تعطفونهم، ولتقصرنه: أي لَتَحْبِسُنّه (نزهة المتقين ١/٢١٨).

وكان العز جريئاً في قول الحق، لا يخاف في الله لومة لائم، وكان عزيز النفس، متمثلاً بقول الله تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ المنافقون/٨، وكان يستمد عزته من عزة الله والإسلام، وعزة المؤمنين والأتقياء والعلماء والأولياء، ويعتدّ بذلك، ويصرح به «وبعد هذا، فإننا نزعم أننا من جملة حزب الله، وأنصار دينه وجنده، وكل جندي لا يخاطر بنفسه فليس بجندي»[(١)]، وهي كلمات من نور، تستمد شعاعها من كتاب الله الخالد في قوله تعالى: ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾ المائدة/٥٩، وقوله تعالى: ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ المجادلة/٢٢، ويقول العز أيضاً: «فصل في التعزز بالله، قال تعالى: ﴿من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعاً﴾ فاطر/١٠ وقال: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ المنافقون/٨، التعزز بالله ضرب من التوكل عليه في حصول العزة والغلبة»[(٢)].

فالعز يقول الحق، ولو كان مرّاً، ويخاطر بنفسه، متيقناً أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من نفع أو ضرر، وقوفاً عند حديث رسول الله ﷺ لابن عباس: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهَك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لا ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفّت الصحف»[(٣)]، والعز على إيمان ويقين أن الأجل مقدر، والعمر محدد، وكل شيء عند الله بمقدار محدد، ولن يُخرج الروح إلا بارئها، ولا ينتهي الأجل إلا بكتاب سبق من الله، ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٣٤، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/٨٤.
(٢) شجرة المعارف ص ٧٤.
(٣) هذا الحديث رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح (٧/٢١٩ كتاب أبواب صفة القيامة، باب ولكن يا حنظلة ساعة وساعة).

وأجلها، ولذلك يتمثل في العز حديث رسول الله ﷺ السابق «لا تزال طائفة من أمتي، على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك»، وسيبقى العلماء العاملون، والدعاة المخلصون سلسلة متصلة منذ زمن النبوة، وحتى تقوم الساعة، وسوف تمتد حلقات القائمين على الحق حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وسوف تستمر مواكب الشهداء من الدعاة والعلماء حتى تبقى راية الحق عالية خفاقة في هذا الكون.

ولم يكتف الشيخ العز بجهاد العلم واللسان والبيان، بل جاهد بماله في سبيل الله فأنفقه، كما سبق في زهده وحبه للتصدق، وجاهد بنفسه فخرج مع العساكر والجيش لملاقاة الفرنج، وكان وجوده أحد أسباب النصر، فاستحق الثواب عند الله، والثناء عند الناس، والمنزلة الرفيعة في الدارين، مما يؤكد حاجة المسلمين اليوم لأمثاله في تطبيق دين الله وشرعه، والشاعر يقول:

فَتَشَبَّهوا إنْ لم تكونوا مثلَهم ... إنَّ التشبُّهَ بالكرامِ فلاح

وإن الصورة اليوم، والظروف الراهنة تتفق في العصرين، فإن اختلف الغلاف، فالجوهر واحد، والحقيقة واحدة، والنتائج واحدة، والله المستعان والمأمول، ومنه الفرج، وعليه التكلان.

الفصل الخامس
إنتاج العز وتلاميذه

لم يقتصر العز رحمه الله تعالى على ممارسة المناصب الرسمية والتدريس العام، ولكنه كان يشغل نفسه طوال الوقت في العلم والإفادة، وقام بالتصنيف والتأليف، لتبقى كتبه أثراً خالداً يمتد الانتفاع بها، ويستمر على مدى الأيام وتعاقب الأجيال، تصديقاً لحديث رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثةٍ: صدقةٍ جارية، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له»(١).

وكان أول من استفاد من مناصب العز وأعماله وتدريسه وتصنيفه تلاميذه وطلابه، الذين يعتبرون الأثر المباشر له، وقد يُعَدّون إنتاجاً له، وامتداداً لشخصيته، وإحياء لمدرسته ومنهجه، والتلاميذ والطلاب كالأولاد والأبناء والإنتاج، والعلم نسب بين أهله، وإن للعلم رحماً يجب أن توصل، فكان تلاميذه كإنتاج له.

ولذلك جمعنا في هذا الفصل بين إنتاج العز وبين تلاميذه في قسمين.

---

(١) هذا الحديث صحيح رواه مسلم عن أبي هريرة (١١/٨٥ كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان الثواب بعد وفاته)، ورواه البخاري في «الأدب المفرد» وأبو داود والترمذي والنسائي (الفتح الكبير ١/١٥٤).

الأول: الإنتاج العلمي:

رأينا في فصل سابق أن العز نبغ في علوم متعددة، وخاصة علوم الشريعة وعلوم العربية، فقد ملك ناصية البيان العربي، والملكة اللغوية، والأدب الرفيع الذي يمكّن صاحبه من التصنيف والتأليف، كما أجاد في علوم الدين حفظاً وفهماً ودراية، وعمقاً واستنباطاً، وهو العامل الثاني في حسن التأليف والتصنيف، كما كان يتمتع بالملكة العقلية الفائقة، والقدرة الفكرية النيرة، والمواهب الفطرية العديدة، وذلك هو العامل الثالث للتفوق فيما يكتب، أما العامل الرابع والأخير، وهو التفرغ للبحث والكتابة، وفراغ الوقت، وقلة الأعمال، فكان غير متوفر للعز.

ومن هذه المقدمة ندرك أن العز ترك الكتب القيمة، والمصنفات النافعة، والرسائل المفيدة، والفتاوى السديدة، والمناظرات العميقة، والدراسات الدقيقة، وجاءت مصنفاته في غاية الكمال والنفع، وتدل على علم غزير، وفهم سليم، وباع طويل، ومع ذلك فإن هذا الإنتاج لا يتناسب مع مكانة العز وعلمه وتحصيله، ولذلك قال فيه اليافعي اليمني: «وهو من الذين قيل فيهم: علمهم أكثر من تصانيفهم، لا من الذين عبارتهم دون درايتهم، ومرتبته مع السابقين من الرعيل الأول»[1]، والسبب في ذلك هو تخلف العامل الرابع في الوقت والتفرغ، لأن العز كان مشغولاً بالمناصب الرسمية، وأعمال الأمة، ومتاعب الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليس عند عامة الناس، بل مع الملوك والأمراء والسلاطين والحكام والظالمين، وهذه الجوانب تأسر الفكر، وتستوعب الوقت، وتشغل الذهن، وتجفف القلم، وتشل اليد.

ونقتصر في هذا الفصل على سرد كتب العز ورسائله بعد تصنيفها،

---

(١) مرآة الجنان ٤/١٥٤، وانظر: العز للندوي ص ٥٨، الإمام العز للفقير ص ٣١٥، العز، للوهيبي ص ٧١.

ووصفها، وسوف نعود لدراسة محتواها، والاستفادة من مضمونها في الباب الثاني.

ومصنفات العز تزيد عن الثلاثين، ونسب إليه كتب أخرى، إما خطأ من النُسّاخ والباحثين، وإما للالتباس في اسمه، وتشابه الأسماء بينه وبين غيره، كما أشرنا في الفصل الأول.

وسوف نعدد هذه المصنفات، بعد تقسيمها وتصنيفها على العلوم الشرعية.

أولاً: التفسير وعلوم القرآن

١ - **مختصر تفسير «النكت والعيون للماوردي»**، حققه الدكتور عبد الله إبراهيم الوهيبي، كجزء من أطروحته لنيل درجة الدكتوراه في التفسير، وقدم له دراسة عن «العز بن عبد السلام، حياته، وآثاره، ومنهجه في التفسير»، وقدم دراسة عن منهج العز في هذا المختصر[(١)].

٢ - **تفسير القرآن العظيم**: بدأ فيه العز بتفسير الاستعاذة والبسملة، ثم شرع في تفسير سور القرآن الكريم سورة سورة، مع العناية الواضحة بالنحو والإعراب[(٢)]، ولا يزال هذا الكتاب مخطوطاً، ويوجد منه خمس نسخ خطية في تركيا[(٣)].

---

(١) انظر: العز، للوهيبي ص ١٠، ١١٧، وطبع تفسير «النكت والعيون للماوردي» في وزارة الأوقاف الكويتية في أربع مجلدات، كما يطبع حالياً في دار المعرفة ببيروت بعد تحقيقه.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٨، البداية والنهاية ١٣/٢٣٦، حسن المحاضرة ٢/٣١٥، طبقات المفسرين للداودي ١/٣١٣، كشف الظنون ١/٣٠٤.

(٣) انظر: شجرة المعارف للعز، مقدمة المحقق ص ٢١، الإمام في بيان أدلة الأحكام، مقدمة المحقق ص ٤٢.

٣ ـ **الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز**، ويختصر أحياناً باسم «مجاز القرآن»، وطبع هذا الكتاب عدة مرات، أولها منذ مائة سنة ١٣١١ هـ، ثم عام ١٣١٣ هـ في دار الطباعة العامرة باستنبول، ثم أعادت طباعته المكتبة العلمية في المدينة المنورة عام ١٩٦٦ م، وصورت الطبعة الأولى دار البشائر الإسلامية ببيروت عام ١٤٠٨ هـ/١٩٨٧ م، كما صورته بالأوفست مطبعة دار الفكر بدمشق(١).

واختصر هذا الكتاب ابن قيم الجوزية مع زيادات في كتابه «الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان»، كما لخص السيوطي كتاب العز مع زيادات عليه، وسماه «مجاز الفرسان إلى مجاز القرآن»، ويعتبر كتاب العز هذا، مع كتابه «قواعد الأحكام» أهم كتبه على الإطلاق(٢).

٤ ـ **أمالي عز الدين بن عبد السلام**، وهي تشمل: الأمالي في تفسير بعض آيات القرآن الكريم، والأمالي في شرح بعض الأحاديث المنتقاة، والأمالي في مناقشة بعض المسائل الفقهية، وهذه الأمالي كان العز يلقيها في دروس تفسير القرآن الكريم، ووجدت عدة مخطوطات لها، وتجمع الأمالي الثلاث، بينما اقتصرت بعض النسخ الخطية على القسم الأول وبعنوان «فوائد العز بن عبد السلام»، ولذلك قام الأستاذ رضوان الندوي بتحقيق هذا القسم في رسالته للدكتوراه، ثم طبعته

---

(١) انظر: العز، للوهيبي ص ١٢٢.

(٢) سجل الطالب السيد عبد السميع رسالة ماجستير في قسم اللغة العربية في كلية آداب بنها بجامعة الزقازيق بمصر، «دراسة كتاب الإشارة إلى الإيجاز» بإشراف الدكتور محمد زغلول سلام، انظر: الإشارة إلى الإيجاز، المقدمة ص/ب، شجرة المعارف، المقدمة ص ٢٢، الإمام، مقدمة المحقق ص ٤٣، كشف الظنون ٢٧٨/٢، العز، للوهيبي ص ١٢٢، مفتاح السعادة ٤٥٠/٢.

وزارة الأوقاف الكويتية سنة ١٩٦٧م، ثم أعيد طبعه في دار الشروق بجدة سنة ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م اعتماداً على نسخ خطية[1] بعنوان - «الفوائد في مشكل القرآن».

ثانياً: الحديث والسيرة والأخبار:

١ - شرح حديث: «لا ضرر ولا ضرار»:

نسبه إليه رضوان الندوي[2]، ولم يحدد مصدراً لذلك، ولم يرد في المصادر والمراجع التي اطلعنا عليها.

٢ - شرح حديث «أم زَرْع» الذي روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

يوجد منه نسخة خطية بمكتبة الفاتح باستنبول برقم ١١٤١، ويقع في ثلاث ورقات ملحقة في آخر مجلد كبير لنسخة خطية عن «مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري»[3].

٣ - مختصر صحيح مسلم: ذكره ابن السبكي في كتب العز، وذكره الداودي[4]، ولم يرد له ذكر في فهارس المخطوطات الموجودة، فإما أنه لا زال ضمن المخطوطات الخاصة والمبعثرة في أنحاء العالم، أو فقد وضاع مع ما فقد من تراث المسلمين العظيم أيام المحن والنكبات والحروب والاحتلال لبلاد المسلمين.

٤ - بداية السول في تفضيل الرسول: وهو رسالة صغيرة طبعت في مصر قديماً، وعلق عليها الشيخ عبد الله بن محمد الصديق الغماري، ثم

---

(١) انظر: الفوائد في مشكل القرآن، للعز، مقدمة المحقق ص/ي، شجرة المعارف، المقدمة ص ٢١، العز، للوهيبي ص ١١٩.

(٢) العز، للندوي ص ٧٥.

(٣) انظر: العز، للوهيبي ص ١٢٩، شجرة المعارف، المقدمة ص ٢٢، الإمام، المقدمة ص ٤٤.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٨، طبقات المفسرين ١/٣١٣.

حققها الدكتور صلاح الدين المنجد، وطبعتها دار الكتاب الجديد ببيروت سنة ١٤٠١ هـ، ثم حققها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، وطبعها في المكتب الإسلامي ببيروت سنة ١٤٠٣ هـ، ثم حققها السيد محمد أديب كلكل، وطبعها بدار الدعوة بحماة، وساق العز اثنين وثلاثين وجهاً لتفضيل الرسول ﷺ، وهي تعداد الخصائص التي خصه الله بها[١].

٥ ـ **قصة وفاة النبي ﷺ**، وتوجد منها نسخة في مكتبة برلين برقم ٩٦١٤[٢].

٦ ـ **ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام**: وفيها بيان فضل الشام والترغيب بالسكن فيها، وطبعت عدة مرات، الأولى في المطبعة التجارية بالقدس سنة ١٣٥٩ هـ/ ١٩٤٠ م بعناية أحمد سامح الخالدي الديري، ثم طبعت ببغداد وعمان بتحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي أمرير المياديني سنة ١٩٨٧م[٣]، وقام الأستاذ الشاب إياد الطباع بتحقيقها أيضاً، وهي قيد الطبع.

٧ ـ **مجلس ذم الحشيشة**، وهي رسالة لا تزال مخطوطة بمكتبة بريل في ليدن برقم ١٠٥٦[٤].

---

(١) انظر: شجرة المعارف، المقدمة ص ٢٢ ـ ٢٣، الإمام في بيان أدلة الأحكام، المقدمة ص ٥٠، العز، للندوي ص ٨١، الإمام العز، للفقير ص ٣٤٣، العز، للوهيبي ص ١٥٦، بداية السول ص ٣.

(٢) المراجع السابقة، لكن الدكتور علي الفقير أنكر نسبتها للعز لعدم إشارة المصادر القديمة لها، ومشاركة العز غيره في التسمية، (الإمام العز، للفقير ص ٣٥٤).

(٣) انظر: ترغيب أهل الإسلام، المقدمة ص ١٢، شجرة المعارف المقدمة ص ٢٣، الإمام، المقدمة ص ٥٠، كشف الظنون ١/ ٢٨١، العز، للوهيبي ص ١٥٨.

(٤) انظر: شجرة المعارف، المقدمة ص ٢٣، الإمام، المقدمة ص ٥٠، ويشكك الدكتور علي الفقير في نسبة هذه الرسالة للعز، ورجح أنها لأحد ممن تسمى بابن عبد السلام، (الإمام العز، للفقير ص ٣٥٣).

ثالثاً: الإيمان والعقيدة وعلم التوحيد:

١ - **رسالة في علم التوحيد**: وهي ورقة واحدة مخطوطة، ضمن مجموع من ورقة ٨ - ٩ في المكتبة الظاهرية بدمشق برقم ٥٢٠٧، وتوجد منها نسخة أخرى في مكتبة برلين برقم ٢٤٢٦[١].

٢ - **الملحة في الاعتقاد**: وهي رسالة مكونة من ١٠ صفحات مطبوعة ضمن ترجمة العز في طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي (٢١٩/٨ - ٢٢٩) نقلاً عن الشيخ عبد اللطيف بن العز، كما طبع قسم منها ضمن رسالة بعنوان «إيضاح الكلام فيما جرى للعز بن عبد السلام في مسألة الكلام» بقلم ابنه الشيخ عبد اللطيف[٢]، وتسمى ملحة الاعتقاد أيضاً: «رسالة في العقيدة» أو «الاعتقاد».

٣ - **الفرق بين الإسلام والإيمان**: وهي رسالة صغيرة مخطوطة، ولها عدة نسخ، وقام الأستاذ الشاب إياد خالد الطباع بتحقيقها، بدمشق، ويعدّها للنشر والطبع، وهي جواب لسؤال، لذلك ورد بعضها في «الفتاوى الموصلية» وتكلم العز فيها عن زيادة الإيمان ونقصه، وهو رأي جمهور أهل السنة والجماعة[٣].

٤ - **نبذة مفيدة في الرد على القائل بخلق القرآن**: وهي رسالة مخطوطة، وموجودة بدار الكتب المصرية، برقم ٢٠٧٤٠ ضمن مجموع[٤].

٥ - **وصية الشيخ عز الدين**: وهي رسالة صغيرة في العقيدة وموجودة في

---

(١) الإمام العز، للفقير ص ٣٢٧، العز للوهيبي ص ١٣١.

(٢) طبع دار الأنوار بالقاهرة سنة ١٣٧٠ هـ، وانظر: العز، للوهيبي ص ١٣٢، شجرة المعارف، المقدمة ص ٢٤، العز، للندوي ص ٢٥.

(٣) انظر: شجرة المعارف، مقدمة إياد الطباع ص ٢٣، العز، للوهيبي ص ١٣٢، الإمام العز، للفقير ص ٣٢٧، طبقات الشافعية الكبرى ٢٤٨/٨، العز، للندوي ص ٧٥، الإمام المقدمة ص ٤٥، فتاوى سلطان العلماء ص ٢٦.

(٤) انظر: العز، للندوي ص ٧٥، العز، للوهيبي ص ١٣٢.

المكتبة الظاهرية بدمشق، برقم ٥٢٥٨ ضمن مجموع، وهي ورقتان، وقد ذكرها العز نفسه، ضمن كتابه «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» (١/١٩٨ - ٢٠٥) وذلك على سبيل الاستطراد[١].

٦ - **أحوال الناس يوم القيامة وذكر الخاسرين والرابحين منهم**: وهي رسالة من ستين صفحة في العقيدة والزهد وفضائل الأعمال والتربية، حققها السيد/ مجدي فتحي السيد، ونشرتها دار الصحابة للتراث بالقاهرة، سنة ١٤١٠ هـ/١٩٩٠، عن نسخة خطية واحدة[٢].

رابعاً: الفقه والفتاوى:

١ - **الغاية في اختصار النهاية**: وهو كتاب كبير يقع في خمس مجلدات كبيرة، اختصر فيه أشهر كتب الفقه الشافعي المسمى «المذهب» وعنوانه «نهاية المطلب في دراية المذهب» لإمام الحرمين الجويني (٤٧٨ هـ)[٣] الذي يقع في ٢٧ مجلداً، وقام إمام الحرمين نفسه باختصار كتابه باسم «المعتصر»، وجاء العز فاختصر المختصر كما رجحه الدكتور الفقير[٤].

٢ - **الجمع بين الحاوي والنهاية**: ولعله لم يكمل، كما قال ابن السبكي، وهو كتاب يجمع بين أعظم كتابين في الفقه الشافعي، الأول: «الحاوي أو الحاوي الكبير» لأبي الحسن الماوردي (٤٥٠ هـ) ويقع

---

(١) انظر: العز، للوهيبي ص ١٣١، الإمام، المقدمة ص ٤٥، وأكد الدكتور الفقير أن مخطوطة الظاهرية بهذا العنوان هي لابن غانم المقدسي، ولا تصح نسبتها إلى العز (الإمام العز، للفقير ص ٣٥٢).

(٢) انظر: أحوال الناس، المقدمة ص ١٣، شجرة المعارف، المقدمة ص ٢٤، العز، للندوي ص ٨٣.

(٣) انظر كتابنا: الإمام الجويني ص ١٢٥ وما بعدها.

(٤) انظر: الإمام العز، للفقير ص ٣٢٨، العز، للوهيبي ص ١٤٩، الإمام، المقدمة ص ٤٧، العز، للندوي ص ٧٧، شجرة المعارف، المقدمة ص ٢٦.

في أربع وعشرين مجلداً، والثاني: «نهاية المطلب في دراية المذهب» لإمام الحرمين الجويني (٤٧٨ هـ) المذكور سابقاً، وهما أهم كتب الفقه الشافعي، وأكثرهما توسعاً في المذهب، ولم يرد ذكر لكتاب العز في فهارس المخطوطات المتوفرة، ولعل الكتاب فقد، أو لا يزال في إحدى الزوايا المجهولة، ولعل الله تعالى يكرم المسلمين بحفظه والكشف عنه[(١)].

٣ ـ **أحكام الجهاد وفضله**: وهو رسالة مهمة في الجهاد وأحكامه وفضائله، تقع في ثماني ورقات، وتوجد منها نسخة خطية في مكتبة برلين برقم ٤٠٨٨[(٢)].

٤ ـ **مقاصد الصلاة**: وهي رسالة صغيرة عن فضل الصلاة، وبيان شرفها، وأنها أفضل العبادات بعد الإيمان بالله تعالى، وتوجد منها عدة نسخ خطية، وقام الأستاذ إياد الطباع بتحقيقها[(٣)].

٥ ـ **مقاصد الصوم**: وهي رسالة صغيرة أيضاً في خمس ورقات، تتضمن فضل الصوم وفوائده الدنيوية والأخروية، وبعض أحكامه، وتوجد منها عدة نسخ خطية، وقام الأستاذ إياد الطباع بتحقيقها أيضاً[(٤)].

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٨، طبقات المفسرين للداودي ١/٣١٤، الإمام العز، للفقير ص ٣٣٠، شجرة المعارف، المقدمة ص ٢٧، الإمام، المقدمة ص ٤٨، العز، للوهيبي ص ١٥٠، العز، للندوي ص ٧٧.

(٢) انظر: العز للندوي ص ٧٧، العز، للوهيبي ص ١٤٩، شجرة المعارف، المقدمة ص ٢٩، الإمام، المقدمة ص ٤٩، وقد تشكك الدكتور الفقير في نسبة هذا الكتاب لعدم الإشارة إليه في الكتب القديمة، ولوجود الخلط واللبس في التسمية (الإمام العز، للفقير ص ٣٢٩)، ولا يمكن الجزم برأي إلا بعد الاطلاع على النسخة الخطية ودراستها بعمق وروية.

(٣) انظر: شجرة المعارف، مقدمة الطباع ص ٢٨، الإمام، المقدمة ص ٤٩، الإمام العز، للفقير ص ٣٣١، العز، للندوي ص ٧٦، العز، للوهيبي ص ١٤٥، مفتاح السعادة ٢/٣٥٤.

(٤) المراجع السابقة.

٦ ـ **مناسك الحج**: وهي رسالة صغيرة تقع في خمس ورقات، تحدث فيها العز عن الحج والعمرة وبعض أعمال الحج، وتوجد منها عدة نسخ خطية، وقام الأستاذ الطباع بتحقيقها[1].

٧ ـ **صلاة الرغائب**: وهي رسالة صغيرة للعز، تتألف من قسمين: الأول: الترغيب عن صلاة الرغائب الموضوعة، للرد على من يدعي مشروعيتها، فرد ابن الصلاح بجوازها ومشروعيتها، فصنف العز القسم الثاني: رسالة في تفنيد رد ابن الصلاح[2].

وطبعت هذه الرسالة بالمكتب الإسلامي بدمشق بتحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، والأستاذ زهير شاويش، بعنوان «مساجلة علمية بين الإمامين الجليلين العز بن عبد السلام وابن الصلاح» واشتملت المساجلة ثلاث رسائل، وألحق بها فتوى الإمام النووي، ثم طبعت هذه المساجلة في نهاية الجزء الثامن من «المجموع» للنووي ومعها فتاوى عدد من العلماء في إبطال صلاة الرغائب، لمخالفتها للسنة المشروعة.

وصلاة الرغائب اثنتا عشرة ركعة، تُصلى في أول ليلة جمعة من شهر رجب، يقرأ المصلي في كل ركعة الفاتحة مرة، وسورة القدر ثلاث مرات، وسورة الإخلاص اثنتي عشرة مرة، ويفصل بين كل ركعتين بتسليمة، فإذا انتهى المصلي منها، صلى على النبي ﷺ سبعين مرة، ثم يسجد ويقول في سجوده: «سبوح قدوس رب الملائكة والروح سبعين مرة» ثم يرفع رأسه ويقول: «رب اغفر لي، وارحم، وتجاوز عما تعلم، إنك أنت العزيز الأعظم» سبعين مرة، ثم يسجد الثانية، فيقول مثل ما قال في السجدة الأولى، ثم يسأل الله تعالى حاجته، فإنها تقضى[3].

---

(١) المراجع السابقة في الهامش ٣ ص ١٤٢.

(٢) المراجع السابقة.

(٣) العز، للوهيبي ص ١٤٨.

٨ ـ **الفتاوى الموصلية**: ويقال عنها: «فتاوى العز بن عبد السلام»، وهي أجوبة عن تسعين سؤالاً وجهت إليه من خطيب الموصل شمس الدين عبد الرحيم الطوسي (سنة ٦٥٤ هـ) بالقاهرة، فقيل «الموصلية» أو «الأسئلة الموصلية» أو «المسائل الموصلية»، وتشمل مختلف أبواب الفقه، وبعض الأسئلة في علم الكلام والتفسير وموضوعات أخرى.

ويوجد منها نسختان مخطوطتان في المكتبة الظاهرية بدمشق، ونسخة ثالثة في مكتبة برلين، ونسخة رابعة بدار الكتب المصرية اشتملت عليها، وعلى الفتاوى المصرية[١].

٩ ـ **الفتاوى المصرية**: وهي فتاوى مكونة من أجوبة في الفقه والأصول والتفسير والعقيدة سئل عنها العز بمصر، قال عنها ابن السبكي: «وهي مجموع مشتمل على فنون من المسائل والفوائد»[٢].

وجمعها أحد تلامذته ودونها حسب ترتيب الأبواب الفقهية، ولا تتعدى عشرين صفحة، ويوجد منها نسخة بدار الكتب المصرية اشتملت على «الفتاوى الموصلية» أيضاً، ونسخة أخرى في مكتبة برلين[٣].

وقام الأستاذ عبد الرحمن عبد الفتاح بتحقيق «الفتاوى للعز» وطبعتها دار المعرفة ببيروت سنة ١٤٠٦ هـ، وهي مجموع فتاوى العز في ١٢١ مسألة، كما قام الأستاذ مصطفى عاشور بتحقيق «فتاوى سلطان العلماء العز بن عبد السلام» وطبعتها ونشرتها مكتبة القرآن بالقاهرة سنة ١٩٨٧م عن نسختين مخطوطتين بدار الكتب المصرية، وصرح المحقق أنه جمع «بين الفتاوى الموجودة في المخطوطة

---

(١) انظر: شجرة المعارف، المقدمة ص ٢٨، الإمام، المقدمة ص ٤٨، العز للندوي ص ٧٨، الإمام العز، للفقير ص ٣٣٠، العز، للوهيبي ص ١٥٢.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٨. (٣) انظر المراجع السابقة في الهامش رقم ١.

الأولى، والفتاوى الموجودة في المخطوطة الثانية»[1]، واشتملت على ١٢١ مسألة، وجاءت في ١٦٠ صفحة، والغالب أنها تجمع «الفتاوى الموصلية» و«الفتاوى المصرية». وإن لم يصرح المحقق بذلك، ولا أشار إليه.

خامساً: أصول الفقه:

١ ـ **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، أو القواعد الكبرى: وهذا الكتاب، مع كتاب «الإشارة إلى الإيجاز» أعظم كتب العز رحمه الله تعالى، وهما شاهدان على إمامة العز وعظيم منزلته في علوم الشريعة، كما قال ابن السبكي[2]، ويوجد من هذا الكتاب القيم نسخ خطية عديدة في المكتبات العالمية، نظراً لشهرة الكتاب وانتشاره منذ كتابته، وفي عهد مؤلفه رحمه الله تعالى، وطبع الكتاب عدة مرات، منها طبعة دار الشرق للطباعة بالقاهرة سنة ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م بمراجعة طه عبد الرؤوف سعد، ولكن الكتاب لم يخدم بشكل كاف، وتحقيق يتناسب مع مكانته ومنزلته، وعلمت أن أحد كبار علماء دمشق انتهى من تحقيقه، وهو قيد الطباعة، كما رأيته في مطبعة أخرى محققاً على نسخ خطية من الظاهرية مع زيادات كثيرة عن المطبوعة السابقة، وسوف نعود لعرضه ودراسته في الباب الثاني إن شاء الله تعالى.

٢ ـ **القواعد الصغرى**: وهو مختصر الكتاب السابق، اختصر فيه العز كتابه بحذف الفروع الفقهية والاستطرادات والتعليقات، ويوجد منه نسخ خطية في المكتبة الظاهرية بدمشق والمكتبات العالمية[3]، وقام الأستاذ إياد الطباع بتحقيقه، وهو قيد الطباعة.

---

(١) فتاوى سلطان العلماء، المقدمة ص ٩.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٨، وانظر المراجع السابقة في رقم ١ ص ١٤٤.

(٣) انظر: العز، للندوي ص ٨٠، العز، للوهيبي ص ١٤٢، شجرة المعارف، المقدمة ص ٢٦، الإمام، المقدمة ص ٤٧.

٣ ـ الإمام في بيان أدلة الأحكام:

ويذكر أيضاً بعنوان «الدلائل المتعلقة بالملائكة والنبيين عليهم السلام والخلق أجمعين» وظنه بعضهم كتابين للعز، كما ظن آخرون أن الكتاب في العقيدة بسبب العنوان الثاني[1]، وهما عنوانان لكتاب واحد.

والكتاب من أجلّ كتب العز رحمه الله تعالى، وفيه اهتمام ظاهر بنظرية العز «جلب المصالح ودرء المفاسد في الأحكام» وتركيز على بعض القضايا الأصولية، مع تنوع القضايا والمسائل في العقيدة واللغة والبلاغة، مما يقربه أيضاً من كتاب «الإشارة إلى الإيجاز» ووضع فصولاً كاملة فيه من «الإشارة» مع خلوه من الفروع الفقهية، وتوشيحه بالوعظ والقصص كعادة العز وأسلوبه ومنهجه في الدعوة والتصنيف[2].

وحقق الكتاب الأستاذ رضوان مختار بن غربيّة للحصول على شهادة الماجستير من جامعة أم القرى بمكة المكرمة بإشراف الأستاذ الدكتور نزيه كمال حماد، وطبعته دار البشائر الإسلامية، ببيروت سنة ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧م.

٤ ـ شرح «منتهى السؤل والأمل في علْمي الأصول والجدل» لابن الحاجب (٦٤٦ هـ): قال حاجي خليفة: «منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل للشيخ الإمام جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب المالكي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ، صنفه أولاً ثم

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٢٤٨/٨، العز، للندوي ص ٧٦، وانظر: الإمام العز، للفقير ص ٣٤٠، العز للوهيبي ص ١٤٣، شجرة المعارف، المقدمة ص ٢٧.
(٢) انظر: الإمام في بيان أدلة الأحكام، مقدمة المحقق ص ٥٥ وما بعدها.

اختصره، وهو المشهور المتداول بمختصر المنتهى، ومختصر ابن الحاجب... وهو مختصر غريب في صنعه، بديع في فنه لغاية إيجازه... واعتنى بشأنه العلماء فشرحه...» وعدد الشراح ثم قال: «وشرحه العز بن عبد السلام سلطان العلماء المعروف بشيخ الإسلام المتوفى سنة ٦٦٠ هـ)(١) وذكره أيضاً البغدادي(٢).

سادساً: الزهد والتصوف والتربية والأخلاق وفضائل الأعمال:

١ ـ شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال:

قال السبكي: «حسن جداً»(٣)، وحدد العز معالم هذه الشجرة، فأصلها «**معرفة الذات**» الإلهية، وفرعها «**معرفة الصفات**» وثمرتها ـ وهي الغاية من ذكر هذه الشجرة ـ هي «**التخلق بآداب القرآن**» و«التخلق بصفات الرحمن» التي تحقق «جميع الخيرات العاجلة والآجلة»(٤).

والكتاب قيم ومفيد، وسوف نعود لعرضه ودراسته، وقد حققه الأستاذ الشاب إياد خالد الطباع، وطبعته دار الطباع بدمشق، سنة ١٤١٠ هـ/١٩٨٩م، ويقع مع الفهارس في **٥٢٣** صفحة، ويضاف له المقدمة في ٤٦ صفحة، واعتمد في التحقيق على ثلاث نسخ خطية(٥).

---

(١) كشف الظنون ٢/٥٣٨، ٥٣٩.

(٢) هدية العارفين ١/٥٨٠، بينما شكك الدكتور الفقير في نسبته للعز، انظر: الإمام العز، للفقير ص ٣٤٣، العز، للندوي ص ٨٠، العز، للوهيبي ص ١٥١.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٨.

(٤) شجرة المعارف ص ١١.

(٥) انظر: شجرة المعارف، المقدمة ص ٣١، ٣٨، العز، للندوي ص ٨٢، العز، للوهيبي ص ١٥٢، الإمام العز، للفقير ص ٣٤٤.

٢ ـ **مختصر رعاية المُحاسِبي، أو مقاصد الرعاية لحقوق الله**:

ذكره ابن السبكي، والداودي، والبغدادي، ويوجد منه ثلاث نسخ خطية، ولم يطبع بعد[(١)].

٣ ـ **مسائل الطريقة في علم الحقيقة**: وهي رسالة صغيرة في ثلاث ورقات، وطبعت في ١١ صفحة بمصر سنة ١٣٢٢ هـ، ضمن كتاب «تحفة الإخوان» لأحمد الدردير، واشتهرت بالستين مسألة، لأنها تتضمن ستين سؤالاً في الأخلاق والتصوف والإيمان[(٢)].

٤ ـ **رسالة في القطب والأبدال الأربعين**: قال حاجي خليفة: «بيَّن فيها بطلان قول الناس فيهم، وعدم وجودهم، كما زعموا»[(٣)]، وتوجد منها نسخة في بغداد في ٨ ورقات، ونسخة في لينينغراد في ست ورقات، وطبعت في حلب إلا أن بدايتها تختلف عن بداية نسخة أوقاف بغداد[(٤)].

٥ ـ **فوائد البلوى والمِحَن، أو: الفتن والبلايا والمحن والرزايا**: وهي رسالة صغيرة من ورقتين، وفيها الفوائد والثواب والأجر الذي يناله المسلم من ابتلائه بالفتن والمحن والرزايا والمصائب، ذكر العز فيها سبع عشرة فائدة، ويوجد من الرسالة نسخة خطية بالأسكوريال،

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٢٤٨/٨، طبقات المفسرين ٣١٤/١، هدية العارفين ٥٨٠/١، العز، للندوي ص ٨٣، الإمام العز، للفقير ص ٣٤٦، العز، للوهيبي ص ١٥٥، شجرة المعارف، المقدمة ص ٢٤.

(٢) انظر: الإمام العز، للفقير ص ٣٤٧، العز للوهيبي ص ١٥٥، عصر سلاطين المماليك ١٨٨/٣. ويشكك الأستاذ الطباع في صحة نسبتها للعز (شجرة المعارف، المقدمة ص ٣١)، كما يشكك الدكتور الفقير فيها.

(٣) كشف الظنون ٥٦١/١.

(٤) انظر: شجرة المعارف، المقدمة ص ٢٤، العز، للندوي ص ٨٢، الإمام العز، للفقير ص ٣٤٧، العز، للوهيبي ص ١٥٤.

ومصورتان في معهد المخطوطات بالقاهرة[1]، وقام الشاب إياد الطباع بتحقيقها، وهي قيد الطباعة.

٦ ـ **نهاية الرغبة في أدب الصحبة**، لم يذكره أحد من المترجمين القدامى، ويوجد منها نسخة خطية في مكتبة باريس[2]، ولعلها لشخص آخر يشارك العز في اسمه، ولا يمكن الترجيح والجزم إلا بالاطلاع على النسخة الخطية، ودراستها دراسة وافية.

سابعاً: الكتب المنسوبة للعز:

نشير إلى عناوينها للتحرز منها، كما أن بعض الكتب السابقة لم تثبت نسبتها للعز كما أشرنا[3].

١ ـ كشف الإشكالات عن بعض الآيات، لمحمد بن أحمد بن عبد الهادي، وألحقها الدكتور رضوان الندوي في آخر كتاب «فوائد في مشكل القرآن» وبيَّن أنها ليست للعز.

٢ ـ العماد في مواريث العباد، لأحمد بن محمد بن عبد السلام المصري المنوفي الشافعي.

٣ ـ فرائد الفوائد وتعارض القولين لمجتهد واحد، لشمس الدين بن محمد السلمي الشافعي الشهير بالمناوي.

٤ ـ حل الرموز ومفاتيح الكنوز، المطبوع والمنسوب للعز، والصواب أنه لعز الدين بن عبد السلام بن الشيخ أحمد المقدسي الواعظ (٦٧٨ هـ).

---

(١) انظر: المراجع السابقة في الهامش ٤ ص ١٤٨. الإمام العز، للفقير ٣٤٨، طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٨.

(٢) انظر: العز، للندوي ص ٨٢، شجرة المعارف، المقدمة ص ٢٥، الإمام العز، للفقير ص ٣٤٨.

(٣) انظر: شجرة المعارف، المقدمة ص ٢٩، الإمام العز، المقدمة ص ٥١، الإمام العز، للفقير ٣٤٩، العز، للوهيبي ص ١٦٠.

٥ ـ كشف الأسرار عن حِكَم الطيور والأزهار، لعز الدين بن عبد السلام بن أحمد بن غانم المقدسي، المطبوع في دار الطباع بدمشق، بتحقيق الدكتور مختار هاشم.

٦ ـ ثلاثة وثلاثون شعراً في مدح الكعبة، لأن المصادر القديمة لم تذكر هذه الأبيات للعز ومؤلفاته.

٧ ـ الأجوبة القاطعة لحجج الخصوم للأسئلة الواقعة في كل العلوم، ذكرها عبد الرحمن بن عبد الفتاح في مقدمة تحقيق كتاب «الفتاوى للعز»، وهي لعز الدين بن عبد السلام بن أحمد بن غانم.

وهناك كتب ورسائل أخرى منسوبة للعز، ولم يثبت صحة ذلك، ونكتفي بالإشارة لها.

القسم الثاني: تلاميذ العز:

مارس العز رحمه الله تعالى التدريس منذ اكتمال دراسته وتمام تحصيله، وتفرغ للتعليم وإلقاء الدروس في المدارس والمساجد والبيوت حتى وفاته، واجتمع في حلقاته ودروسه الجموع الغفيرة من أهالي دمشق والقاهرة، ولما اشتهر وذاع صيته قصده الطلبة من أصقاع العالم الإسلامي، لذلك قال ابن كثير: «وأفاد الطلبة، ودرَّس بعدة مدارس... وانتهت إليه رئاسة الشافعية، وقُصد بالفتاوى من الآفاق»[(١)]، وقال ابن العماد الحنبلي: «وبلغ رتبة الاجتهاد، ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد»[(٢)]، وقال الكتبي: «ودرَّس، وصنف، وأفتى، وبرع في المذهب، وبلغ رتبة الاجتهاد، وقصده الطلبة من البلاد، وتخرّج به أئمة، وله الفتاوى السديدة»[(٣)].

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٥.

(٢) شذرات الذهب ٥/ ٣٠١.

(٣) فوات الوفيات ١/ ٥٩٤.

وإن تلاميذ المدرس العادي، أو العالم المتوسط، لا يحصون، فكيف بالمدرس المشهور، والعالم الكبير، والعلامة الفذ، والشيخ الذائع الصيت الذي يقصده الناس من الآفاق، ويتخرج به الأئمة، وهو ما حصل فعلاً للعز رحمه الله تعالى.

ولا شك أن المستفيدين من علم الشيخ العز ودروسه على أصناف، فقد استفاد من الشيخ العز عامة الشعب وسواد الناس، وانتفعوا بخطبه ووعظه وحلقاته، كما استفاد منه عدد كبير من التلاميذ والطلاب العاديين، من الشام ومصر وغيرهما، ممن لم يصلوا إلى درجة النبوغ والشهرة، وتخرج على يدي العز التلاميذ المتفوقون الذين نبغوا في العلم، وصاروا أئمة، ونقلوا علوم الشيخ، وسجل التاريخ وكتب التراجم أسماء بعضهم، وفيهم الأمراء والحكام، وهؤلاء كثيرون أيضاً، ومع ذلك لم تدوَّن أسماؤهم كاملة، ولم يحصر عددهم، وكان أثر الشيخ العز في هذه النخبة واضحاً وجلياً، سواء من الناحية العلمية، أم من الناحية السلوكية العملية، وسوف نسرد أسماء بعضهم سرداً، ونذكر ترجمة مختصرة لبضعة منهم، خشية الإطالة.

وقبل ذلك نود أن نشير إلى التلمذة غير المباشرة للعز رحمه الله تعالى، فقد استفاد الآلاف والآلاف في كل عصر بشكل غير مباشر من علم العز وفضله وسلوكه، وتتلمذوا على مدرسته وكتبه، واستفادوا من مصنفاته في مختلف الأقطار، ولذلك فإن اسم العز وعلمه وكتبه تتردد على لسان العلماء وطلاب العلم في مختلف الأماكن والأزمان، مما يزيد في فضل العز رحمه الله تعالى، ويكثر من ثوابه وأجره عند الله تعالى إلى ما شاء الله تعالى.

ونشرع بذكر ترجمة موجزة مختصرة لأشهر تلاميذ العز المباشرين، ونبدأ بأولاده من النسب:

١ ـ إبراهيم بن عبد العزيز بن عبد السلام:

وهو ولد الشيخ العز، ويكنى بأبي إسحاق، ولد سنة ٦١١ هـ، ودرس على والده، ثم صار يخطب بجامع العقيبة المشهور بدمشق، وكان يلبس ثياباً قصيرة، وإذا خطب بكى، ويتعانى الوعظ، ويتكلم بكلام مسجوع كسجع الكهان، ويزعم أنه يلقى إليه من الجن، فتألم منه أبوه لذلك وتركه، ولكن كان فيه سلامة باطن، وتوفي سنة ٦٨٦ هـ(١)، ولم يترجم له ابن كثير وابن السبكي وابن العماد وغيرهم.

٢ ـ عبد اللطيف بن عبد العزيز بن عبد السلام:

وهو ولد الشيخ العز، ولد سنة ٦٢٨ هـ، وطلب الحديث بنفسه، وأخذ عن الشيوخ، وروى عن ابن اللَّتِّيّ، وتفقه على والده، وتميز في الفقه والأصول، حتى صار فقيهاً، وكان يعرف تصانيف والده معرفة حسنة، كما يدرس سيرته، وكتب جانباً من ذلك، مما نقله عنه العلماء، واقتبس كثيراً منه ابن السبكي وغيره، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٩٥ هـ(٢).

٣ ـ ابن دقيق العيد:

هو محمد بن علي بن وهب بن مطيع، القشيري، المنفلوطي المصري، أبو الفتح، تقي الدين، المعروف بابن دقيق العيد، القاضي، الفقيه، الأصولي، الأديب الشاعر.

أصله من منفلوط بمصر، وانتقل أبوه إلى قوص، وذهب إلى الحج فولد له محمد في يَنْبع على ساحل البحر الأحمر بالحجاز، سنة ٦٢٥ هـ، ونشأ بقوص، وتعلم بدمشق والإسكندرية والقاهرة، وتفقه على المذهب

---

(١) المنهل الصافي ١/٩٣.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٣١٢، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/٨٥، حسن المحاضرة ١/٤٢٠.

المالكي، وأتقنه، ثم انتقل إلى المذهب الشافعي فأحاط به، وأفتى، وصنف في المذهبين، وأتقن علم أصول الدين وأصول الفقه، والنحو واللغة، وبرع في الحديث.

ولي قضاء القضاة بمصر، وعزل نفسه مرات، ويطلب فيعود، واستمر قاضياً إلى أن توفي بالقاهرة سنة ٧٠٢ هـ.

اشتهر بالتقوى حتى لقب بتقي الدين، وكان مدققاً، غواصاً، ورعاً، مكباً على المطالعة، وله نظم جيد، ومِلَح وأخبار طريفة، وصنف عدة كتب(١).

أخذ ابن دقيق العيد عن العز الأصول والفروع في الشام ومصر، وشهد له العز فقال: «الديار المصرية تفتخر باثنين: ابن منير في الإسكندرية، وابن دقيق العيد في قوص». ونقل ابن السبكي عن مشايخه أنهم لا يختلفون في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس السبعمائة، وكان ابن دقيق العيد متأثراً بالعز في علمه وسلوكه، فكان متبرماً من القضاء، وعزل نفسه منه للإصرار على تنفيذ الشرع والأحكام، وعدم استغلال المنصب وسيلة لإسكاته عن الحق، وكان لا يحابي أحداً، ولا يداري حاكماً، ويزيل المظالم، ويرد الأوقاف ممن يستغلها أو يختلسها، ويحارب البدع، ويكتب إلى نواب القضاء يذكرهم بالواجب، ويحذرهم من الظلم والجور، ويخاطب السلطان بقوله: يا إنسان، ويخص الشيخ الباجي بقوله: يا إمام، وابن الرفعة بقوله: يا فقيه، وكان جواداً

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٩/٢٠٧، الديباج المذهب ص ٣٢٤، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/٢٢٧، حسن المحاضرة ١/٣١٧، الدرر الكامنة ٤/٢١٠، البدر الطالع ٢/٢٢٩، تذكرة الحفاظ ٤/١٤٨١، فوات الوفيات ٢/٤٨٤، الفتح المبين ٢/١٠٢، شذرات الذهب ٦/٥، البداية والنهاية ١٤/٢٧، الطالع السعيد ص ٣١٧، الأعلام ٧/١٧٣، عصر سلاطين المماليك ٢/١٠٣، وحي القلم ٣/٥٢.

وينفق أمواله في شراء الكتب، وهو الذي أطلق على العز: سلطان العلماء(1).

٤ ـ تاج الدين بن بنت الأعز:

عبد الوهاب بن خلف بن بدر العَلاَمي، أبو محمد، قاضي القضاة، تاج الدين بن بنت الأعز، المصري الشافعي، المعروف بابن بنت الأعز، لأن جدَّه لأمه الأعز بن شكر وزير الملك الكامل، والعَلاَمي: نسبة إلى عَلاَمة، وهي قبيلة من لخم.

ولد سنة ٦٠٤ هـ، وسمع الحديث من جعفر الهَمَذاني، وقرأ «سنن أبي داود» على الحافظ زكي الدين المنذري، وحدَّث.

كان رجلاً عالماً فاضلاً، ذكي الفطرة، حاد القريحة، صحيح الذهن، عفيفاً نَزِهاً، جميل الطريقة، حسن السيرة، مقدماً عند الملك، ذا رأي سديد، وذهن ثاقب، وعلم جم، رئيساً للديار المصرية.

ولي قضاء القضاة بالديار المصرية، والوزارة، ونظر الدواوين، وتدريس الشافعي والصالحية، ومشيخة الشيوخ، والخطابة، ولم تجتمع هذه المناصب لأحد قبله، وقلما تجتمع لغيره، وكان يقال: إنه آخر قضاة العدل، واتفق الناس على عدله وخيره، مع الصلابة في الدين، والتثبت في الأحكام، وتولية الأكفاء، لا يراعي في الحق أحداً، ولا يداهنه، ولا يقبل شهادة مريب، وكان يرد شهادة الأمراء عندما يشهدون عنده، لعدم ثبوت الأهلية المطلوبة منهم شرعاً عنده.

كان الشيخ العز يحبه ويقدره، وكان نائبه في الحكم، ثم أسند إليه قضاء القضاة إثر عزله نفسه، وفوَّض إليه تدريس المدرسة الصالحية عند

---

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٢٠٩/٨، ٢٠٩/٩، مرجع العلوم الإسلامية ص ٢٧٠، الإمام العز، للفقير ص ٢٤٩، وحي القلم ٥٢/٣.

مرضه، لما طلب منه الظاهر بيبرس أن يعين أحد أولاده، فقال: ليس فيهم من يصلح لذلك، وهذه المدرسة للقاضي تاج الدين بن بنت الأعز.

وله مواقف مشهورة في القضاء مع الملك الظاهر بيبرس الذي جعل القضاة أربعاً حسب المذاهب بسبب ذلك في مصر سنة ٦٦٣ هـ، وفي الشام سنة ٦٦٤ هـ، وتوفي تاج الدين بمصر سنة ٦٦٥ هـ. وله ولدان[1].

الأول: تقي الدين، عبد الرحمن بن عبد الوهاب... قاضي القضاة، ابن قاضي القضاة، كان فقيهاً، نحوياً، أديباً، ديّناً، أصولياً، ومن أحسن القضاة سيرة، وجمع بين القضاء، والوزارة، وولي مشيخة الخانقاه، وخطابة جامع الأزهر، وتدريس الشريفية، وتدريس الشافعية، والمشهد الحسيني بالقاهرة.

سمع الحديث، وتفقه على والده، وعلى الشيخ العز، وتأثر به، وكان متواضعاً كريماً، مربياً للطلبة، وعزل من القضاء بفرية الوزير ابن سلعوس الذي كان تقي الدين يمنعه من الاختلاس والظلم، ثم أعيد، وبقي على القضاء حتى مات كهلاً سنة ٦٩٥ هـ.

وكان مناظراً، بصيراً بالأحكام، جيد العربية ذكياً[2].

الثاني: صدر الدين، عمر، كان فقيهاً، عارفاً بالمذهب، له معرفة بالعربية، ولد سنة ٦٢٥ هـ، وسمع من الحافظ المنذري والرشيد العطار، وتفقه على يد العز وغيره.

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٣١٨، طبقات الشافعية للإسنوي ١/٧٧، حسن المحاضرة ١/٤١٥، ٢/١٦٤، البداية والنهاية ١٣/٢٤٩، النجوم الزاهرة ٧/٢٢٢، عصر سلاطين المماليك ٢/٩٩.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/١٧٢، طبقات الشافعية للإسنوي ١/٧٨، حسن المحاضرة ١/٤١٥، ٢/١٦٨، البداية والنهاية ١٣/٣٤٦، النجوم الزاهرة ٨/٨٢، شذرات الذهب ٥/٤٣١، فوات الوفيات ١/٥٣٤، العز، للندوي ٧٠.

ولي قضاء القضاة بالديار المصرية سنة ٦٧٨هـ، وتأسى بالعز ووالده في نصرة الحق، والصلابة في الدين، وكان لا يمزح، ولا يضحك، كثير الصدقة والبر بالفقهاء، ثم عزل نفسه عن القضاء، واقتصر على تدريس الصالحية حتى مات سة ٦٨٠ هـ[1].

٥ ـ أبو شامة:

عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان، أبو القاسم، شهاب الدين المقدسي، الدمشقي، المعروف بأبي شامة، لشامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر، المؤرخ، المحدث، المقرىء، الفقيه الشافعي، النحوي.

أصله من القدس، ومولده في دمشق، ونشأ بها، وأكمل القراءات وهو حَدَث، وسمع الحديث، وحُبب إليه السفر في طلبه، وأتقن الفقه، ودرَّسه، وأفتى به، وأتقن علم اللسان، وبرع في القراءات، ولي مشيخة دار الحديث الأشرفية، ومشيخة الإقراء بدمشق، وتوفي بها غَيْلة سنة ٦٦٥ هـ.

أخذ عن العز بن عبد السلام، وتأثر به، فكان متواضعاً، تاركاً للتكلف، وصنف في عدة علوم، ومن كتبه «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: الصلاحية والنورية» و«ذيله» فأرّخ لأحداث عصره وما قبله، ووقف كتبه ومصنفاته في الخزانة العادلية بدمشق، فأصابها حريق التهم أكثرها[2].

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٣١٠، طبقات الشافعية للإسنوي ١/٧٨، حسن المحاضرة ١/٤١٥، ٢/١٦٧، البداية والنهاية ١٣/٢٩٧، شذرات الذهب ٥/٣٦٧، الإمام العز، للفقير ص ٢٩٥.

(٢) انظر: مرجع العلوم الإسلامية ص ٢٦٨، وفيه: تذكرة الحفاظ ٤/١٤٦٠، طبقات المفسرين ١/٢٦٣، طبقات الشافعية الكبرى ٨/١٦٥، بغية الوعاة ٢/٧٧، البداية والنهاية ١٣/٢٥٠، شذرات الذهب ٥/٣١٨، فوات الوفيات ١/٥٢٧، النجوم

٦ - **الفركاح**:

عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع بن ضياء، الفَزَاري، الملقب بتاج الدين، المعروف بالفركاح، لاعوجاج في رجليه، المصري الأصل، الدمشقي الإقامة، الفقيه الشافعي، الأصولي، الأديب، الشاعر، المؤرخ، المفسر، المحدث، فقيه أهل الشام.

تفقه على شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، وروى «البخاري» عن ابن الزبيدي وسمع من ابن اللَّتِّيِّ، وابن الصلاح، وبلغ رتبة الاجتهاد، وتخرج به جماعة من القضاة والمدرسين والمفتين، ودرَّس وناظر وصنف، وانتهت إليه رئاسة المذهب، ثم انتهت إلى ولده الفقيه الشيخ برهان الدين إبراهيم.

كتب الفركاح عدة كتب تدل على مكانته في العلم وتبحره فيه، وكان كريماً حسن الأخلاق والآداب، كثير الاشتغال بالعلم، محبباً إلى الناس لطيف الطباع، توفي سنة ٦٩٠ هـ وهو على تدريس البادرائية بدمشق[١].

٧ - **القرافي**:

أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن بن عبد الله، الصِّنْهاجي، البَهْنَسي، شهاب الدين، أبو العباس، القرافي، المصري، الفقيه المالكي، الأصولي، المفسر، المحدث، المتكلم، النحوي، انتهت إليه رئاسة المالكية في عصره.

والصنهاجي نسبة إلى قبيلة صِنْهاجة من برابرة المغرب، والقرافي

= الزاهرة ٧/٢٢٤، الأعلام ٤/٧٠، الفتح المبين ٢/٧٥، ذيل مرآة الزمان ٢/٣٦٧.

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/١٦٣، طبقات الشافعية، للإسنوي ٢/١٤١، فوات الوفيات ١/٥٢٢، شذرات الذهب ٥/٤١٣، البداية والنهاية ١٣/٣٢٥، الفتح المبين ٢/٩٢، النجوم الزاهرة ٧/٢٠٨، مفتاح السعادة ٢/٣٥٣، الأعلام ٤/٦٤، مرجع العلوم الإسلامية ص ٤٣٤.

نسبة إلى مقبرة القرافة بشرقي القاهرة، ولد بالبهنسا في مصر، ونشأ في القاهرة، وسكن بدير الطين بمصر القديمة بالقاهرة، وكان يأتي من دربها بالقرافة فنسب إليها، ومات بدير الطين سنة ٦٨٤ هـ.

جمع بين العلوم النقلية والعقلية، وتخرج عليه كثيرون، وصنف الكتب المفيدة التي تدل على رسوخه وفضله وإتقانه، وهي تزيد عن العشرين في الفقه وأصول الفقه والكلام والنحو، منها: «الذخيرة» كأعظم كتاب فقه في المذهب المالكي، و«الفروق» في القواعد الفقهية، و«شرح تنقيح الأصول» و«شرح المحصول» للرازي في أصول الفقه.

وكان أحسن من ألقى الدروس، ورزق حسن التأليف، ولازم الشيخ عز الدين بن عبد السلام زمناً طويلاً، وأخذ عنه أكثر فنونه، وخاصة في التدريس، والتأليف في القواعد[1].

٨ ـ عبد الوهاب بن الحسين بن عبد الوهاب المهلّبي البَهْنسي:

وجيه الدين، قاضي القضاة، أخذ عن العز بن عبد السلام، وصار إماماً كبيراً في الفقه، وقال ابن السبكي: كان فقيهاً أصولياً نحوياً متعبداً، ولي قضاء الديار المصرية في مصر والقاهرة والوجه البحري والوجه القبلي، وأخذ منه بعضها، وبقي حاكماً بمصر والوجه القبلي حتى توفي سنة ٦٨٥ هـ، وقيل ٦٨٦ هـ، ولم يذكره الدكتور الفقير في تلاميذ العز[2].

---

(١) انظر: الديباج المذهب ص ٦٢، شجرة النور ص ١٨٨، الفتح المبين ٢/٨٦، حسن المحاضرة ١/٣١٦، الأعلام للزركلي ١/٩٠، مرجع العلوم الإسلامية ص ٥٩٠.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٣١٧، طبقات الشافعية، للإسنوي ١/١٣٥، حسن المحاضرة ١/٤١٩، ٢/١٦٧، بغية الوعاة ٢/١٢٣، شذرات الذهب ٥/٣٩٦.

٩ ـ سرد أشهر تلاميذ العز:

اكتفينا بالترجمة المختصرة لتلاميذ العز الأعلام السابقين، ونَسْرد هنا أهم التلاميذ المشهورين والمذكورين في كتب التراجم والتاريخ لمجرد الاطلاع، وبالترتيب الأبجدي:

١ ـ أحمد بن أحمد بن نعمة بن أحمد الخطيب، **أبو العباس النابلسي المقدسي خطيب دمشق** ٦٩٤ هـ.

٢ ـ أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الكندي، **جلال الدين الدشناوي** ٦٧٧ هـ.

٣ ـ أحمد بن فرح بن أحمد الأشبيلي المحدث، **أبو العباس اللخمي** ٦٩٩ هـ.

٤ ـ أحمد بن محمد بن الحسن بن محمد، المعروف **بابن القماز الأندلسي** ٦٩٣ هـ.

٥ ـ أحمد بن محمد بن منصور الجذامي، **ناصر الدين بن المُنيِّر الإسكندراني** ٦٨٣ هـ.

٦ ـ أحمد بن محسن بن ملي ٦٩٩ هـ.

٧ ـ أبو أحمد بن أبي بكر بن مسافر، **الشهير بابن زيتون** ٦٩١ هـ.

٨ ـ عبد العزيز بن أحمد بن عثمان **الهكاري** ٧٢٧ هـ.

٩ ـ عبد الله بن محمد بن علي الفهري، **شرف الدين التلمساني** ٦٤٤ هـ.

١٠ ـ عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن بن شرف، **الحافظ شرف الدين الدمياطي** ٧٠٥ هـ.

١١ ـ عثمان بن بنت أبي سعد ٧١٩ هـ.

١٢ ـ عثمان بن عبد الكريم **الصِّنْهاجي التزمتني** ٦٧٤ هـ.

١٣ ـ علي بن محمد بن عبد الرحمن، **أبو الحسن الباجي** ٧١٤ هـ.

١٤ ـ علي بن محمد بن منصور بن أبي القاسم زيد الدين بن المنير ٦٩٥ هـ.
١٥ ـ عمر بن أحمد بن طراد الخزرجي السويداوي، سراج الدين خطيب المدينة المنورة ٧٢٦ هـ.
١٦ ـ عمر بن مكي بن عبد الصمد بن المرحِّل ٦٩١ هـ.
١٧ ـ المبارك بن يحيى بن أبي الحسن بن أبي القاسم، نصر الدين بن الطباخ ٦٦٧ هـ.
١٨ ـ محمد بن سليمان بن سومر الزواوي ٧١٩ هـ.
١٩ ـ محمد بن موسى أبو عبد الله بن النعمان ٦٨٣ هـ.
٢٠ ـ محمد بن يوسف بن موسى بن يوسف بن مسدّي المهلبي المالكي ٦٦٣ هـ.
٢١ ـ منصور بن أحمد بن عبد الحق المشذالي المالكي ٧٣١ هـ.
٢٢ ـ موهوب بن عمر بن موهوب بن إبراهيم الجَزَري ٦٦٥ هـ.
٢٣ ـ هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم بن هبة الله شرف الدين بن البازِري ٧٣٨ هـ.
٢٤ ـ هبة الله بن عبد الله القفطي ٦٩٧ هـ.
٢٥ ـ يحيى بن عبد العظيم الجزار ٦٧٩ هـ[1].

العز شعار للمدرسة الإسلامية:

ونختم كلامنا عن إنتاج العز وتلاميذه بأن تلاميذ العز لم يقفوا عند من درّسهم مباشرة، ولا تزال الأجيال تتلمذ على كتب العز وسمعته وسيرته وشهرته ومواقفه، وأن العز تأثر بشيوخه والسلف الصالح من المسلمين العلماء والدعاة ثم أثر في تلاميذه، لكنه اشتهر أكثر من غيره، فكان بارزاً

---

(١) انظر ترجمة مختصرة مع التعريف لكل منهم في كتاب «الإمام العز» للدكتور الفقير ص ٢٧٤ وما بعدها.

في سلوكه، شامخاً في مواقفه، ملتزمـاً بمبادئه،فصار رمزاً وشعاراً لهذه المدرسة الإسلامية العتيدة.

وقلنا سابقاً إن العز يمثل مدرسة معنوية، وهو رمز لهذه المدرسة، ونضيف هنا أن العز رحمه الله تعالى أحيى هذه المدرسة الإسلامية في عصره، هذه المدرسة التي يرعاها الإسلام، ويغذيها القرآن، وفتح أبوابها رسول الله ﷺ، وتقوم على طلب العلم للعلم، وحسن القصد في أخذه وإعطائه، والنزاهة في ممارسته وتطبيقه، والإخلاص لله تعالى في بيانه، مع قوة الشخصية، والشجاعة في الجنان، والجرأة في الحق، والحرية في التفكير، والاعتزاز بالله وبرسوله، فهي مدرسة الأتقياء والورعين، والأولياء والمخلصين، وقد برزت آثارها في حياة العز، وتأثر بها تلامذته، وتمثلت في حياتهم، وغطّت سيرتهم، وتعتمد على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والوقوف عند حدود الشرع، والصلابة في الدين، والنطق بالحق، وألا يخشى المنتسب إليها في الله لومة لائم.

وهذا يؤكد لنا وجوب اليقظة في علماء الأمة، ويبين لنا مكانتهم في الإصلاح الاجتماعي، والدفاع عن حقوق الشعب، وأن العلماء هم الركيزة الأساسية مع الحكام، في كل زمان ومكان، لإنقاذ الأمة من وهدتها وسباتها، ورفعها من انحطاطها أو تخاذلها أو تأخرها.

الفَصْل السَّادِس
مَوَاقِفُ العِزِّ الخَالِدَة

المواقف في الحياة:

إن مواقف الإنسان في الحياة تمتزج فيها السيرة الشخصية والحياة العلمية معاً، وقد آثرنا بيان مواقف العز الخالدة في الباب الأول؛ لأننا نرى أن مواقفه لصيقة بشخصه أكثر من علمه، وأن المواقف في أصلها تنبع من الجوانب الشخصية، ولكنها ترتفع مع نبل الغاية، وسمو المقصد، والمنزلة العلمية، وصلتها بالدين والشرع ورضاء الله تعالى.

وكثيراً ما يقاس الناس بالعلم، أو الذكاء، أو العبقرية، أو المال، أو الجاه والسلطان، أو المناصب، وهي معايير شائعة وصحيحة إلى حد ما.

ولكن المعيار الأهم لقياس الرجال هو الموقف الذي يصنعه الرجل في جميع المستويات، ومهما كانت الأزمنة والأمكنة والمناسبات، فالرجل كل الرجلَ في البيت مثلاً يتحدد كيانه بناء على مواقفه، وإن زاد علمه أو قلّ، وكثر ماله أو نقص، وعلا سلطانه وجاهه أو نزل، وتعددت مناصبه أو ضمرت، وبمثل ذلك يتميز الرجال في العمل، والسفر، والسياسة، والحرب، والبناء، والإصلاح، والتعليم...

فالرجل كل الرجل يظهر بمواقفه في الحياة والعمل، وكثيراً ما يفنى المال، ويذهب العلم، ويزول المنصب والجاه، ولكن تخلد المواقف، ويضرب بها المثل.

والعز بن عبد السلام لم يتفوق على غيره بالعلم، فقد توفر عدد من العلماء أكثر منه علماً وفهماً لمقاصد الشريعة، ولم يتفوق بمناصبه وقضائه، ولم يشتهر بكثرة تلاميذه وأتباعه، ولكن مواقفه الحاسمة صنعت منه بطلاً ومثلاً أعلى طوال الدهر.

فالعز رجل، رجل، رجل، إنه رجل بكل ما في الكلمة من معنى، إنه رجل تفتخر الأجيال به، وتتباهى الأمم والأوطان بمثله، إنه رجل بمواقفه، لأن الرجل الحقيقي ليس بقوة عضلاته المفتولة، ولا بضخامة جسمه، ولا بنفاذ عقله وفكره، ولا بسعة علمه، ولا بفصاحة لسانه، ولا بتصنيف الكتب والمجلدات، ولا باتصافه بمختلف الصفات والسمات والمزايا والأخلاق، بل الرجل كل الرجل بمواقفه الخالدة، وجولاته المشهودة، التي تهتز لها العروش، ويهابها الملوك، ويرتجف أمامها القادة والأبطال، ويخشاها المتجبرون، ويحترمها العلماء، ويقف أمامها العامة بإجلال وإكبار، ويسطرها التاريخ بأحرف من نور، ويسجل أصحابها في عداد الخالدين، ليكون أحدهم المثل المحتذى، ويبقى حياً في ضمير الأمة، مهما تقادمت العهود، واختلفت الثقافات، وتعددت الآراء والميول.

هذا الرجل بهذا المعنى هو الذي يندر في الأمم، ويبخل الزمان بمثله إلا أحياناً، ولا تجود الأيام به إلا على فترات.

هذا الرجل بهذه المعاني الكاملة يتمثلُ في مواقف العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى، وهي مواقف كثيرة وحاسمة وخالدة، ونكتفي بعدد منها.

١ ـ الفتنة في تفسير كلام الله تعالى:

تمثل هذه القضية أول مواقف العز بن عبد السلام بدمشق، وصدامه مع الملك الأشرف موسى بن الملك العادل بن أيوب، وكان العز قد ذاع

صيته، واشتهر علمه، وظهرت شخصيته في الحياة العلميـة، وعلى المستوى الرسمي والشعبي، فوقعت له هذه الفتنة، فوقف منها موقف الرجل الجريء الصابر، حتى تحقق له النصر والثبات في النهاية.

وكان العز بن عبد السلام على مذهب أبي الحسن الأشعري وأهل السنة والجماعة في العقيدة وصفات الله تعالى، ومنها صفة الكلام، ويقول: «إن كلام الله تعالى معنى قائم بذاته، قديم أزلي، وليس بحرف ولا صوت» خلافاً لبعض الحنابلة الذين يُعرفون بالحَشْوية، ويقولون بالتجسيم، أي تجسيم صفات الله تعالى، وكثيراً ما تقع المناظرات والخلافات والفتن بسبب ذلك.

وكان الملك الأشرف يميل إلى الحنابلة والمحدثين، وأنشأ لهم دار حديث حسنة، وكان يميل إلى آرائهم، ويستمـع إليهم، فاستغلوا ذلك وأوغروا صدره على العز حقداً وحسداً، فوقعت الواقعة التي علا فيها الحق، وانتصر العز، وبرزت شخصيته وحيداً في الساحة.

وأحداث الفتنة طويلة، واستوعبها ابن السبكي بشكل مفصل، وبنقل مباشر عن الشيخ عبد اللطيف بن الشيخ عز الدين[1]، ونحن نذكرها باختصار وتصرف، ونبين مراحلها، وأهم النقاط التي تبرز شخصية العز، والنتائج التي تحققت.

لما وصل إلى الملك الأشرف ما عليه الشيخ عز الدين من القيام لله

---

(١) لم يحدد ابن السبكي وغيره تاريخ وقوع هذه الفتنة، ولكنها حدثت قبل سنة ٦٣٥ هـ، وهي السنة التي توفي فيها الأشرف.
انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٨ ـ ٢٤١، وأشار إلى الفتنة باختصار الذهبي في (سير أعلام النبلاء ٢٢/١٢٦) والكتبي في (فوات الوفيات ١/٥٩٦)، وانظر: عصر سلاطين المماليك ٣/١٧٩.
ثم تناقلها المؤلفون والمصنفون، وكتّاب سيرة العز بن عبد السلام، والناقلون لأخباره ومواقفه وشخصيته.

والعلم والدين، وأنه سيد أهل عصره، وحُجّة الله على خلقه، **أحبَّه وصار يلهج بذكره**، ويؤثر الاجتماع به، والشيخ لا يجيب إلى الاجتماع.

وكانت طائفة من **مبتدعة الحنابلة** القائلين بالحَرْف والصوت، ممن صحبهم السلطان في صغره، يكرهون الشيخ عز الدين، ويطعنون فيه، وقرروا في ذهن السلطان الأشرف أن رأيهم هو اعتقاد السلف، وأنه اعتقاد أحمد بن حنبل وفضائل أصحابه، واختلط هذا بلحم السلطان ودمه، وصار يعتقد أن **مخالف ذلك كافر، حلال الدم**.

فلما أخذ السلطان في الميل إلى الشيخ عز الدين **دَسَّت هذه الطائفة إليه**، وقالوا: إنَّه أشعري العقيدة، يُخطِّىء من يعتقد الحرف والصوت، ويبدِّعه، **فاستهال ذلك السلطان واستعظمه**، ونسبهم إلى التعصب عليه، فكتبوا فتيا في مسألة الكلام، وأوصلوها إليه مريدين أن يكتب عليها، **فيسقط موضِعُه عند السلطان**.

وكان الشيخ العز قد وصله كل ذلك، فلما جاءته الفتيا قال: **هذه الفتيا كتبت امتحاناً لي، والله لا كتبت فيها إلا الحقَّ**، فكتب **«العقيدة المشهورة»**، ومما جاء فيها:

«الحمد لله ذي العزة والجلال، والقدرة والكمال، والإنعام والإفضال، الواحد الأحد، الفرد الصمد. . . ، حيٌّ مريد، سميع، بصير، عليم، قدير، **متكلّم بكلام قديم أزلي، ليس بحرف ولا صوت**، ولا يُتصور في كلامه أن ينقلب مِداداً في الألواح والأوراق، شكلاً تَرْمُقه العيون والأحداق، **كما زعم أهل الحَشْو والنفاق**، بل الكتابة من أفعال العباد، ولا يتصور في أفعالهم أن تكون قديمة، ويجب احترامُها لدلالتها على كلامه، كما يجب احترام أسمائه لدلالتها على ذاته، وحُقَّ لما دلَّ عليه وانتسب إليه أن يُعتقد عظمته، وتُرعى حرمته. . . ، **فويل لمن زعم أن كلامَ الله القديم شيء من ألفاظ العباد، أو رسم من أشكال المداد**».

«واعتقاد الأشعري رحمه الله مشتمل على ما دلَّت عليه أسماء الله التسعة والتسعون، التي سمَّى الله بها نفسه في كتابه وسنـة رسول الله ﷺ. . .».

«ولا يخرج عن هذا الاعتقاد مَلَك مقرَّب، ولا نبي مرسل، ولا أحد من أهل المِلَل، إلا من خذله الله فاتَّبع هواه، وعصى مَوْلاه، أولئك قوم قد غَمرهم ذلُّ الحجاب وطُرِدوا عن الباب، وبَعُدوا عن ذلك الجَناب، وحُقَّ لمن حُجب في الدنيا عن إجلاله ومعرفته، أن يُحجب في الآخرة عن إكرامه ورؤيته. . .».

«والحَشْويّة المُشَبِّهة الذين يشبهون الله بخلْقه ضربان، أحدهما: لا يتحاشى من إظهار الحَشْو ﴿ويحسبون أنهم على شيء، ألا إنهم هم الكاذبون﴾ المجادلة/٨، والآخر يتستر بمذهب السَّلَف، لسُحْتٍ يأكله، أو حُطام يأخذه. . .».

«ومذهب السَّلف إنما هو التوحيد والتنزيه، دون التَجسيم والتشبيه، ولذلك جميعُ المبتدعة يزعمون أنهم على مذهب السَّلف. . .».

«والعلماء ورثة الأنبياء، فيجب عليهم من البيان ما وجب على الأنبياء. . .».

«ومن أنكر المنكرات التجسيم والتشبيه ومن أفضل المعروف التوحيد والتنزيه. . . ، لقد تشمَّر السلف للبدع لما ظهرت، فقمعوها أتم القمْع، ورَدَعوا أهلَها أشد الرَدْع، فردّوا على القَدَرية والجَهْمية والجَبْرية، وغيرهم من أهل البِدَع، فجاهدوا في الله حقَّ جهاده».

«والجهاد ضربان: ضرب بـالجَدَل والبَيـان، وضرب بـالسيف والسنان، فليت شِعْري فما الفرق بين مُجادلة الحَشْوية، وغيرهم من أهل الـبِدَع! . . . ولم تزل هذه الطائفة المبتدعة قد ضربت عليهم الذلة أينما ثُقِفُوا: ﴿كلما أوقَدُوا ناراً للحرْب أطْفأها الله، ويَسْعون في الأرض فَساداً،

والله لا يحبّ المفسدين﴾ المائدة/٦٤، لا تلوح لهم فُرْصة إلا طاروا إليها، ولا فتنة إلا أكبُّوا عليها، **وأحمد بن حنبل وفضلاء أصحابه وسائر علماء السَّلف بُرَآء إلى الله مما نسبوه إليهم، واختلقوه عليهم...**».

«والعجب ممن يقول: القرآن مركّب من حرف وصوت، ثم يزعم أنه في المصحف، وليس في المصحف إلا حرف مجرَّد لا صوتَ معه... فلا أكثر الله في المسلمين من أهل البِدع والأهواء، والإضلال والإغواء».

«**ومن قال بأن الوصف القديم حالٌّ في المصحف، لزمه إذا احترق المصحف** أن يقول بأن وصف الله القديم احترق، سبحانه وتعالى عما يقولون عُلُواً كبيراً، ومن شأن القديم أن لا يلحقَه تغيُّرٌ ولا عَدَم، فإن ذلك مناف للقِدم».

«فإن زعمُوا أن **القرآن مكتوب في المصحف، غيرُ حالٍّ فيه، كما يقول الأشعريّ**، فلِمَ يطعنون الأشعري رحمه الله؟...».

«فيا خيبة من رَدَّ شاهداً قبله الله، وأسقط دليلاً نصبه الله، فهم يرجعون إلى المنقول، **فلذلك استدللنا بالمنقول، وتركنا المعقول كميناً**، إن احتجنا إليه أبرزناه، وإن لم نحتج إليه أخّرناه...».

«والكلام في مثل هذا يطول، ولولا ما وَجَب على العلماء من إعزاز الدِّين، وإخماد المبتدعين، **وما طوَّلت به الحَشْوية ألسنتَهم في هذا الزمان** من الطعن في أعراض الموحِّدين، والازدراء على كلام المنزهين، لما أطلت النفس في مثل هذا مع إيضاحه».

«ولكنْ قد أمرنا الله بالجهاد في نُصْرة دينه، إلا أن **سلاح العالم علمُه ولسانه**، كما أن سلاح الملك سَيْفه وسِنانه، فكما لا يجوز للملوك إغماد أسلحتهم عن الملحدين والمشركين، **لا يجوز للعلماء إغماد ألسنتهم عن الزائغين والمبتدعين**، فمن ناضل عن الله، وأظهر ديـن الله كان **جديراً أن**

يحرسه الله بعينه التي لا تنام، ويُعزّه بعزّه الذي لا يُضام، ويحوطه بركْنِه الذي لا يُرام، ويحفظه من جميع الأنام، ﴿ولو يَشاء الله لانتصر منهم، ولكن ليبلُوَ بعضكم ببعضٍ﴾ سورة محمد/٤، وما زال المنزِّهون والموحدون يُفْتون بذلك على رؤوس الأشهاد في المحافِل والمشاهِد، ويجهرون به في المدارس والمساجِد، وبدْعة الحَشْويّة كامنة خفية، لا يتمكنون من المجاهرة بها، بل يدسُّونها إلى جَهَلة العوام، وقد جهروا بها في هذا الأوان، فنسأل الله تعالى أن يعجِّل بإخمادها كعادته، ويقضي بإذلالها على ما سَبق من سنته، وعلى طريق المنزِّهين والموحدين دَرَج الخلف والسّلف، رضي الله عنهم أجمعين. . .».

«وعلى الجملة ينبغي لكل عالم إذا أُذِلَّ الحق، وأخمِلَ الصواب، أن يبذل جُهده في نصْرهما، وأن يجعل نفسه بالذل والخمول أولى منهما، وإن عزَّ الحق فظهر الصواب أن يستظل بظلهما، وأن يكتفي باليسير من رشاش غيرهما. . .».

«والمخاطرة بالنفوس مشروعة في إعزاز الدين، . . . وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونصرة قواعد الدين بالحجج والبراهين مشروعة، فمن خشي على نفسه سقط عنه الوجوب وبقي الاستحباب، ومن قال بأن التغرير بالنفوس لا يجوز، فقد بَعُد عن الحق، ونأى عن الصواب».

«وعلى الجملة، فمن آثر الله على نفسه آثره الله، ومن طلب رضا الله بما يُسْخِط الناسَ رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس، ومن طلب رضا الناس بما يُسخط الله سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس، وفي رضا الله كفاية عن رضا كل أحد،

فليتَكَ تحلو والحياة مريرة   وليتك تَرْضى والأنامُ غِضابُ»

«. . . اللهم فانصر الحقَ، وأظهر الصواب، وأبرم لهذه الأمة أمراً

رَشَـداً، تُعِزُّ فيه وليَّك، ويَذلّ فيه عدوُّك، ويُعمَل فيه بطاعتك، ويُنهَى فيه عن معصيتك».

«والحمد لله الذي إليه استنادي، وعليه اعتمادي، وهو حسبي ونعم الوكيل، وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلم»(١).

قال ولده الشيخ شرف الدين عبد اللطيف: فلما فرغ من كتابة ما رامُوه رَماه إليهم، وهو يضحك عليهم، فطاروا بالجواب، وهم يعتقدون أن الحصول على ذلك من الفرص العظيمة التي ظفروا بها، **ويقطعون بهلاكه واستئصاله واستباحة دمه وماله**، فأوصلوا الفتيا إلى الملك الأشرف رحمه الله، وذلك في حفلة الإفطار في رمضان بالقلعة، وعنده عامة الفقهاء من جميع الأقطار، فلما وقف عليها استشاط غضباً، وقال: صح عندي ما قالوه عنه، **وهذا رجل كنا نعتقد أنه مُتوحِّد في زمانه في العلم والدِّين، فظهر** بعد الاختبار **أنه من الفجّار، لا بل من الكفار**، ولم يستطع أحد أن يرد عليه، وقال أقواهم شكيمة: السلطان أولى بالعفو والصفح، ولا سيّما في مثل هذا الشهر، وموّه آخرون بكلام موجَّه يوهم صحة مذهب المبتدعة، وأنهم أفتوا بموافقته، وانتشر الخبر في البلد، واشتغل الناس بما جرى، حتى أقام الحق الشيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب، ومضى إلى القضاة والعلماء الأعيان الذين حضروا عند السلطان، وشدّد عليهم النكير، وما فيهم مَنْ نطق بالحق، وطلب منهم أن يبينوا للسلطان أن كلام الشيخ العز مذهبهم، وهو مذهب أهل الحق، فكتبوا فتيا بموافقة العز، وطلبوا أن يعقـد مجلس مناظـرة بين العز وخصـومه، ويحضـر أهل المـذاهب الأربعة، وأن العلماء لم يمكنهم الكلام بمجلس السلطان لغضبه وما ظهر من حدّته في ذلك المجلس، وقالوا للسلطان: الذي نعتقده في السلطان أنه إذا ظهر له الحق يرجع إليه، وأنه يعاقب من موّه الباطل عليه، وهو أولى

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٢٩.

الناس بموافقة والد السلطان الملك العادل، فإنه عَزَّر جماعة من أعيان الحنابلة المبتدعة تعزيراً بليغاً رادعاً، وبدَّع بهم وأهانهم[1].

ولما وصل الأمر للسلطان تراجع عن بعض موقفه، واعتدل قليلاً، ورفض الاجتماع مع الشيخ العز، وكتب له رسالة يدافع فيها عن عقيدته باتباع الخلفاء الراشدين، ويلمز بالشيخ العز في إثارة الفتنة، وادعاء الاجتهاد لمذهب خامس في العقيدة.

ولما وصلت الرسالة للشيخ العز قرأها وطواها، وشرع بالجواب بأشد منها، وأبلغ من سابقتها، ومما جاء فيها[2]:

«وأما طلب المجلس وجمع العلماء، فما حملني عليه إلا النصح للسلطان وعامة المسلمين. . .».

«والفتيا التي وقعت في هذه القضية **يوافق عليها علماء المسلمين، من الشافعية والمالكية والحنفية والفضلاء من الحنابلة**، وما يخالف في ذلك إلا رَعاع لا يعبأ الله بهم، وهو الحق الذي لا يجوز دَفْعه، والصواب الذي لا يمكن رَفْعه، ولو حضر العلماءُ مجلسَ السلطان لعلم صحة ما أقول، والسلطان أقدر الناس على تحقيق ذلك. . .».

«وليس ردّ البِدع وإبطالها من باب إثارة الفِتن، **فإن الله سبحانه أمر العلماء بذلك**، وأمرهم ببيان ما علموه، ومن امتثل أمر الله، ونصر دين الله، لا يجوز أن يلعنَه رسول الله ﷺ».

«وأما ما ذكر من أمر الاجتهاد، والمذهب الخامس، **فأصول الدين ليس فيها مذاهب**، فإن الأصل واحد، والخلاف في الفروع، ومثل هذا الكلام مما اعتمدتم فيه قولَ من لا يجوز أن يعتمد قولُه. . .».

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٢٣٠. (2) المرجع السابق ٨/ ٢٣١.

«وبعد ذلك فإنا نزعم **أنّا من جُملة حِزب الله، وأنصار دينه وجنده،** وكل جندي لا يُخاطر بنفسه فليس بجندي»[1].

وكان العز يكتب الرسالة وهو مسترسل من غير توقف ولا تردد ولا تلعثم، ثم أرسلها إلى السلطان، وكان عنده أحد العلماء الفضلاء، وكان في مجلس الملك الأشرف السابق، فلما اطلع على رقعة الملك تغير لونه، وظن أن الشيخ يعجز عن الجواب، من شدة الخطاب، فلما رأى رسالة الشيخ بطل ما كان يحسبه، وقال: «لو كانت هذه الرقعة التي وصلت إليك وصلت إلى قُسّ بن ساعدة (حكيم العرب في الجاهلية) لعجز عن الجواب، وعَدِم الصواب، ولكن هذا تأييد إلهي»[2].

ولما عاد الرسول إلى السلطان، وقرأ الرسالة، اشتدت استشاطته، وعظم غضبه، وتيقن المبتدعة تلف الشيخ وعطبه، واستدعى أستاذ الدار، وحمّله رسالة إلى الشيخ، وفيها «إنا قد شرطنا عليه ثلاثة شروط: أنه لا يفتي، ولا يجتمع بأحد، ويلزم بيته»[3].

وسرّ الشيخ العز بالرسالة، ولزم بيته، وبقي ثلاثة أيام، حتى قام الشيخ العلامة جمال الدين الحصيري، شيخ الحنفية في زمانه، الذي جمع بين العلم والعمل، وكان له مكانة عالية عند الملك، فدخل عليه وبين له فضل الشيخ العز، وصحة ما يقول، وهو اعتقاد المسلمين، وشعار الصالحين، ويقين المؤمنين، وكل ما قاله صحيح في الرسالتين.

وهنا عاد السلطان إلى صوابه، وكشف الله عن بصيرته، وأدرك الفتنة التي حركها المبتدعة، وقال: نحن نستغفر الله مما جرى، ونستدرك الفارط في حقه، **والله لأجعلنه أغنى العلماء،** وأرسل إلى الشيخ واسترضاه،

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٣٣.
(٢) المرجع السابق ٨/٢٣٤.
(٣) المرجع السابق.

وطلب محالَلَته ومخالَلَته[1]، وطلب من الفريقين الإمساك عن مسألة الكلام، وألا يفتي فيها أحد بشيء.

ولما وصل الملك الكامل من الديار المصرية، وكان قد سمع ما جرى في دمشق، فرام الاجتماع بالشيخ العز، واعتذر إليه، وأمره أن يكتب ما جرى في هذه القضية مستقصى، ولما اجتمع بالملك الأشرف عنّفه على موقفه في المنع من الكلام في المسألة، وقال له: «تُساوي بين أهل الحق والباطل؟ وتمنع أهلٍ الحق من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. . .، وكان الطريق أن تمكّن أهل السنة من أن يلحَنوا بحججهم، وأن يظهروا دين الله. . .، وأن تمكن الموحدين من إرشاد المسلمين، وأن يبينوا طريق المؤمنين»[2].

قال ابن السبكي: «فعند ذلك ذلَّت رقاب المبتدعة، وانقلبوا خائبين، وعادوا خاسئين. . .، وانقشعت المسألة للسلطان الملك الأشرف، وصرّح بخجله وحيائه من الشيخ، وقال: لقد غلطنا في حق ابن عبد السلام غلطة عظيمة، وصار يترضاه، ويعمل بفتاويه، وما أفتاه، ويطلب أن يقُرأ عليه تصانيفه الصغار»[3].

وكانت هذه الفتنة هي الوقعة الأولى للعز مع السلطان، فقبل التحدي والنزال، وكشف الحق، وأماط اللثام عن الباطل وأهله، بصراحة وبيان، دون مواربة أو وجل، وحدد موقف العلماء بالبيان والدعوة والجهاد باللسان وإخلاص العمل لله، والسعي لمرضاته، ولو سخط الناس، والتزم ذلك بنفسه، وطبقه في رسالته، ولم يستسلم من الجولة الأولى حتى تحقق له النصر، وكانت حلبة الصراع بين الحق الذي يمثله العز العالم، الضعيف جانبه، القوي بإيمانه، وبين السلطان الأشرف القوي بسلطته

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٣٧.
(٢) المرجع السابق ٨/٢٣٨.
(٣) المرجع السابق ٨/٢٣٨ ـ ٢٣٩.

وجبروته، وحَمَّسه أصحاب الأهواء والفتنة، وجبن معه أكثر العلماء وعامة الناس، ووقفوا بعواطفهم مع الملك القوي ذي السلطان، كما يحدث في كل عصر، فلما انتصر العز، وقوي جانبه، وظهر الحق، وقف معه العلماء والفقهاء وجميع الناس، وعلا جاه العز، وارتفعت مكانته، واشتهر أمره، وتبوأ بحق منصب «**سلطان العلماء والحكام معاً**» وارتفعت راية الحق شامخة، وولى الباطل مهزوماً، والفتنة خامدة، وقد أطفىء نارها، وخبا أوارها، ﴿فأمَّا الزَّبدُ فيذهبُ جُفَاءً، وأما ما يَنْفعُ النَّاسَ فيمكثُ في الأرْض، كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال﴾ الرعد/١٧.

وذكرنا هذه الفتنة مختصرة، وبشيء من التطويل لثلاثة أسباب:

الأول : أنها تبين للقارىء شيئاً من سيرة العز الشخصية في جرأته، وبيانه، وصموده، وتحديه، وثباته، واقتران القول مع العمل، وأنه رجل مبدأ، وأنه الناطق باسم العلماء والشرع والدين.

الثاني : أنها تظهر بعضاً من شخصية العز العلمية في الإيمان والعقيدة، وبيان مكانة العلماء، والتزامه بالقرآن والسنة، وسيرة السلف والخلفاء الراشدين، ومذاهب الأئمة الأربعة، ووجوب الأمر بالمعروف، ومحاربة البدع، والجهاد بنوعيه، والتضحية في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

الثالث : أنها كانت المواجهة الأولى بين العز والسلاطين الحكام، وفيها انتصر الحق، وتأكد حكم الله والدين، وارتفعت راية الشرع، واندحرت البدعة والفتنة، وخرج العز متوجاً بتاج الإكليل والغار، معيداً سيرة الدعاة والعلماء المجاهدين، ومحتلاً مركز الصدارة الشعبية والرسمية والفقهية، ويشار إليه بالبنان أنه شيخ الإسلام، وسلطان العلماء.

٢ ـ تحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين، وإنكار العز عليه:

لا بد ـ هنا ـ من مقدمة تربط بين الأحداث، فالملك الكامل جاء من مصر، وانتزع سلطنة دمشق من أخيه الملك الأشرف، وأكرم الشيخ العز، وأوصى به خيراً، وحل الودّ والصفاء بين الشيخ العز والملك الأشرف الذي استطاع أن ينفرد بسلطان دمشق من جديد، ومرض بعد ذلك، وكان يطالب العز بالزيارة والنصح والدعاء، فأشار عليه العز بإبطال المنكرات، ورد المظالم، وتطبيق الشرع، والالتزام بالقرآن والسنة، فأمر السلطان المريض أخاه إسماعيل الذي يتولى السلطنة بالنيابة بتنفيذ ما أمر به الشيخ العز، وإبطال ما يرى إبطاله، ثم توفي الملك الأشرف سنة **٦٣٥** هـ، وخلفه أخوه الملك الصالح إسماعيل.

ولم يكن الصالح إسماعيل على وفاق مع الشيخ العز منذ حياة أخيه الأشرف، فإنه كان يعتقد كأخيه بالحرف والصوت على رأي الحَشْوية، ولما رجع الأشرف عن هذا الاعتقاد الخاطىء، لم يثبت ما يدل على أن الصالح إسماعيل فعل مثله، فكان الصالح إسماعيل سيء الظن بالشيخ العز، ولكنه لم يجرأ على عزله من خطابة جامع دمشق، أو الإساءة إليه لما رآه من تكريم الأشرف والملك الكامل للشيخ، وإكبارهما إياه، ولما يتمتع به الشيخ العز من مكانة مرموقة في المجتمع، وثقة وحب من جمهور المسلمين.

وزاد الأمر سوءاً أن الملك الكامل عندما زار الشيخ العز، وتودد إليه، وأكرمه، وقرّبه أمام أخيه إسماعيل، استفتاه قائلاً: «إن هذا (مشيراً إلى الصالح إسماعيل) له غرام برمي البندق، فهل يجوز ذلك؟ فقال العز: بل يحرم عليه، فإن رسول الله ﷺ نهى عنه وقال: «إنه يَفقأ العين، ويكسر العظم»، فأعلن الشيخ الحكم الشرعي، ولو خالف رغبة وهوى الصالح، ولم يوار، أو يجامل في دين الله لإرضاء نائب السلطان، فالمهم عنده رضى الله ولو سخط الناس، كما صرح بكتابه السابق في «الاعتقاد».

ويظهر أن الجو لم يكن ودِّياً بين الصالح والعز، ولذلك لما أمر الأشرف نائبه وأخاه الصالح إسماعيل بإبطال المنكرات التي أشار إليها العز نفذ بعضها، وأغفل بعضاً آخر، وتجاهل العز هذه التصرفات، ولم يغير من موقفه الناصح المتزن، والداعية الحكيم، إلى أن حدث تطور في مصر، فتوفي الملك الكامل محمد، وحصل نزاع على خلافته، وانتهت السلطة إلى ابنه الأكبر نجم الدين أيوب، الذي كان قوياً شرساً، مهيباً، جباراً، بطاشاً مع صلاح وتقوى، وبعد أن استقر له الأمر في مصر اتجه إلى الشام، وعزم على ضمها إلى ملكه، لأنها في الأصل ملك والده الملك الكامل.

وهنا تبدأ القضية، لأن الملك الصالح إسماعيل ارتجفت أوصاله، وضاقت عليه الأرض بما رحبت من تهديد الملك الصالح نجم الدين، قال ابن السبكي: «فخاف منه الصالح إسماعيل خوفاً منعه المنام، والطعام والشراب»[1]، وطاش عقله، وخاب رأيه وجبن قلبه، فلم يلجأ إلى المواجهة والمنازلة مع ابن أخيه الصالح نجم الدين، ولم يسع إلى المصالحة والمهادنة، وإنما التجأ إلى أعداء الله والدين والشعب والأمة، المحتلين المستعمرين من الفرنج الصليبيين فاصطلح معهم، وتحالف مع الفرنج لينجدوه على الملك الصالح نجم الدين، ويساعدوه عليه، وسلّم إليهم لقاء ذلك صيدا، والشقيف، وصفد[2]، وغير ذلك من حصون المسلمين، وذلك سنة ٦٣٨ هـ، وزيادة على ذلك أذن الصالح إسماعيل للصليبيين بدخول دمشق لشراء السلاح لقتال المسلمين في مصر.

وهذه خيانة عظمى، واستسلام ذليل، وخروج عن الدين والشرع، وجاء دور الشيخ العز الذي يغضب لله، وينتصر لدينه، ويدافع عن أرض

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٣.
(٢) كانت هذه القلاع بيد الفرنج الصليبيين، وتحررت منهم سنة ٥٨٤ هـ، ثم سنة ٥٨٦ هـ، (انظر: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٩٥، ١١٥).

الإسلام، وحقوق المسلمين، ويجاهر بالنهي عن المنكر، لا يخشى في الله لومة لائم، وتصدى كالأسد الهصور للمواجهة والنزال، وشق عليه ما حصل مشقة عظيمة.

وبدأت الجولة الأولى باستفتاء الشيخ العز في مبايعة الفرنج للسلاح، فقال: يَحْرم عليكم مبايعتهم، لأنكم تتحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين.

ثم صعد الشيخ العز منبر المسجد الأموي الكبير، وذمَّ موالاة الأعداء، وقبّح الخيانة، وذمَّ الأعمال المشينة التي حصلت، وشنّع على السلطان، وقطع الدعاء له بالخطبة، وصار يدعو أمام الجماهير بما يوحي بخلعه واستبداله، ويقول: «اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً رَشَداً، تُعِزّ فيه وليَّك، وتذل فيه عدوك، ويُعمَل فيه بطاعتك، ويُنهى فيه عن معصيتك، والناس يبتهلون بالتأمين والدعاء للمسلمين، والنصر على أعداء الله الملحدين»[1].

وكان الملك الصالح إسماعيل خارج دمشق، فلما وصله الخبر أحسَّ بالخطر الذي يحدق به، والثورة المتوقعة عليه، فسارع إلى إصدار الأمر الكتابي بعزل الشيخ العز من الخطابة والإفتاء، وأمر باعتقاله، واعتقال الشيخ ابن الحاجب المالكي الذي شاركه في الإنكار على فعل السلطان ولما قدم إسماعيل إلى دمشق أفرج عنهما، وألزم الشيخ العز بملازمة داره، وألا يفتي[2].

وتلقى العز العزل راضياً مرضياً، مستعداً بالتضحية في سبيل إعزاز دين الله، وبيان حكم الشرع، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر،

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٣، العز، للندوي ص ١٣٦ وما بعدها، عز الدين، محمد حسن عبد الله ص ٩١ وما بعدها.
(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٣.

والصدع بالحق، والجهر بالواجب مهما كانت العواقب، ولكنه ضاق بالإقامة الجبرية، وتعطيل العمل المسؤول عنه شرعاً، فقرر مغادرة دمشق، والهجرة إلى أرض الله الواسعة، يجد فيها الظروف المواتية، ويعلن فيها كلمة الله تعالى، فاتجه إلى مصر عن طريق القدس، سنة ٦٣٨ هـ، وهو مرفوع الرأس، عالي الجبين، أبيض الناصية، يحظى برعاية الله تعالى ورضاه، وقد صدع بالحق، ونطق بالصدق، وناله ما ناله، فازداد محبة، وثقة، وكان مثالاً لرجل الدعوة والعقيدة والإيمان، وقد ظفر بوسام الشرف، وربح الجولة، واستعد للجولة التالية.

٣ ـ العز يرفض المساومة، ولو قبَّل السلطانُ يدَه:

إن طريق الحق سليم وقويم ومستقيم، ويسير فيه صاحبه بثقة وأمان واطمئنان، وطريق الباطل متعرج وسقيم، ويضطرب فيه أعوانه، وهذا ما حصل للعز والصالح إسماعيل بعد الجولة الأولى، فالشيخ العز اتجه إلى القدس بعزة وأمان وطمأنينة قلب ونفس، مع أنه مهاجر غريب، والصالح إسماعيل مشتت الرأي، مضطرب الفكر، مع أنه في السلطة والأبهة والجاه، ولذلك استمر في مطاردة العز في الطريق، وأراد مساومته بالتراجع عن رأيه، والاستسلام للسلطان، ليستغل فيه نقطة الضعف البشري بعد عزله، وأثناء غربته وهجرته، ليعيده إلى دمشق، ويوليه المناصب، ولكن أين الثرى من الثريا، وأين أصحاب المطامع والأهواء والمصالح الشخصية من أصحاب القيم والمبادىء والتضحيات؟

يحدثنا الشيخ عبد اللطيف بن العز باختصار عما حدث لوالده، فيقول: «وأخرج الشيخ (أي من السجن) بعد محاورات ومُراجعات، فأقام مدة بدمشق، ثم انتزح عنها إلى بيت المقدس، فوافاه الملك الناصر داود (ابن الملك المعظم عيسى أخي الملك الصالح إسماعيل) في الغور، فقطع عليه الطريق، وأخذه، فأقام عنده بنابُلس مدة، وجرت له معه خطوب، ثم انتقل إلى بيت المقدس وأقام به مدة».

«ثم جاء الصالح إسماعيل، والملك المنصور صاحب حمص، وملوكُ الفِرنج، بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس، يقصدون الدِّيار المصرية».

«فسيَّر الصالح إسماعيل بعض خَواصِّه إلى الشيخ بمنْدِيله، وقال له: تدفع مِنديلي إلى الشيخ، وتتلطف به غاية التلطف، وتستنزلَه، وتَعِدُه بالعود إلى مناصبه على أحسن حالٍ، فإن وافقك فتدخل به عليَّ، وإن خالفك فاعتقِلْه في خيمةٍ إلى جانب خيمتي».

«فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع في مُسايسته وملاينته، ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلى مناصِبك وما كنت عليه وزيادة، أن تنكسِر للسلطان، وتقبِّل يدَه لا غير».

«فقال له: يا مسكين، ما أرضاه أن يُقبل يدي، فضلا أن أقبِّل يده، يا قوم، أنتم في وادٍ، وأنا في واد، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به».

«فقال له: قد رسم لي إن لم تُوافق على ما يُطلب منك وإلا اعتقلتك، فقال: افعلوا ما بدا لكم، فأخذه، واعتقله في خيمة إلى جانب خيمة السلطان»[1].

وأراد السلطان إسماعيل أن يتبجح أمام الأعداء من الفرنج بما فعل بالشيخ، فسخروا منه، كما سبق، وقالوا له: «لو كان هذا قسِّيسَنا لغسلنا رجليه، وشربنا مَرَقها»[2].

وبقي الشيخ العز في المعتقل حتى جاءت العساكر المصرية، وحقق الله تعالى لهم النصر، وقتلوا عساكر الفرنج بالقدس، وانهزم أعوانهم، ونجّى الله

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٢٤٣/٨، حسن المحاضرة ١٦٢/٢، عصر سلاطين المماليك ١٧٨/٣ ـ ١٧٩.
(٢) المرجع السابق ٢٤٤/٨.

الشيخ العز، فتابع سيره إلى الديار المصرية[1]، مرفوع الرأس، ثابت الجنان، عزيز الجانب، واثقاً بوعد الله.

٤ ـ العز وبيع الأمراء في المزاد:

وصل الشيخ العز إلى مصر سنة **٦٣٩ هـ** بعد أن طوى كشحاً عن الشام وما لقي فيها من جولات، واعتقال وسجن، وتضييق، وعزل، وحجر عن الفتوى والناس، ولقيه في مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي يعرف مكانة العز وعلمه وتاريخه، فاستقبله استقبالاً حافلاً، وأكرمه غاية الإكرام والإجلال، وعينه في أعلى المناصب في خطابة جامع عمرو وقضاء القضاة.

ولكن هل أقبلت السعادة والراحة على الشيخ العز؟ وهل غادرته المتاعب والمشاكل؟ إن الصراع بين الخير والشر دائم في هذه الحياة الدنيا، وإن أعوان الشر لا يكلون ولا ينامون، وإن الانحراف والفساد أصيل في النفس البشرية، وإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى، وإن كرسي الوظيفة، وجاه السلطة ينفثان كثيراً من الأمراض في النفوس الضعيفة، وأنى للشيخ العز أن يسكت على ذلك؟ أو يرضى به أمام عينيه؟ وهو المسؤول الأول عن تطبيق الشرع، وتنفيذ الأحكام، وحماية الحقوق، والدفاع عن المستضعفين، وهو في منصب قاضي القضاة؟!

وقد واجه الشيخ العز ذلك في مصر، كما واجهه في الشام، بل كانت المواجهة أشد، والمعركة حامية الوطيس، والخصم عنيد وشديد.

وتبدأ القصة بأن الملك الصالح نجم الدين كان شديد المراس، صلباً، قوياً، طموحاً، وله أطماع واسعة، فأراد أن يقوي جيشه، ويصطفي قواده، ويحمي نفسه، فاشترى (من مال الدولة) المماليك الأتراك،

---

(١) المرجع السابق.

واستجلبهم من أواسط آسيا وغربها، ودربهم على الفروسية والفتوة والقتال، حتى نالوا ثقته، فاتسع نفوذهم حتى صاروا أمراء وقادة الجيش، وبلغ أحدهم أن صار نائب السلطان مباشرة.

ولما تولى الشيخ العز منصب قاضي القضاة لم يقبله لمجرد الجاه والأبهة، أو إشغال المركز والتعالي به، بل استلمه لإصلاح الأمور، وإقامة العدل، ومنع الانحراف أو الخطأ، وهنا اكتشف العز الخلل في الإدارة والسلطة، وأن القادة الأمراء لا يزالون في حكم الرق لبيت مال المسلمين، ولم يثبت عند الشيخ أنهم أحرار، وبالتالي فإن الحكم الشرعي عدم صحة ولايتهم من جهة، وعدم نفوذ تصرفاتهم الخاصة والعامة من جهة أخرى، ولم يشهر بهم الشيخ العز، ولم يرفع راية العصيان المسلح عليهم، وإنما بلّغهم ذلك أولاً، وأوقف تصرفاتهم ثانياً، «ولم يصحح لهم بيعاً، ولا شراءً، ولا نكاحاً، وتعطلت مصالحهم بذلك، وكان من جملتهم نائب السلطان»(١) فلما بلغهم ذلك عظم الخطب عليهم، واضطرب أمرهم، واستشاطوا غضباً، وثارت ثائرتهم، ولكنهم كبحوا جماح الغضب، وجاؤوا للشيخ العز بالحسنى والمساومة، واجتمعوا به للاستفسار عن مصيرهم في رأيه، فصمم على حكم الشرع وأنه يجب بيعهم لصالح بيت المال، ثم يتم عتقهم ليصبحوا أحراراً، ثم يتولوا تصريف الأمور، وقال لهم بكل وضوح وصراحة: «نعقد لكم مجلساً، ويُنادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي»(٢)، فرفضوا واستكبروا، ولم ينفردوا باتخاذ القرار بشأن الشيخ العز، فرفعوا الأمر إلى السلطان نجم الدين، فبعث إليه، وراجعه، فلم يرجع، فجرت من السلطان كلمة فيها غلظة على الشيخ العز، وحاصلها الإنكار على الشيخ في دخوله في هذا الأمر الذي لا يعنيه ولا يتعلق به.

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٦.

(٢) المرجع السابق، وانظر: العز، للندوي ص ١٤١، وحي القلم ٣/٥٥، طبقات المفسرين ١/٣١١، عصر سلاطين المماليك ١/١٩، ٣/١٨٣، الإمام العز، =

وهنا أدرك الشيخ العز أن أعوان الباطل تمالؤوا عليه، ووقفوا في وجه الحق وتطبيق الشرع، وتنفيذ الأحكام التي لا تفرق ـ في الدين ـ بين كبير وصغير، وحاكم ومحكوم، وأمير ومواطن، فلجأ إلى سلاحه الضعيف الباهت في ظاهره، القوي الفعال المدمر في حقيقته وجوهـره وسنده، وأعلن الانسحاب، وعزل نفسه عن القضاء، وقرر الرحيل عن القرية الظالم أهلها، والتي ترفض إقامة شرع الله، ونفذ العز قراره فوراً، وحمل أهله ومتاعه على حمار، وركب حماراً آخر، وخرج من القاهرة.

وما أن انتشر الخبر في الشعب والأمة المسلمة إلا وأعلنت الوقوف بجانب الحق والشيخ والشرع، والتخلي عن الحكام المستبدين، وقررت العصيان غير المسلح بالالتحاق بالعز، فلم يصل العز خارج القاهرة إلا قليلاً، حتى لحقه غالب المسلمين من العلماء والصلحاء والتجار، حتى النساء والصبيان.

وهنا دقت ساعة الصفر، ورُزق السلطان بناصح أمين قائلاً له: «أدرك ملكك، وإلا ذهب بذهاب الشيخ» فركب السلطان بنفسه، ولحق بالشيخ العز، واسترضاه، وطيب قلبه، وطلب منه الرجوع والعودة إلى القاهرة، فوافق العز على شرطه بأن يتمَّ بيع الأمراء بالمناداة عليهم، ورجع الجميع إلى القاهرة وقد انتصر الحق والعدل، وخذل الباطل والظلم.

وبعد ذلك حاول نائب السلطنة التدخل بالملاطفة، ثم بالتهديد والوعيد، ثم بمحاولة التخلص من الشيخ وقتله، فلما فشلت هذه الأسلحة الفارغة، أذعن الأمراء للأمر، واستسلموا لحكـم الشرع، وأعلن المزاد العام، ووقف العز ينادي على أمراء الدولة واحداً واحداً، ويغالي في ثمنهم، وتدخل الشعب في المزايدة، حتى إذا ارتفع السعر إلى أقصى غايته، وعجز

= للفقير ص ١١١، عز الدين، محمد حسن عبد الله ص ٩٩، من قضايا الرأي، أحمد حسين ص ١٧١، حسن المحاضرة ٢/١٦٢، فوات الوفيات ١/٥٩٥.

الأفراد عنه قام السلطان نجم الدين بدفع الثمن من ماله الخاص، ليتملك الأرقاء الأمراء، ثم أعتق رقابهم، فصاروا أحراراً، واحتفظ بهم قادة، وقبض الشيخ العز الثمن، ووضعه في بيت مال المسلمين ليصرف في شؤونهم العامة ووجوه الخير المختلفة، قال ابن السبكي: «وهذا لم يُسمع بمثله عن أحد رحمه الله تعالى ورضي عنه»(١).

ومن هنا عُرف الشيخ العز بأنه «بائع الملوك»، واشتهر أمره في الآفاق، وسجل له التاريخ موقفاً فريداً لم يشهده العالم أجمع، وعلا صوت الحق، وعزَّ العلماء، وتم تطبيق شرع الله تعالى، وهـزم الباطل، وطاشت سهام السلطة والقوة المادية، أمام سلطان الله تعالى وأحكامه، وصدق على العز حديث رسول الله ﷺ «أفضلُ الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»(٢)، وعاد العز إلى عرينه في كنف الله تعالى ورعايته، وهو القائل: ﴿إنَّ الله يدافعُ عن الذين آمنوا، إن الله لا يحب كل خوّان كفور﴾ الحج/٣٨، والقائل: ﴿والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يوسف/٢١.

٥ ـ العز يهدم قاعة المنكر، ويسقط عدالة الوزير:

إن المؤمن لا راحة له إلا بلقاء ربه، وإن الداعية أو العالم لا يكلُّ، ولا يَملُّ، ولا تنام له عين، ولا يخلد للراحة، ولا يقنع بنصر واحد، وهكذا كان الشيخ العز لم يضع سلاحه بعد هذا الانتصار الباهر في بيع الأمراء، ولم يستسلم للراحة، وقد طعن بالسن.

ولم تمض سنة على الحادثة السابقة حتى وصل إلى علمه ما فعله أستاذ

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٧.

(٢) هذا الحديث صحيح، رواه أبو داود (٢/٤٣٨ كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي) والترمذي (٦/٣٩٥ كتاب الفتن، باب أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر) وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٢/١٣٢٩، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) والإمام أحمد (٥/٢٥١) كما أخرجه الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهم (فيض القدير ٢/٣٠، الفتح الكبير ١/٢٠٨).

الدار عند السلطان، وهو ما يعادل اليوم «كبير أمناء الملك أو الرئيس»، وهو معين الدين بن شيخ الشيوخ، والذي كان يجمع إلى منصبه اختصاصات الوزير، وقائد الجيش في المعارك وفتح دمشق، لكنه كان متحللاً وعابثاً ومعتداً بقوته ومنصبه، ولذلك تجرأ على منكر كبير، يخالف أحكام الدين، ويسخر بالشرع، ويسيء إلى مشاعر المسلمين، فبنى فوق أحد مساجد القاهرة طبلخانة أي قاعة لسماع الغناء والموسيقى، وذلك سنة ٦٤٠ هـ.

وما أن ثبت ذلك عند الشيخ العز، وهو يتولى منصب قاضي القضاة، حتى غضب لله تعالى وإهانة بيت الله، وإعلان المنكر، وارتكاب الفواحش، وأصدر أمره بهدم البناء، ولكنه خشي من الجبن في التنفيد، أو المعارضة في الهدم، فقام بنفسه، وجمع معه أولاده والموظفين عنده، وذهب إلى المسجد، وحمل معوله معهم، وقاموا بإزالة المنكر، وهدم البناء المستحدث فوق المسجد.

ولم يكتف العز بهذا التحدي للوزير والسلطان معاً، بل أسقط عدالة الوزير بما يعني عدم قبول روايته وشهادته، وعزل نفسه عن القضاء، كما سبق، حتى لا يبقى تحت رحمة السلطان، وتهديده بالعزل، أو غيره.

وكان لهذا العمل دوي هائل، وأثر عجيب، وتنفس الناس الصعداء من تسلط الحكام، وارتكاب المخالفات، وممارسة التجاوزات الشرعية، ولم يجرؤ أحد أن يمس الشيخ العز بسوء، بل أدرك السلطان نجم الدين أنّ الحق مع الشيخ، وتلطف معه للعودة إلى القضاء، ولكن الشيخ أصر على ذلك.

وظن الوزير أن الحادثة غيمة صيف، سرعان أن تنقشع، وأنه لن يتأثر رسمياً وشعبياً في ذلك، وأن كلام الشيخ العز سيذهب مع الرياح، ولكن الواقع غير ذلك، وطار الخبر في الآفاق حتى وصل إلى الخليفة في بغداد، وأخذ صداه الواسع في العالم الإسلامي.

قال ابن السبكي: «واتفق أن جهّز السلطان الملك الصالح رسولاً من

عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد، فلما وصل الرسول إلى الديوان، ووقف بين يدي الخليفة، وأدى الرسالة، خرج إليه وسأله: هل سمعت هذه الرسالة من السلطان؟ فقال: لا، ولكن حملنيها عن السلطان معين الدين بن شيخ الشيوخ أستاذ داره، فقال الخليفة: إن المذكور **أسقطه ابن عبد السلام**، فنحن لا نقبل روايته، فرجع الرسول إلى السلطان (بمصر) حتى شافهه بالرسالة، ثم عاد إلى بغداد، وأدَّاها»[1].

ما أشبه اليوم بالأمس؟

نقول هذا عن سلطان العلماء في الوقت الذي يكثر فيه من تسموا في هذا العصر برجال الدين، واحتلوا المناصب العليا، فامتطى الحكام سمعتهم، واستغلوا مكانتهم، وقربوهم إليهم، وفتحوا عليهم أبواب السخاء والرفاه، ثم سخروهم لمطامعهم، وجعلوهم أبواب دعاية لهم، يسبحون بحمدهم، ويسترون عيوبهم، ويُضْفون عليهم المساحيق البراقة، ولو وقعوا في أحضـان الصهيونية، وأعداء الله تعالى، وأقاموا معهم جسور الودّ، ومعاهدات الذل والاستسلام، وسمحوا بإقامة قواعد الاحتلال والاستعمار الحديث، حتى تجرأ أحد الكتاب بأن يسميهم «كلاب الحراسة للسلاطين» يقفون بجانب الظلمة، ويدافعون عن الظالمين، ويتقربون منهم، ويطلبون رضـاءهم، ويحققون لهم أغـراضهم وأهدافهم، ثم يخضعون لأوامرهم وتوجيهاتهم، ويحتجون بالسياسة الشرعية ومجاراة الظروف، وقد حصروا الدين في بوتقة صغيرة، أذن لهم سادتهم بها،

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١١، وجاء عند ابن السبكي والسيوطي أن أستاذ الدار فخر الدين، والصواب ما ذكرناه، لأنه ورد في معظم الكتب. وانظر: العز، للندوي ص ١٤٦، الإمام العز، للفقير ص ١١٠، عز الدين، للأستاذ محمد حسن عبد الله ص ١٠٧، من قضايا الرأي، أحمد حسين ص ١٧٤، حسن المحاضرة ٢/١٦٢، فوات الوفيات ١/٥٩٥.

وفتحوا للناس نافذة ضيقة للشرع، طلبها منهم الأعداء، لتتحدد الرؤية للمسلم من خلالها.

ولم يقف كلاب الحراسة عند هذا، بل كانوا يتجرؤون على الله والشرع والدين، ليلبوا نزوات الحكام، وينفذوا مخططات الأعداء، فإن اتجه حاكم جبار ضد جماعة أسرعوا بإعلان التكفير لها، وخروجها عن الإسلام، ليسهلوا له البطش والنيل من الدين وأهله، وإن اتجه حاكم مارق إلى الربا ومؤسساته تقدموا بالفتاوى الباطلة إلى إباحة الفائدة، والمعاملات المصرفية الربوية، وشهادات الاستثمار، والادخار الربوي، واليانصيب الموسوم ـ زوراً وكذباً ـ بالخيري، وإذا اتجه حاكم عميل إلى موالاة الكفار، واستدعاء جيوشه الجرارة، وقواته الجبارة لقتل المسلمين، عقدوا المؤتمرات والندوات للتأييد والتبرير والتسويغ، ليقدموا أكثر من المطلوب، ويتجاوزوا غير المتوقع، ويذروا الرماد في العيون، ويصرفوا الأنظار عن الحقائق المكشوفة والمعلنة والخفية، ابتغاء مرضاة الحكام، وكسب الثقة عندهم، ونيل الحظوة التافهة في صفوفهم، والاطمئنان على مراكزهم ومناصبهم، ينتظرون الإشارة ليحولوها إلى حركة وعاصفة، ويقنعون بالغاية الوضيعة ليترجموها باسم الدين وأدلته إلى أهداف ربانية، بل استعمارية.

وهنا أيضاً يطل علينا العز بن عبد السلام من قبرهٍ، وتنادينا روحه، وتذكرنا سيرته، ليشفق على العلماء و «رجال الدين» ليذكّر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وأن حكام زمانه لم ينالوا منه ذرة إلا مما كتبه الله تعالى، وآجره عليه، وأن التاريخ لم يغفل اسمه، بل سجله بمداد من نور مشع، وضياء مستمر لأجيال الدنيا، وله الجزاء الأوفى في الآخرة.

ومع ذلك فلم يخل هذا الزمن من أمثال العز، من العلماء العاملين، والدعاة المخلصين، الذين قدموا أنفسهم رخيصة في سبيل الله، فطالتهم

أعواد المشانق، وشرد معظمهم في بلاد الله الواسعة، وحبس كثير منهم، وطردوا من الوظائف، ولا يزال العملاء يلاحقونهم ويطاردونهم، ويسعون للفتك بهم، والله من ورائهم، ولا بد للحق أن ينجلي، ولا بد للباطل من زوال.

العز مضرب المثل:

هذه خمسة نماذج من مواقف العز الخالدة المشهورة التي تكشف للقارىء شخصية الرجل، وسيرته في الحياة، والمبادىء التي يسير عليها، والقيم التي يلتزمها، والمنهج الذي رسمه ونفذه عملياً.

وإن هذه المواقف الخالدة من العز لم تكن غامضة وخافية على أحد، بل كانت كالشمس الساطعة تنتشر في الخافقين في عصره، فكان يشار إليه بالبنان في مختلف أعماله في الخطابة، والقضاء، والفتوى، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي الآراء التي يصدرها ويبينها في كتبه التي تدل على غزارة علمه، وتعمقه، وفهمه، وتطبيقه العملي لها.

وشاعت هذه المواقف في البلاد، وانتقلت في الآفاق، وخُلِّدت في التاريخ اللاحق حتى يومنا الحاضر، وإلى المستقبل، ليصبح الشيخ عز الدين بن عبد السلام **مضرب المثل للرجال** في الورع، والنزاهة، والعدل، والزهد، والتقوى، والاستقامة، والجرأة في الحق، والشجاعة، والإقدام، والجهاد بالعلم وبالنفس.

ولا يمضي عصر إلا والعز بن عبد السلام هو **المثل الأعلى** الذي يذكر عندما تشتد الخطوب، وتدلهم الأحداث، ليكون اسمه على كل لسان، وفي كل مناسبة، وعلى كل قلم، وفي أعلى قوائم الدعاة والمصلحين، وأنه نال لقب «سلطان العلماء» و «بائع الملوك» عن جدارة واستحقاق، وعن ممارسة عملية وتجارب عديدة.

يقال ذلك عندما تقل الرجال، ويصبح الناس أشباه رجال، ولا رجال، وعندما يعزّ الرجال، فيطل في الأفق، وعلى الأسماء العز كرجل ينادي بموقف الرجال.

وهذا ما دعانا لعرض سيرة هذا الرجل، الذي يتصف بالرجولة، هذا الرجل الذي نحتاج لأمثاله في هذا الوقت، هذا الرجل الذي يريد الإسلام من العلماء والدعاة أن يكونوا مثله، لا أن يكونوا إمّعة إن أحسن الناس والحكام أحسنوا، وإن أساؤوا أساؤوا، حتى قال أحد المتخاذلين، مستسلماً، وهو في أعلى منصب ديني في وقته وبلده: إنك لا تستطيع أن تقف في وجه السيل الجارف، وسمح لابنته أن تخرج سافرة، وأن تعزف البيانو وآلات الموسيقا، وأن يفتي بجواز رؤية المخطوبة ولو في الحمام، وشيخ آخر، وهو في أعلى منصب ديني في بلد آخر، يقبل يد زوجة رئيس جمهوريته، تقرباً وتزلفاً له وللسيدة الأولى عنده، علماً بأن هذا الرئيس لم يلبث أن طلق هذه الزوجة، وكشف أوراقها وطويتها وخباياها السيئة، ونواياها الوضيعة، وصلاتها المشبوهة، ثم أطاح الشعب بهذا الرئيس المخلوع، ووضعه في زاوية النسيان، ليقضي آخر عمره مهيناً ذليلاً في الدنيا، وما عند الله أكبر بما يستحق.

نقول هذا الكلام عندما نذكر العز، وقد تبوأ منصب سلطان العلماء، وسلاحه الإيمان والإخلاص، والعمل والتقوى، والصدق والنصح لله، والسعي لمرضاته، وزاده متاع من الدنيا قليل، مع التواضع والخوف من الله، وقدوته النبي العربي المصطفى، وصحبه النجباء، والسلف الصالح.

إننا نكتب ذلك للتأكيد على نتيجة وعبرة نأخذها من سيرة العز والحكام المسلمين في عصره، هذه النتيجة هي من منهج الإسلام وتعاليمه ودعوته، وهي أن صلاح الأمة والمجتمع والجيل يعتمد أساساً على عنصرين جوهريين، وهما العلماء والحكام، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ: «صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس: العلماء والأمراء»[1].

أي صلاحهما صلاح الناس، وفسادهما فساد الناس، لأن العالم يقتدي الناس به في أفعاله وأقواله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ويبين لهم الحلال والحرام، بأمانة كاملة، والأمير يحمل الناس على ما يصلحهم أو يفسدهم، ولا يمكن مخالفته، وبيده التوجيه والإعلام، والتطبيق والالتزام.

وخير من يمثل العلماء الصالحين العز بن عبد السلام الذي يعتبر رائد مدرسة في التاريخ، يتحدى الطغاة الفاسدين، ويقف مع الحق أينما اتجه، ويكشف الباطل للعيان، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ولا يخاف في الله لومة لائم، وتبرز شخصيته في السلوك الاجتماعي والسياسي والشعبي، وقد يكون أمثاله قلة، ولذلك إذا ظهر واحد منهم، واتصف بهذه الصفات، وانتسب إلى هذه المدرسة استفاض ذكره، وشاع أمره، والتف الناس حوله، وهابه الحكام والملوك، وكان بوتقة الأمل في الصلاح والإصلاح.

---

(١) هذا الحديث رواه أبو نعيم في الحلية، والديلمي وابن عبد البر عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال الحافظ العراقي: وسنده ضعيف. (الفتح الكبير ٢/١٩٢، فيض القدير ٤/٢٠٩).

الفَصْل السَّابع
وَفَاةُ العِزِّ وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِ

طول العمر وحسن العمل:

روى الإمام أحمد والترمذي والدارمي عن أبي بكرة رضي الله عنه «أن رجلاً قال: يا رسول الله، أيُّ الناس خيْرٌ؟ قال: مَنْ طالَ عمرُه، وحَسُن عَمَلُه، قالَ: فأيُّ النَّاسِ شرٌّ؟ قال: من طالَ عُمُـرُه، وسَاءَ عَمَلُه»[1].

والشطر الأول من الحديث الشريف ينطبق على الشيخ العز رحمه الله تعالى، فقد طال عمره، وحَسُن عمله، وكانت حياته حافلة بالمواقف المشهودة، والتضحيات الخالدة، والعمل الحسن النافع للدين والدنيا، والجهاد الصادق للدعوة، ونصرة الإسلام، ورفع راية الحق، والوقوف في سبيله كالصخرة العاتية، تتحطم عليها موجات الباطل أو الفساد أو الانحراف، وبقي صامداً في الميدان، ومواظباً على العمل الصالح حتى آخر أيام حياته.

---

(١) انظر: مسند الإمام أحمد ٥/٤٠، ٤٣، جامع الترمذي في تحفة الأحوذي ٦/٦٢٢، سنن الدارمي ٢/٣٠٨، وقال المباركفوري: وكذا رواه الطبراني بإسناد صحيـح والحاكم والبيهقي، وروى الترمذي حديثاً آخر عن عبد الله بن قيس «أن أعرابياً قال: يا رسول الله، منْ خيرُ النّاس؟ قال منْ طَالَ عمره وحَسُن عمله» قال الترمذي (٦/٦٢٢): وفي الباب عن أبي هريرة وجابر، وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

وفاة العز:

وتوفي الشيخ العز رحمه الله تعالى في جمادى الأولى سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦٢م باتفاق المؤرخين وعلماء التراجم والطبقات، وقد بلغ ثلاثاً وثمانين سنة من العمر الحافل بالأحداث الجسام(١).

وذكر ابن السبكي قصة طريفة عن عمر العز ووفاته فقال: «وحكي أن شخصاً جاء إليه، وقال له: رأيتك في النوم تُنْشد:

وكنتُ كذي رِجْلين: رِجْلٍ صحيحةٌ ورِجْلٍ رمى فيها الزَّمانُ فشُلَّتِ

فسكت ساعة، ثم قال: أعيش من العمر ثلاثاً وثمانين سنة، فإن هذا الشّعرَ لكُثَيّر عَزَّة، ولا نسبة بيني وبينه غير السّن، أنا سُنّي وهو شيعي، وأنا لست بقصير وهو قصير، ولست بشاعرٍ وهو بشاعر، وأنا سُلَميٌّ وليس هو بسُلَمي، لكنه عاش هذا القدر. قلت (ابن السبكي): فكان الأمر كما قاله رحمه الله تعالى»(٢).

وهذه القصة إن دلت على شيء فإنها تدل على شفافية نفس العز، وأن روحه الطاهرة تحدثه باقتراب الأجل، وأنه رأى مخايل الموت ماثلة أمامه ليودِّع الدنيا وأهلها، ويتجه بكليته إلى الآخرة ونعيمها.

ولكن علماء التراجم والتاريخ اختلفوا في يوم وفاته، فنقل ابن السبكي عن ولد العز عبد اللطيف أن «وفاة الشيخ في تاسع جمادى

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٨، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/٨٥، البداية والنهاية ١٣/٢٣٦، شذرات الذهب ٥/٣٠٢، مفتاح السعادة ٢/٣٥٤، فوات الوفيات ١/٥٩٤، النجوم الزاهرة ٧/٢٠٨، الفتح المبين ٢/٧٤، الأعلام ٤/١٤٤.

وأشرنا سابقاً إلى اختلاف المؤلفين في سنة ولادة العز بين ٥٨٧ هـ أو ٥٨٨ هـ، ولذلك ورد الاختلاف أيضاً في عمره هل هو ٨٢ سنة أو ٨٣ سنة، ورجحنا أن ولادته سنة ٥٨٧ هـ، وبالتالي يترجح عمره أنه ٨٣ سنة.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٥ ـ ٢٤٦.

الأولى، في سنة ستين وستمائة»[1]، وقال ابن السبكي بعد ذلك: «توفي في العاشر من جُمادى الأولى سنة ستين وستمائة بالقاهرة»[2]، وشك أبو شامة قائلاً: «إن وفاته كانت يوم الأحد عاشر جمادى الأولى أو الحادي عشر»[3]، وهذا اختلاف بسيط، ويمكن الجمع بين الأقوال بأن وفاة العز كانت يوم السبت التاسع من جمادى الأولى، ودفن يوم الأحد، العاشر من جمادى الأولى، وأن الخبر انتقل إلى دمشق أنه دفن يوم الأحد، وقد يقع الاختلاف في تاريخ الشهر الهجري لليوم الواحد، هل هو العاشر أو الحادي عشر، كما نلاحظه الآن في البلاد العربية والإسلامية في شهر رمضان وغيره، وفي بقية الأشهر والتقاويم، مع التقدم الباهر في الاتصال والمواصلات، وأبو شامة كان بدمشق، وأرّخ وفاة العز، وهو في دمشق.

وقد جمع أبو رافع السلامي بين الروايتين فيما نقله عن تلميذ العز الحافظ الدمياطي فقال: «وتوفي يوم السبت تاسع جمادى الأولى سنة ٦٦٠ هـ، ودفن من الغد بسفح المقطم حضرت ذلك»[4]، وهذه رواية دقيقة، وتوافق رواية ولد العز، وتزيد عليها في التفصيل.

وقد اشتهر اليوم العاشر لوفاة العز، لأنه يوم دفن، وهو يوم مشهود، ولذلك اقتصر عليه معظم المؤرخين كابن السبكي والإسنوي وابن كثير والمراغي وغيرهم[5].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٥.

(٢) المرجع السابق ٨/٢٤٨.

(٣) الذيل على الروضتين ص ٢١٦، وقال أبو شامة: «وفيها (سنة ٦٦٠ هـ) جاءنا الخبر من مصر بوفاة الشيخ عز الدين... وأخبر أن وفاته كانت يوم الأحد». وقال اليونيني: «وفيها (سنة ٦٦٠ هـ) توفي الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام عز الدين... بالقاهرة يوم الأحد عاشر جمادى الأولى» (ذيل مرآة الزمان ١/٥٠٥).

(٤) تاريخ علماء بغداد ص ١٠٧ نقلاً عن العز، للندوي ص ٥١.

(٥) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٨، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/٨٥، البداية والنهاية ١٣/٢٣٦، الفتح المبين ٢/٧٤، ذيل مرآة الزمان ١/٥٠٥.

دفنه وعزاؤه:

دفن العز يوم الأحد، العاشر من جمادى الأولى، قبيل الظهر، في آخر القرافة بسفح المقطم من ناحية البركة، وكان يوم دفنه مشهوداً، وحضر جنازته الخاص والعام من أهل مصر والقاهرة، وشارك في الجنازة خلائق لا تحصى، وصلى عليه ملك مصر والشام، الظاهر بيبرس.

وقد تأثر الظاهر بيبرس على وفاة العز، وتأسف على موته أثناء دولته، فقال: «لا إله إلا الله، ما اتفقت وفاة الشيخ إلا في دولتي، وشيّع أمراءه وخاصته وأجناده لتشييعِ جنازته، وحمل نعشه، وحضر دفنه»[1].

ونقل ابن السبكي فقال: «ولما مرَّت جنازة الشيخ عز الدين تحت القلعة، وشاهد الملك الظاهر كثرة الخَلْق الذين معها، قال لبعض خواصّه: اليوم استقر أمري في المُلْك؛ لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس: اُخرجوا عليه، لانتزع المُلك مني»[2].

كما تأثر عامة المسلمين بوفاة الشيخ، لفضله، وعلمه، ومواقفه، وخرجوا في جنازته وفاء لبعض حقه، وأقيمت صلاة الغائب على شيخ الإسلام العز بن عبد السلام في جميع ديار مصر وبلادها والبلاد الشامية إلى قاطع الفرات والبيرة والرحبة، ثم بالمدينة المنورة ومكة المكرمة وبلاد اليمن[3].

وحزن أهل دمشق خاصة على ابنهم البار، وعالمهم الفذ، وقاضيهم العادل، فصلوا عليه يوم الجمعة في الجامع الأموي وجوامع أخرى، ونادى

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٥، وانظر: الفتح المبين ٢/٧٤، الذيل على الروضتين ص ٢١٦، ذيل مرآة الزمان ١/٥٠٥.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٥، وانظر: شذرات الذهب ٧/٣٠٢، حسن المحاضرة ٢/٩٥.

(٣) انظر: الإمام العز، للفقير ص ١٢١، فوات الوفيات ١/٥٩٥، ذيل مرآة الزمان ١/٥٠٥.

النصير المؤذن بعد الفراغ من صلاة الجمعة: «الصلاة على الفقيه الإمام، الشيخ عز الدين بن عبد السلام»، وعمل العزاء للشيخ العز بجامع العقيبة، المعروف الآن بجامع التوبة[١]، وذلك يوم الاثنين ٢٥ جمادى الأولى سنة ٦٦٠ هـ[٢].

وهكذا انتقلت روح العز إلى بارئها، ، تستمطر رحمة الله الواسعة، وتستنزل عليه شآبيب الرحمة والرضوان، وبقيت له الذكرى العطرة، لتمنحه عمراً ثانياً، كما قال الشاعر:

ارفع لنفسك قبل موتك ذكرها   فالذكر للإنسان عمر ثاني

ولا تزال ذكرى العز تفوح في المجالس، وتذكر: كمثل أعلى في الصفات المتعددة والمواقف الخالدة، والثناء الجميل الذي نفرده فيما يلي:

الثناء على العز:

لقد حظي العز بالمكانة العالية في حياته، واعترف الجميع بذلك، ونطق الناس بالثناء عليه بعد وفاته، ودعوا له بالجنة، فوجبت له إن شاء الله تعالى[٣]، لأن ألسنة الخلق أقلام الحق، ولم يصلنا كل ما ورد من الثناء

---

(١) وهو المسجد الجامع الذي بناه الملك الأشرف موسى سنة ٦٣٢ هـ، وهو صاحب العز كما مر سابقاً.

(٢) انظر: شجرة المعارف، المقدمة ص ١٦، العز، للوهيبي ص ٧٠، العز، للندوي ص ٥٢، عز الدين، محمد حسن عبد الله ص ١٧٩.

(٣) روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: «مَرُّوا بجنازة، فأثنوا عليها خيراً، فقال النبي ﷺ: وجبت، ثم مَرّوا بأخرى فأثنوا عليها شراً، فقال: وجبت، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجَبَت؟ قال: هذا أثنيتم عليه خيراً، فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً، فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض» وفي رواية مسلم: «من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شراً، وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في =

الجميل على الشيخ العز، ولكن طلابه وتلاميذه والمترجمين له ذكروا جانباً من ذلك.

واعترف علماء عصره، وفضلاء زمانه بفضله وعلمه ومواقفه، ولا يعرف الفضل إلا ذووه، ولذلك نثبت هنا أهم الأقوال[1] التي تصف العز، وتحوطه بالثناء، وتوشحه بما هو أهله، وتبين بعض مآثره، وذلك اعترافاً بالفضل لأهله، وحثاً للمسلمين على التخلق بصفاته، والتأسي بمواقفه، والالتزام بحدود الشرع، والقيام بمثل أعماله، ولا نيأس من عطاء الله تعالى، ولا نقبل قول الشاعر:

حلف الزمان ليأتين بمثله   حنثت يمينك يا زمان فكفِّرِ

وإن الدين والإيمان والعقيدة، والأحكام والشرع الذي تربى عليه العز لا يزال موجوداً ومحفوظاً، وإن التربة التي نبت فيها العز لا تزال تحتفظ بخصبها وخيراتها، وإن الأرض التي حملت العز لا تزال على سعتها ورحابتها، وإن الأمة والأحوال والظروف التي أحاطت بالعز تشعر بالظمأ والعطش لأمثال العز، وتحتاج إلى مواقفه، وإن النبع الصافي لا يأتي إلا بالماء العذب السلسبيل، والكوكب المشع لا يأتي إلا بالنور الساطع المبدد للظلام، وإن أرض الشام والكنانة رحبة الصدر لاستقبال العلماء الأفذاذ، والقادة الأبطال.

وسوف نبدأ بأقوال زملاء العز ومعاصريه، ثم بأقوال تلاميذه، ثم بثناء العلماء والمصنفين والمؤرخين لسيرته وترجمته، ثم بأقوال بعض المتأخرين.

= الأرض» (صحيح البخاري ١/ ٤٦٠ كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت، صحيح مسلم ٧/ ١٨ كتاب الجنائز، باب فيمن يُثنى عليه خير).

(١) إن استقصاء الأقوال التي وردت في العز تشكل وحدها رسالة مستقلة وبحثاً مستفيضاً.

أولاً: ثناء المعاصرين للعز:

١ ـ قال العلامة ابن الحاجب صديق العز ومعاصره ورفيقه في السفر والرحلة (٦٤٦ هـ) عن العز: «ابن عبد السلام أفقه من الغزالي»[١].

٢ ـ وقال العلامة، جمال الدين الحصيري (٦٣٧ هـ) شيخ الحنفية في زمانه، مخاطباً سلطان دمشق عن العز: «هذا رجل لو كان في الهند، أو في أقصى الدنيا، كان ينبغي للسلطان أن يسعى في حُلوله في بلاده، لتتم بركته عليه وعلى بلاده، ويفتخر به على سائر الملوك»[٢].

٣ ـ قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي (٦٥٦ هـ) معاصر العز يمدح مجلسه في الفقه: «ما على وجه الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس عز الدين بن عبد السلام»[٣].

٤ ـ وقال الحافظ زكي الدين المنذري (٦٥٦ هـ) مفتي الشافعية بمصر، ومعاصر العز: «كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه»[٤].

ثانياً: ثناء بعض التلاميذ على العز:

١ ـ قال أبو بكر بن مسدي الأندلسي (٦٦٣ هـ) تلميذ العز عن شيخه: «أحد فقهاء هذا المذهب، ممن فرَّع على أصوله، وهذَّب، ورأس فقهاء بلده»[٥].

٢ ـ قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة (٦٦٥ هـ) أحد تلامذة الشيخ: «وكان أحق الناس بالخطابة، والإمامة، وأزال كثيراً من البدع التي كان

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٤، حسن المحاضرة ١/٣١٥.

(٢) انظر: المرجع السابق ٨/٢٣٧.

(٣) انظر: حسن المحاضرة ١/٣١٥.

(٤) انظر: المرجع السابق ١/٣١٥.

(٥) انظر: تاريخ علماء بغداد ص ١٠٥، العز، للندوي ص ٥٦.

الخطباء يفعلونها؛ من دقِّ السيف على المنبر، وغير ذلك، وأبطل صلاتي الرَّغائبِ، ونصفِ شعبان، ومنع منهما»[1].

٣ ـ قال القاضي الفقيه الأصولي الأديب الحافظ ابن دقيق العيد (٧٠٢ هـ) تلميذ العز عن شيخه: «كان ابن عبد السلام أحد سلاطين العلماء»[2].

٤ ـ قال عز الدين الحسيني تلميذ العز عن شيخه: «كان عالم عصره في العلم، جامعاً لفنون متعددة، مضافاً إلى ما جبل عليه من ترك التكلف، مع الصلابة في الدين، وشهرته تغني عن الإطناب في وصفه»[3].

ثالثاً: ثناء العلماء والمصنفين على العز:

١ ـ قال شيخ الإسلام الذهبي (٧٤٨ هـ) عن العز: «... بلغ رتبة الاجتهاد، وانتهت إليه رئاسة المذهب، مع الزهد والورع، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصلابة في الدين»[4].

٢ ـ وقال فخر الدين محمد بن شاكر الكتبي (٧٦٤ هـ) عن العز: «شيخ الإسلام، وبقية الأعلام، الشيخ عز الدين... سمع... وتفقه...، ودرّس، وأفتىٰ، وبرع في المذهب، وبلغ رتبة الاجتهاد، وقصده الطلبة من البلاد، وتخرج به أئمة، وله الفتاوى السديدة، وكان ناسكاً، ورعاً، أمَّاراً بالمعروف، نهاءً عن المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم»[5].

٣ ـ وقال اليافعي اليمني (٧٦٤ هـ) عن العز: «سلطان العلماء، وفحل

(١) انظر: شذرات الذهب ٥/٣٠٢.
(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٤، حسن المحاضرة ١/٣١٥.
(٣) انظر: شذرات الذهب ٥/٣٠٢.
(٤) العبر في خبر من غبر ٥/٢٦٠.
(٥) فوات الوفيات ١/٥٩٤ ـ ٥٩٥.

النجباء، المقدَّم في عصره على سائر الأقران، بحر العلوم والمعارف، والمعظم في البلدان، ذو التحقيق والإتقان، والعرفان والإيقان...، وهو من الذين قيل فيهم: علمهم أكثر من تصانيفهم، لا من الذين عبارتهم دون درايتهم، ومرتبته في العلوم الظاهرة مع السابقين في الرعيل الأول»[١].

٤ ـ وقال العلامة تاج الدين بن السبكي (٧٧١ هـ) في ترجمة العز: «شيخ الإسلام والمسلمين، وأحد الأئمة الأعلام، سلطان العلماء، إمام عصره بلا مُدافعة، القائم بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في زمانه، المطَّلع على حقائق الشريعة وغوامضها، العارفُ بمقاصدها، لم يرَ مثل نفسه، ولا رأى من رآه مثله، عِلْماً وورعاً وقياماً في الحق، وشجاعة وقوة جنان، وسلاطة لسان»[٢].

٥ ـ وقال العلامة الفقيه الشيخ جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي (٧٧٢ هـ) في ترجمة العز: «الشيخ عز الدين... كان رحمه الله شيخ الإسلام علماً وعملاً، وورعاً، وزهداً، وتصانيف، وتلاميذ، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، يهين الملوك فمن دونهم، ويغلظ القول... وكان فيه مع ذلك حسن محاضرة بالنوادر والأشعار»[٣].

٦ ـ وقال الحافظ المؤرخ ابن كثير (٧٧٤ هـ) في سيرة العز: «شيخ المذهب، ومفيد أهله، وله مصنفات حسان... وبرع في المذهب، وجمع علوماً كثيرة، وأفاد الطلبة، ودرّس بعدة مدارس... وانتهت إليه رئاسة الشافعية، وقصد بالفتاوى من الآفاق، وكان لطيفاً ظريفاً، يستشهد بالأشعار»[٤].

٧ ـ وقال المؤرخ جمال الدين يوسف بن تَغْرِي بَرْدي الأتابكي (٨٧٤ هـ)

---

(١) مرآة الجنان ٤/١٥٣.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٠٩.

(٣) طبقات الشافعية للإسنوي ٢/٨٤.

(٤) البداية والنهاية ١٣/٢٣٥.

في ترجمة العز: «الشيخ الإمام، العلامة، شيخ الإسلام عز الدين... المعروف بابن عبد السلام... ودرّس، وأفتى، وصنف، وبرع في المذهب، وبلغ رتبة الاجتهاد، وقصده الطلبة من الآفاق، وتخرّج به أئمة، وله التصانيف المفيدة، والفتاوى السديدة، وكان إماماً، ناسكاً، عابداً، وتولى قضاء مصر القديمة مدة، ودرس بعدة بلاد»(١).

٨ ـ وقال العلامة الحافظ المؤرخ جلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) في سيرة العز: «الشيخ عز الدين... أبو محمد، شيخ الإسلام، سلطان العلماء...، وتفقه...، وأخذ الأصول...، وسمع الحديث...، وبَرَع في الفقه والأصول والعربية... وقدم مصر، فأقام بها أكثر من عشرين سنة، ناشراً للعلم، آمراً بالمعروف، ناهياً للمنكر، يُغلظ على الملوك فمن دُونهم...، وألقى التفسير بمصر دروساً، وهو أول من فعل ذلك، وله من المصنفات...، وله كرامات كثيرة... ثم كان في آخر عمره لا يتقيد بالمذهب، بل اتسع نطاقه، وأفتى بما أدى إليه اجتهاده»(٢).

٩ ـ وقال العلامة أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زاده (٩٦٨ هـ) في ترجمة العز: «سلطان العلماء، الشيخ عز الدين، وشهرته تغني عن الإطناب في مدحه، وبالجملة فهو إمام عصره، بلا مدافعة، القائم بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في زمانه، المطلع على حقائق الشريعة وغوامضها، العارف بمقاصده لم يرَ مثل نفسه، ولا رأى من رآه مثله علماً وورعاً وقياماً في الحق، وشجاعة وقوة جنان وسلاطة لسان»(٣).

١٠ ـ وقال المؤرخ الفقيه الأديب أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي

---

(١) النجوم الزاهرة ٢٠٨/٧.

(٢) حسن المحاضرة ٣١٤/١، ٣١٥. (٣) مفتاح السعادة ٣٥٣/٢.

(١٠٨٩ هـ) في ترجمة العز: «عز الدين، شيخ الإسلام. . .، الإمام العلامة، وحيد عصره، سلطان العلماء. . .، وبرع في الفقه والأصول والعربية، وفاق الأقران والأضراب، وجمع بين فنون العلم من التفسير والحديث والفقه واختلاف الناس ومآخذهم، وبلغ رتبة الاجتهاد، ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد، وصنف التصانيف المفيدة»[(١)].

رابعاً: ثناء بعض المتأخرين على العز:

١ ـ قال الشيخ عبد الله مصطفى المراغي: «عبد العزيز. . . الملقب بعز الدين، المعروف بسلطان العلماء، شيخ الإسلام والمسلمين، وإمام عصره بلا مدافع، وفريد زمانه بلا منازع. . .، كان ابن عبد السلام علماً من الأعلام، شجاعاً في الحق، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، فقيهاً أصولياً، محدثاً، خطيباً، واعظاً، أديباً، شاعراً، رقيق الحاشية، حاضر النادرة، محترماً، وقوراً، تخشى السلاطين والأمراء صولته وسلطانه»[(٢)].

٢ ـ قال أستاذنا العلامة الداعية الدكتور مصطفى السباعي ـ عميد كلية الشريعة سابقاً ـ بعد أن عرض العصر الذي سبق العز، وسكوت أكثر العلماء عن الجهر بالحق، أو مسايرة الحكام، أو اعتزال الحياة العامة، قال: «في هذا الوسط المضطرب نشأ العالم العظيم «سلطان العلماء» عز الدين بن عبد السلام، فكان وجوده نسمة من نسمات الرجاء تهبُّ على قلوب اليائسين، وعزمة من عزمات الإيمان تنبعث في أوساط المتخاذلين، وومضة من ومضات النور تضيء الطريق للمدلجين في

---

(١) شذرات الذهب ٥/ ٣٠١، وانظر الثناء والإطراء الذي ذكره الداودي للعز في طبقات المفسرين ١/ ٣٠٨ وما بعدها.
(٢) الفتح المبين في طبقات الأصوليين ٢/ ٧٣.

دياجير الظلام، وسوطاً من سياط الحق يلهب الله به ظهور المتكبرين والمتجبرين والظالمين، إن العز بن عبد السلام من أعظم علماء الإسلام الذين تهزني دراسة آثارهم وسيرتهم هزاً عنيفاً»(١).

٣ ـ قال الأستاذ رضوان علي الندوي في مقدمة كتابه عن العز: «سمعت اسم الرجل. . . في بعض المحاضرات (للأستاذ الداعية السيد أبي الحسن الندوي) في معرض الكلام عن قوة الإيمان والجرأة في الحق، وعدم الخوف إلا من الله، فمثّل به في ذلك. . .، فارتسمت في مخيلتي صورة للعز. . .، صورة عالم تقي جريء، يتحدى ـ في الحق ـ ملكاً مستبداً طاغية، صورة حق ضعيف قوي أمام باطل قوي ضعيف. . .، صورة الأتقياء والشهداء والأبرار، فكأن الرجل حلقة في السلسلة التي بدأت في الإسلام بسيدنا الحسين، ثم تتابعت حلقاتها بسعيد بن جبير وأقرانه، فالإمام أبي حنيفة، والإمام مالك، والإمام أحمد بن حنبل، فشيخنا عز الدين، وبعده الإمام ابن تيمية، فالشيخ أحمد السرهندي (أحد المجددين في الإسلام، وأنكر على الامبراطور المغولي ميله إلى وثنية الهند وعداوته للإسلام، فتعرض لمحنة الحبس والإيذاء)، وهكذا، وكأنهم لآلىء من عقد يزيد اللاحق منها السابق بهاء، وتألقاً، وهم الذين أخبر عنهم الصادق المصدوق بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم». . .، وهناك جانب لشخصيته آخر مشرق. . . وهو ملكته الأصيلة في فهم الشريعة وروحها ومقاصدها فهماً راسخاً شاملاً عقلياً دقيقاً مبتكراً بعض الابتكار. . . وهو من السابقين الأوَل في حركة «التقعيد» في الفقه الإسلامي وتطويره. . .» إلى أن قال في الخاتمة: «انتهينا من البحث في حياة سلطان العلماء الشيخ العز بن عبد السلام، فرأيناه عالماً

---

(١) انظر: العز بن عبد السلام، للندوي، تقديم الدكتور مصطفى السباعي ص ٥ ـ ٦.

جليلاً، يدرس ويؤلف ويفتي، وقاضياً عدلاً يحكم ويقضي، وعرفناه عالماً مجاهداً يوجه ويرشد، ويعترض وينتقد الملوك والأمراء والعامة على السواء، وهو في هذا يتحمل الأذى والمشقة، ويتعرض للخطر والاضطهاد، فلا يبالي ولا يقف، ويواصل النشاط، ويدأب على العمل، ويقيم على الحق، ويحاول إقامته في المجتمع حتى قضى. . .، وكان بذلك رجل عصره، وموجّه زمانه، وقدوة لمن بعده»[1].

٤ ـ وقال الأستاذ محمد حسن عبد الله في ختام بحثه عن «عبد العزيز بن عبد السلام، بائع الملوك»: «بعد معرفتنا بهذا كله ندرك أيَّ الرجال كان هذا الرجل الذي زلزل قواعد الظلم في زمانه، وجدَّد حياة الحركة العلمية الإسلامية، وأعاد الدماء الحارة الحرة إلى شرايينها، فأعاد إلينا ذكرى المصطفين الأخيار من علماء صدر الإسلام، وقادته الاجتماعيين، ومتصوفته العارفين»[2].

٥ ـ ويخصص الأستاذ أحمد حسين في كتابه «من قضايا الرأي في الإسلام» فصلاً بعنوان «طراز جديد من العلماء، يَعلُون بقوة الدين على السلاطين والأمراء، عز الدين بن عبد السلام بائع الملوك وسلطان العلماء»، وقال في آخره: «**ذلكم هو الرجل**، سلام عليه يوم ولد، ويوم مات، ويوم يبعث حياً»[3].

٦ ـ وقال الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهيبي في مقدمة بحثه عن العز: «فالعز بن عبد السلام علم من أعلام الإسلام، ومن كبار المفكرين في القرن السابع الهجري، وأحد سلاطين العلماء الذين حاربوا الظلم

---

(١) العز بن عبد السلام، للندوي ص ١٠، ١١، ١٧٧، ١٧٨.
(٢) عز الدين بن عبد السلام، بائع الملوك ص ١٩٧.
(٣) من قضايا الرأي في الإسلام ص ١٦٧، ١٦٨، ١٨٠.

والطغيان، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر وغيَّروه، وهانت عليهم أنفسهم في سبيل إعزاز الدين، ونصرة المظلومين»(١).

٧ ـ وقال الدكتور علي الفقير في «الفصل الثالث: وفاته وما قيل فيه»: «وكلام الأئمة والعلماء فيه من الكثرة والإطناب ما لا نستطيع إحصاءه في مثل هذه الرسالة، ولكن يكفي أن نقول فيه كما قال ابن قاضي شهبة: «وشهرته تغني عن الإطناب في وصفه».

ثم قال: «فهو سلطان العلماء، شيخ الإسلام والمسلمين، كان إمام عصره بلا مدافع، وفريد زمانه بلا منازع، علماً من الأعلام الشجعان في الحق، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، فقيهاً أصولياً محدثاً، خطيباً واعظاً، أديباً شاعراً، رقيق الحاشية، حاضر النادرة، مهيباً محترماً وقوراً، تخشى السلاطين والأمراء صولته وسلطانه، نزيهاً عادلاً، جريئاً في الحق لا يخشى فيه لومة لائم. . . ، كان لا يشتكي ولا يتبرم، كان أكثر دهره صامتاً، فإذا قال بزَّ القائلين، كان ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جاء الجد فهو الليث عادياً، كان إذا جامع العلماء: على أن يسمع أحرص منه على أن يقول، كان إذا غلب على الكلام لم يغلب على السكوت، كان لا يقول ما لا يفعل، ويفعل ما لا يقول، كان إذا عرض له أمران لا يدري أيهما أقرب إلى الحق، نظر أقربهما من هواه فخالفه، كان لا يلوم أحداً على ما قد يقع العذر في مثله، كان لا يقول حتى يرى قاضياً وشهوداً عدولاً»(٢).

خامساً: العز يعرف نفسه:

وقبل كل هذا الثناء من الآخرين، وبعد هذا الثناء، يأتي ثقة العز العالم بنفسه، وأنه يعرف قدر نفسه، وسعة علمه، فأداه، وبحث عن الجو

---

(١) العز بن عبد السلام، حياته وآثاره، ومنهجه في التفسير ص ٧.

(٢) الإمام العز بن عبد السلام، سلطان العلماء ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

الملائم له، والأرض الخصبة ليزرعه، ولذلك لما هاجر من دمشق، ورحل في طريقه إلى مصر، هرع إليه أمراء المدن لاستضافته في إماراتهم، لكي يحظوا بوجوده عندهم، ويسابقوا غيرهم، ويفخروا به، ومن بين هؤلاء صاحب الكرك، وهي قلعة قوية، ومدينة صغيرة، فجاء سلطانها، وسأل العز الإقامة عنده، فأجابه بصراحة الرجال، وثقة العالم: «بلدك صغير على علمي، وقصدي نشره»[1] وتابع سيره إلى أرض الكنانة، وعاصمة الأيوبيين في القاهرة.

ذلكم هو الرجل:

هذا هو العز بن عبد السلام، وهذه بعض صفاته، وبعض ما قيل فيه، ليكون هو الرجل كل الرجل، ليصدق فيه وفي أمثاله قول الشاعر:

هم الرِّجال، وعيبٌ أن يُقالَ لمن لم يتصف بمعاني وصفِهم رَجُلُ

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٢١٠، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٨٤، طبقات المفسرين للداودي ١/ ٣٠٩.

الباب الثاني

سيرة العزّ العلميّة

إن سيرة العز بن عبد السلام، وشهرته الواسعة لم تقتصر على سيرته الشخصية، ومواقفه الخالدة، وإنما تنبع أيضاً من سيرته العلمية العطرة، وما أنتجه من أفكار، وما دوّنه من كتب ومصنفات ورسائل، وما قدَّمه للطلاب وللأجيال اللاحقة وللمسلمين والحضارة والإنسانية من جهد فكري عميق، ودراسات معمقة، وإضافات جديدة لم يسبقه إليها أحد، وممارسات علمية دقيقة ومميزة.

وإنا نقر ونعترف سلفاً أن شهرة العز في حياته وبعد وفاته تدين في معظمها لسيرته الشخصية، ولذلك قدمناها أولاً، وتهم جميع القراء على جميع المستويات من الخاصة والعامة ثانياً، أما سيرته العلمية فلا تهمُّ في الغالب إلا الخاصة، ولا يستفيد فيها إلا المثقف والمتعلم في درجة جامعية من جهة، وإننا مهما توسعنا في الدراسة العلمية لكتب العز وإنتاجه فلا نستطيع أن نوفيها حقها، ونغطي للقارىء المتخصص جميع جوانبها، وكل جانب من حياة العز العلمية تحتاج لأكثر من كتاب، ولذلك صدر في بعض النواحي رسائل علمية للماجستير والدكتوراه، واعترف كل باحث في فرعه الذي تناوله أنه لم يوفِ الموضوع حقه، ولم يستقص الإحاطة بالفن، ولم يقدم الثراء الكافي للعز وعلمه.

ولهذه الأسباب مجتمعة فسوف نتناول بإيجاز واختصار لسيرة العز

العلمية، ونقدم الملامح العامة لكل تخصص من علوم العز، ونرسم معالم الطريق للقارىء ليترسم الخُطىٰ، ويتابع السير، ويرجع مباشرة إلى كتب العز المطبوعة على الأقل، ليضع يده مباشرة على الكنوز التي خلفها العز، ويطمئن قلبه إلى المنارات التي اقتبسناها من حياة العز العلمية.

وباختصار فإننا قدمنا سابقاً أن علم العز أكثر من كتبه، وأن كتبه مع قلتها بالنسبة إلى علمه تدل على غزارة البحث، وسعة الاطلاع، وعمق الأفكار، وإن عباراته الموجزة تدل على دقة المعاني في نفسه، والإدراك الدقيق للشرع والأحكام، والمعرفة الواسعة للحِكَم التشريعية، وهذا الجانب في الحقيقة هو العلم النافع الذي يتوارثه الناس، وينتفعون به فعلاً، ويستمر فيه الثواب والأجر لقائله، أكثر من السيرة الشخصية، والمواقف التي مضى عليها الزمن، وتبقى لمجرد الاعتبار والاتعاظ.

الفَصلُ الأوّل
العِزُّ وَعِلْمُ العَقِيْدَةِ

تمهيد في علم العقيدة:

إن علم العقيدة، والإيمان، وعلم أصول الدين، وعلم التوحيد، وعلم الكلام، ألفاظ مترادفة، موضوعها واحد، وتختلف من حيث الأغراض والأوصاف المتعلقة بها، واستعملت في مراحل تاريخية متعددة.

وهذا العلم **أهم العلوم الشرعية على الإطلاق**، لأنه يتعلق بالإيمان، وأساس الإسلام، ويبحث عن أعظم الأمور، وهي وجود الخالق جل جلاله، وما يتعلق بصفاته وحقوقه، ووظيفة المخلوق وواجباته.

والعقيدة **أهم شيء في حياة الأفراد والأمم والمجتمعات**، وهي الغاية الأولى من بعثة الأنبياء، وإنزال الكتب السماوية، كما أنها الأساس في التشريع، والمنطلق الرئيس لجميع شؤون الحياة، وخاصة في بناء المجتمع الإسلامي، وتكوين الشخصية السوية، وتصحيح السلوك القويم، وتصحيح الاعوجاج أو الانحراف عن الشرع.

ومن هذا المنطلق ظهر اهتمام الشيخ العز بالعقيدة وعلم أصول الدين، والتركيز على الإيمان الكامل وما يتعلق به من أفكار، وما يتفرع عنه من أعمال وتصرفات.

والعقيدة الإسلامية واضحة كل الوضوح في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وتتميز بالبساطة والواقعية والتسامح والإنسانية، وهي متفق عليها

بإجماع المسلمين، وقد يقع اختلاف في بعض الجزئيات الفرعية كتأويل الصفات أو التفويض في معناها، وقد تستغل بعض أمور العقيدة لأغراض خاصة، ويقع فيها اختلاف يؤدي بكثير من الفرق إلى الانحراف والضلال والخروج عن الملة، ولكن بقيت الجماهير العريضة من المسلمين، في مختلف العصور والأماكن، محافظة على العقيدة الصحيحة، وملتزمة بمبادئها وقواعدها وفروعها وجزئياتها، ويعرف هؤلاء بأهل السنة والجماعة، وبالسلف الصالح، ويمثلهم لفظة الأشاعرة التي تشمل مذهب الأشعرية ومذهب الماتريدية(١).

والشيخ العز رحمه الله تعالى من أهل السنة والجماعة، ومذهب السلف في الإيمان والاعتقاد، وكان أشعرياً، ولم يقتصر العز على مجرد الاعتقاد والإيمان، بل حمل لواء الدعوة إلى العقيدة الصحيحة، والدفاع عنها، والوقوف في وجه الفرق المخالفة كالحَشْوية والمُشَبِّهة والمجسِّمة والمعتزلة وغيرها من الفرق المنحرفة أو الضالة، وكان العز رحمه الله تعالى أشعرياً، ومدافعاً قوياً، ومناظراً صلباً في ذلك، حتى ثبّت الحق والصواب، وقمع الشذوذ والانحراف في عصره الذي وصل إلى اقتناع الحكام ورجال السلطة به، وكادوا أن ينحازوا إليه في المعتقد «لولا وقفة الإمام عز الدين بن عبد السلام في هذه المسألة وقفة عالم يقوم بواجبه فتضاءلت أصواتهم، وانجمعوا في ديورهم» كما يقول العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثري(٢).

والحقيقة أن العز لم يصل إلى درجة العلماء المتخصصين في العقيدة وعلم الكلام وأصول الدين، ولكنه كان المحامي الناجح،

---

(١) انظر فكرة مختصرة عن علم العقيدة وأصول الدين ونشأة الفرق فيه وأهم علمائه وكتبه في (مرجع العلوم الإسلامية، ص ٣٢٥، وما بعدها، تبيين كذب المفتري، المقدمة ص ٩ وما بعدها، دستور العلماء ١/١١٨).

(٢) انظر: تبيين كذب المفتري، مقدمة الشيخ محمد زاهد الكوثري ص ١٦.

والمدافع الصامد، والمقاتل الجريء في الدفاع عن حياض العقيدة والإيمان في مجال الدعوة والإرشاد، والوعظ والخطابة، والتدريس والمناظرة، ثم عرض أمثلة من ذلك في بطون كتبه عامة، وخصص بعض الرسائل في بيان الإيمان والعقيدة الصحيحة، ونفرد هذه الرسائل بدراسة مختصرة.

كتب العز ورسائله في العقيدة:

١ ـ رسالة في علم التوحيد:

وهي رسالة مختصرة من ورقة مخطوطة واحدة، تتحدث عن الهداية والضلال، وما يتصل بذلك من الجبر والاختيار، وأن مرجع ذلك إلى مراكز الإرادة، والأمر الإلهي فيها، وهي أمور دقيقة، ومشكلة معضلة، وهي أصل منشأ الهدى والضلال، ومفرق العلم والجهالة، واختلف الناس في ذلك، وعرض العز آراءهم وأدلتهم مع التوجيه والاستدلال، والتوفيق المستمد من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ[1].

٢ ـ الملحة في الاعتقاد:

وتسمى «**رسالة في العقيدة أو الاعتقاد**» أو «**العقيدة**» التي كتبها العز للرد على الحَشْوية الذين شنعوا على الإمام الأشعري في صفات الله تعالى عامة، وصفة الكلام خاصة، ورفعها الحنابلة للملك الأشرف، وأدت إلى الفتنة التي ذكرناها سابقاً، وعرضنا جانباً من رسالة العز التي يوافق بها ما عليه السلف الصالح، ويوافق عليها علماءُ المسلمين من الشافعية والمالكية والحنفية والفضلاء من الحنابلة، وأن الإمام «أحمد بن حنبل وفضلاء أصحابه وسائر علماء السلف بُرَآء إلى الله مما نسبوه (الحَشْوية) إليهم، واختلقوه عليهم» من اعتقاد الحرف والصوت لكلام الله تعالى.

---

(١) انظر: العز، للوهيبي ص ١٣٠.

وجاء في كلام العز عن صفة كلام الله تعالى: «متكلم بكلام قديم أزلي ليس بحرف ولا صوت، ولا يُتصور في كلامه أن ينقلب مِداداً في الألواح والأوراق، ترمقه العيون والأحداق، كما زعم أهل الحشو والنفاق، بل الكتابة من أفعال العباد...» «واعتقاد الأشعري رحمه الله مشتمل على ما دلت عليه أسماء الله التسعة والتسعون التي سمّى بها نفسه في كتابه وسنة رسول الله ﷺ، وأسماؤه مُندرجة في أربع كلمات، هنَّ الباقيات الصالحات: «سبحان الله»... «الحمد لله»... «الله أكبر»... «لا إله إلا الله»... ولا يخرج عن هذا الاعتقاد ملك مقرَّب، ولا نبي مرسل، ولا أحد من أهل الملل، إلا من خذله الله فاتبع هواه، وعصى مولاه، أولئك قوم قد غَمَرهم ذلُّ الحجاب، وطُرِدوا عن الباب، وبَعُدوا عن الجَناب»... «فهذا إجمال من اعتقاد الأشعري رحمه الله تعالى، واعتقاد السلف وأهل الطريقة والحقيقة... ومذهب السلف إنما هو التوحيد والتنزيه، دون التجسيم والتشبيه،... والعجب ممن يقول: القرآن مركّب من حرف وصوت، ثم يزعم أنه في المصحف، وليس في المصحف إلا حرف مجرد لا صوت معه...، ومن قال بأن الوصف القديم حالّ في المصحف لزمه إذا احترق المصحف أن يقول بأن وصف الله القديم احترق، سبحانه وتعالى عمّا يقولون عُلُواً كبيراً، ومن شأن القديم أن لا يلحقه تغيّر ولا عَدَم، فإن ذلك مناف للقدم،... وما زال المنزِّهون والموحدون يُفْتون بذلك على رؤوس الأشهاد في المحافل والمشاهد، ويَجْهرون به في المدارس والمساجد...»(١) إلى آخر الرسالة التي قدّم فيها العز الحجج والأدلة والبراهين عليها، واقتصر على الأدلة النقلية من الكتاب والسنة، وترك الاحتجاج بالمعقول كميناً عند الحاجة إليه.

ولا يسعنا أن ندرس ونحلل ما جاء في الرسالة، ونقارن بآراء

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٩ ـ ٢٢٩، ٢٣١ ـ ٢٣٥.

المخالفين، لأن ذلك يحتاج إلى دراسة متخصصة، وشرح طويل، ويخرج بنا عن المقصود في هذا المجال.

٣ ـ الفرق بين الإسلام والإيمان:

وهي رسالة صغيرة، نسخها الأستاذ إياد الطباع، وحققها في ١٨ صفحة بخط اليد، وهي تحت الطبع، وتتضمن معنى الإيمان والإسلام، فبين العز تعريف الإيمان الحقيقي بأنه «تصديق القلب بما أوجب الرب التصديق به» والإيمان المجازي وهو عبارة عن فعل كل طاعة، وترك كل معصية، وخصص فصلاً في معنى الإسلام لغة واصطلاحاً، ثم عقد المقارنة لبيان الصلة بين الإيمان والإسلام، وأوجه حمل الإسلام على الإيمان والعكس، عند اجتماع الكلمتين وافتراقهما.

وتعرض العز إلى بحث طريف مختلف فيه عند أهل السنة، وهو زيادة الإيمان ونقصه، ووصل إلى أن الإيمان بمعناه الحقيقي لا يزيد ولا ينقص، وهو ما قاله الماتريدية وعلماء الحنفية، وأن الإيمان بمعناه المجازي يزيد وينقص بحسب متعلقه وزيادة الطاعات والقربات أو نقصها، والآيات الكريمة صريحة في ذلك، وهو رأي الأشعرية وجماهير الفقهاء في المذاهب الأخرى، وبذلك استطاع العز رحمه الله تعالى أن يجمع بين الرأيين، ويوفِّق بين الماتريدية والأشعرية وجميع علماء المذاهب الفقهية الأربعة.

ثم تعرض العز إلى مسألة واقعية تصدر عن كثير من الناس، فيقول أحدهم: «أنا مؤمن إن شاء الله» فيعلق إيمانه على المشيئة، وأجاز العز ذلك، وأيد قوله بعدة أدلة[١].

---

(١) انظر: الإمام العز، للفقير ص ١٣٣.

٤ ـ نبذة مفيدة في الرد على القائل بخلق القرآن:

وهي رسالة صغيرة للرد على المعتزلة الذين أثاروا هذه المسألة في القرن الثاني الهجري، ووصلت إلى قمتها في القرن الثالث، ونتج عنها المحنة الشديدة من المأمون وغيره في إجبار الناس على القول بذلك، ثم انقضت المحنة، وانتهت الفتنة، وانقرضت فرقة المعتزلة أصلاً، وأصبحت هذه المسألة في ذمة التاريخ، مما يساعدنا على ترك التفصيل والإفصاح عنها، والانتقال إلى ما هو أهم[١].

٥ ـ وصية الشيخ عز الدين:

وهي رسالة صغيرة في العقيدة، وذكرها العز أيضاً على سبيل الاستطراد في كتابه «قواعد الأحكام في مصالح الأنام»[٢] لما بين العقيدة والأحكام من صلة وثيقة، وارتباط قوي، وأثر العقيدة على السلوك والأعمال، وأن المصدر الأساسي لكل ذلك هو القرآن الكريم والسنة الشريفة.

يقول الشيخ العز في المقدمة: «فاعلم أن حقوق الله منقسمة إلى المقاصد والوسائل، فأما المقاصد فكمعرفة ذاته وصفاته، وأما الوسائل فكمعرفة أحكامه، فإنها ليست مقصودة لعينها، وإنما مقصودة للعمل بها، وكذلك الأحوال قسمان، أحدهما: مقصود في نفسه كالمهابة والإجلال، والثاني: وسيلة إلى غيره كالخوف والرجاء، فإن الخوف وازع عن المخالفات لما رتب عليها من العقوبات، والرجاء حاثّ على الطاعات لما رتب عليها من المثوبات، وأما حقوق العباد المتعلقة بالقلوب، فكلها

---

(١) انظر فكرة مختصرة عن المعتزلة وأهم أعلامها وأشهر كتبها في (مرجع العلوم الإسلامية ص ٣٣١، ٣٣٦، ٣٥٣)، تبيين كذب المفتري، المقدمة ص ١٠ وما بعدها.

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ١/١٩٨ ـ ٢٠٥.

وسائل كالنيات، والحقوق كلها إما فعل للحسنات، وإما كف عن السيئات، فنبدأ من حقوق الله المتعقلة بالقلوب ما كان من الحسنات دون أضادها، فإنا إذا ذكرناها دلت على أضادها من السيئات فلا حاجة للتطويل بذكرها»[1] ثم بدأ بأنواع الحقوق المتعلقة بالقلوب، سواء منها ما تعلق بمعرفة ذات الله تعالى وصفاته، أم ما يتعلق بفهم خطاب الله وخطاب رسوله ﷺ، وتوقفه على اللغة العربية، وما يتفرع عن ذلك من أحكام فقهية مطلوبة من المكلف كالقصد والنية والعزم على الطاعات، ويربط ذلك بمباحث علم أصول الفقه، والأحكام الشرعية الفروعية.

٦ ـ أحوال الناس يوم القيامة، وذكر الخاسرين والرابحين منهم:

وذلك بأن يعرض المسلم نفسه على كتاب الله تعالى، وما فيه من صفات المفلحين، وأصحاب دار السعادة، وصفات الأشقياء، وأصحاب دار الشقاء، ليعرف مكانه بين الرابحين والخاسرين، ويهدف الكتاب إلى إزجاء نصيحة للمسلم ليرغبه بطاعة الله تعالى، وينبهه على العمل في رضاه، ويحذره من أعمال الأشقياء والظالمين والفاسقين، ويذكره بمصيرهم، ليعتبر بهم، فالعاقل من اتعظ بغيره، وحاسب نفسه، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني.

وقسم الشيخ العز هذه الرسالة إلى عدة فصول متباينة في حجمها بحسب أهميتها، فبدأ بفصل في بيان أحوال الناس من رابحين وخاسرين (ص ١٩) ثم بفصل في معرفة تفضيل بعض الموجودات على بعض الجواهر (ص ٢٣) وبعد أن أسهب فيه عرض بإجمال صفة أحوال الناس في البرزخ (ص ٤٦) وصفة لذّات الجنة وأفراحها (ص ٤٧) وصفة غموم النار وآلامها (ص ٤٨) وصفة ما في الدنيا من اللذات والأفراح والغموم والآلام (ص ٤٩) ثم انتقل إلى فصل في السعادات (ص ٤٩) وفصل في

---

(١) قواعد الأحكام ١/١٩٨ ـ ١٩٩.

أسباب الفضائل (ص ٥٠) وفصل في الإحسان القاصر على فاعليه (ص ٥١) وفصل في الإحسان المتعدي (ص ٥١) وفصل في الإساءة القاصرة على المسيء (ص ٥٣) وفصل في الإساءة المتعدية، ثم ختم العز رسالته بفوائد (ص ٥٤ - ٥٩) عن قتل العدو ظلماً وتعدياً، واحترام المصاحف، وحرمة المساجد، وأموال أهل الحرب، وإفساد الغلبة على المغلوب في السباق والجدل والمناظرة.

وتعرض العز في رسالته لأمور كثيرة، منها تفضيله النبوة على الرسالة فقال: «النبوة أفضل لأن النبوة إخبار عما يستحقه الله عزّ وجلّ من صفات الجلال، ونعوت الكمال، وهي متعلقة بالله من طرفيها، والإرسال دونها أمر بالإبلاغ إلى العباد، فهو متعلق بالله من أحد طرفيه، وبالعباد من طرف آخر، ولا شك أن ما تعلق بالله من طرفيه أفضل مما تعلق بالله من أحد طرفيه، والنبوة سابقة على الإرسال»[1]، ثم يأتي بالأدلة على قوله من القرآن الكريم بآيات كثيرة، وهي وجهة نظر له صحيحة بهذا الاعتبار الذي ذكره، ولكن المعروف أن الرسول أفضل من النبي، مما لا مجال للتوسع فيه هنا.

كما عرض العز في رسالته إلى أن القيام للمصاحف بدعة لأنها لم تعهد في الصدر الأول[2]، وأشرنا لذلك في فصل صفات العز.

ويؤكد العز رحمه الله أن ميزان الأعمال، والأساس في القبول والربح، أو الرفض والخسران، والمعتبر في التقويم هو الشرع، وما جاء في القرآن والسنة وليس بالادعاءات والشعارات والقيم الزائفة، والأنظمة الوضعية، ولذلك يقول: «**والشرع ميزان يوزن به الرجال**، وبه يتبين الربح والخسران، فمن ربح في ميزان الشرع كان من أولياء الله... ومن نقص في ميزان الشرع فأولئك أهل الخسران، وتتفاوت خفتهم في

---

(١) أحوال الناس ص ٤٢، وانظر: قواعد الأحكام ٢/٢٣٦.

(٢) أحوال الناس ص ٥٥.

الميزان. . . فإن رأيت إنساناً يطير في الهواء، أو يمشي على الماء، أو يخبر عن المغيبات، ثم يخالف الشرع بارتكاب المحرمات بغير سبب، ويترك الواجبات بغير سبب مجوّز، فاعلم أنه شيطان نصبه الله فتنة للجهلة، وليس ذلك ببعيد من الأسباب التي وضعها الله للضلال»(١)، إلى غير ذلك من الحكم والمواعظ والأحكام.

مباحث العقيدة في سائر كتب العز:

لم يقتصر العز رحمه الله تعالى على هذه الرسائل السابقة لعرض مسائل الإيمان والتوحيد والعقيدة، لأن العز لم يكن عالماً متخصصاً في ذلك فحسب، بل كان داعية للإسلام والدين والشرع، ويرى أن العقيدة والشريعة كلٌّ متكامل في الإسلام، ولا فصل بين التوحيد والفقه، ولا بين العبادة والأخلاق، والإيمان والأحكام، فالفقه والشرع والأخلاق والأحكام تطبيق عملي للعقيدة، وثمرة للإيمان، والإيمان أصل لها، ولا قيمة للعمل والعبادة والأحكام الشرعية إذا لم تكن مرتبطة بالإيمان، ومبنية عليه، ومتفرعة عنه، لذلك وصف القرآن الكريم أعمال الكفار بالضياع والفناء، فقال تعالى: ﴿وقدِمْنا إلى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثوراً﴾ الفرقان/٢٣.

كما أن الإيمان يتغذى بالأعمال، ويتقوى بالطاعة والعبادة، ويزيد بالبر والتقوى، ويخبو بالمعاصي، ويذبل بارتكاب المحرمات، وكأنه يختفي أصلاً بالفواحش، وينزوي إلى زاوية ضيقة خافتة عند الفسق، قال تعالى: ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ الحجرات/١١، وهو موضوع طويل. . .

لذلك نرى العز رحمه الله يتعرض لكثير من مسائل الإيمان

---

(١) أحوال الناس ص ٢٢، وذكر العز بعض فصول هذا الكتاب في الفصل الأخير من كتابه: قواعد الأحكام ٢/٢٢٨ ـ ٢٣٨.

والعقيدة، شأن كل داعية، وانتقل هذا التأثير إلى معظم كتبه، وفي مختلف المناسبات، فقد ذكر كثيراً من أمور العقيدة والإيمان في كتابه «قواعد الأحكام» وعرض جانباً من ذلك في كتابه «بداية السول في تفضيل الرسول» وبحث كثيراً من مسائل العقيدة التي عدّدناها في كتابه «أحوال الناس» بحثها بأوسع قليلاً في كتابه «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز» بعنوان «خاتمة في نُبَذ من مقاصد الكتاب العزيـز»[١]، وفعل مثل ذلك في بقية كتبه في التفسير[٢]، وكتبه في الزهد والتصوف والتربية والأخلاق وفضائل الأعمال، وفي مسائل متعددة كثيرة من كتابه «الإمام في بيان أدلة الأحكام» حتى عدّه الأستاذ الندوي من كتب العقيدة[٣].

كما تعرض العز لأمور العقيدة بكثرة في كتابه «شجرة المعارف» حتى عدّها بعض الباحثين من مصادر العقيدة للعز[٤]، وذكرنا سابقاً «مفهوم شجرة المعارف» بما يوحي أنها تتعلق فعلاً بمباحث العقيدة[٥]، وخصص قسماً من فتاويه للأسئلة عن التوحيد والإيمان[٦].

منهج العز في عرض مباحث العقيدة:

ويظهر من دراسة رسائل العز في علم العقيدة، وما عرضه من مباحث العقيدة في سائر كتبه أنه لم يلتزم بمنهج المؤلفين في علم الكلام أو علم التوحيد، وكان لثقافته الواسعة المتعددة، وطريقته في الدعوة، ظلالها المباشرة على كتبه ومنهجه، ويرجع في منهجه إلى طريقة السلف في عرض الإيمان والتوحيد والعقيدة، وهي الاعتماد المباشر على القرآن

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز ص ٢٠٦ ـ ٢١٦.

(٢) انظر: الفوائد في مشكل القرآن، للعز، مقدمة المحقق ص/ع.

(٣) انظر: فهرس «الإمام في بيان أدلة الأحكام» ص ٣٥٤، ٤٥٥ وما بعدها، العز، للندوي ص ٧٦.

(٤) انظر: الإمام العز، للفقير ص ١٣٥ هـ ١، ١٣٦ هـ ١.

(٥) شجرة المعارف ص ١٤. (٦) انظر: فتاوى سلطان العلماء ص ١٩ وما بعدها.

الكريم، لأنه المصدر الأساسي والرئيس للعقيدة الإسلامية، والعز خبير بكتاب الله تعالى، متخصص في تفسيره، متعمق في فهمه، كما سنرى، كما اعتمد على السنة النبوية وسائر الأدلة النقلية، وما كان عليه الخلفاء الراشدون، والصحابة الكرام، وعلماء السلف من التابعين، ومَن تبعهم بإحسان[1]، ويردف كل ذلك بالأدلة العقلية لزيادة الاقتناع، والطمأنينة القلبية، ويستعين في كل ذلك على اللغة العربية في معاني الألفاظ، وتحديد معاني النصوص الشرعية على مقتضى أساليب العرب، مع الاستشهاد بالشعر، والالتزام بمذهب أهل السنة والجماعة، وما وصل إليه الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر عبارات العز في رسالته «ملحة الاعتقاد» في: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٩، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٥.

الفصل الثاني
العز وعلوم القرآن

تمهيد في علوم القرآن:

علوم القرآن أهم العلوم الشرعية على الإطلاق، وهي من العلوم الضرورية التي يحتاج إليها ـ كلياً أو جزئياً ـ كل مسلم، وخاصة العالم، وبشكل أخص الداعية، لأن القرآن الكريم هو الدعامة الأولى للعقيدة الإسلامية، والركيزة المتينة لبناء الإسلام، والمنبع الصافي للأخلاق، والمصدر الرئيس للعبادات والتشريع، والمعاملات والأحكام، وهو الباعث لكل تقدم، والمحرك لكل رقي وإصلاح، والمنطلق لكل حضارة ومدنية، في القديم والحديث والمستقبل، وأنه الدستور الخالد المقدس في الأرض، وفيه صلاح الأفراد والمجتمع، ونجاة الأمة وفلاحها.

ولقد فجر القرآن الكريم طاقات الشعوب والأمم، وبعثها بعد الرقاد، وأحياها بعد الموت، وأنقذها من الضلال والجاهلية، ونقلها إلى قيادة العالم، فكانت الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس، ترفع مشعل الهدى والحضارة على أرجاء المعمورة.

وترجع جميع العلوم عند المسلمين إلى القرآن الكريم الذي له الفضل الأساسي في إيجادها ونشأتها، وفي رعايتها والعناية بها، وفي تحقيق الخير والفائدة منها للبشرية عموماً، سواء كانت علوماً شرعية أم غير شرعية.

ولكن هناك مجموعة من العلوم الشرعية، والمعارف الدينية، **تتصل مباشرة بالقرآن الكريم**، وتتعلق بألفاظه ومعانيه، ونزوله وتدوينه، وحفظه ونقله، وتاريخه وقراءاته، **سميت باسم علوم القرآن**، وكثير من هذه العلوم استقل عن غيره، وصنفت فيه المؤلفات العديدة.

وأهم علوم القرآن: علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم أسباب النزول، وعلم إعجاز القرآن، وعلم ناسخ القرآن ومنسوخه، وعلم أحكام القرآن، وعلم فضائل القرآن، وعلم تأويل مشكل القرآن، ومفردات القرآن، والمحكم والمتشابه، وعلم إعراب القرآن. . . وغيرها، وذكر بدر الدين الزركشي سبعاً وأربعين نوعاً، وزادها العلامة السيوطي حتى جاوزت المئة، وأهمها على الإطلاق أربعة علوم: علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم إعجاز القرآن، وعلم أحكام القرآن[1].

مساهمة العز في علوم القرآن:

ساهم الشيخ العز مساهمة فعالة في علوم القرآن، وبرزت فيه شخصيته العلمية في حياته ودروسه، وبعد وفاته في كتبه ومصنفاته، واشتهر بصلته بالقرآن الكريم وعلومه، حفظاً وتدبراً وتدريساً وتصنيفاً، وتجلت عبقرية العز في مجالي التفسير والإعجاز البياني خاصة، وصنف في كل منهما كتابين مشهورين وكبيرين، فبلغت تآليفه ومصنفاته في علوم القرآن الكريم أربعة كتب، أشرنا لها سابقاً، وهي:

١ ـ تفسير القرآن العظيم.

٢ ـ مختصر تفسير النكت والعيون للماوردي.

٣ ـ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز.

---

(١) انظر الدراسة الوافية لعلوم القرآن الكريم، وأشهر الكتب فيها، وأبرز العلماء المشاركين بها في (مرجع العلوم الإسلامية ص ١٤٠ ـ ٢٢٤، مفتاح السعادة ٢/ ٣٨٠ ـ ٥٩٥).

٤ ـ الفوائد في مشكل القرآن، وهي جزء من كتابه «الأمالي».

ونلاحظ أن العز لم يقتصر في اهتمامه في القرآن الكريم وعلومه على هذه الكتب، بل كان القرآن الكريم وآيات الله تعالى هي الأساس والمحور لمعظم كتبه ورسائله، فلا تفتح صفحة منها إلا ووجدت فيها آية أو عدة آيات، يستشهد بها العز، ويستدل بها، ويتدبرها، ويستخرج منها العظات والحِكم والأحكام، والمواعظ والعبر، والإرشادات حتى بلغت الآيات الكريمة التي ذكرها العز في كتابه «الإمام» أكثر من ألف آية، ومثل ذلك وأكثر في كتابه «شجرة المعارف»[1]، ويمكن جمع هذه الآيات في مختلف كتبه لتكوّن ثروة قيمة، وسفراً ضخماً يؤكد مبلغ اهتمام الشيخ العز بكتاب الله تعالى، وحرصه عليه، ومعايشته في حياته العامة والخاصة، وفي تصنيفه ودروسه، وقد نقلنا سابقاً أقوال المصنفين عن العز وأنه كان أول من ألقى دروس التفسير في دروسه العامة.

ونقتصر فيما يلي على دراسة مختصرة لكتب العز التي صنفت خصيصاً في علوم القرآن والتفسير.

كتب العز في علوم القرآن والتفسير:

١ ـ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز:

ويسمى أيضاً «مجاز القرآن» وهو من أهم كتب العز رحمه الله، واعتبر ابن السبكي هذا الكتاب، وكتاب «قواعد الأحكام» شاهدين على إمامة العز وعظيم منزلته في علوم الشريعة[2].

ويتصل موضوع الكتاب بعلم البيان والمعاني في علوم العربية، ويظهر إعجاز القرآن في الفصاحة والبلاغة والبيان، ويعتبر «مجاز القرآن»

---

(١) انظر: شجرة المعارف، فهرس الآيات الكريمة ص ٤٣٣ ـ ٤٤٧، الإمام في بيان أدلة الأحكام، فهرس الآيات القرآنية ص ٢٨٩ ـ ٣٢٥.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٧.

أحد علوم القرآن باتفاق العلماء، وإن حصل بعض الاختلاف في وقوع المجاز في القرآن أم لا.

ولخص ذلك حاجي خليفة فوضع في علوم القرآن عنوان «علم معرفة حقيقة ألفاظ القرآن ومجازها» وقال: «لا خلاف في وقوع الحقائق في القرآن، وكذا المجاز عند الجمهور، وأنكر وقوع المجاز جماعة: منهم الظاهرية وابن القاص من الشافعية، وبعض من المالكية [وبعض الحنابلة]، وشبهتهم أن المجاز أخو الكذب، وأن العدول إليه من ضيق الحقيقة، والأول: القرآن منزه عنه، والثاني: محال على الله تعالى، وهذه شبهة باطلة نشأت من عدم التفرقة بين المجاز والكذب، ومن عدم الوقوف على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، ومن كون إيراد المجاز مع تيسر الحقيقة، وصنف فيه عز الدين بن عبد السلام، ولخصه جلال الدين السيوطي في «كتاب مجاز الفرسان إلى مجاز القرآن» مع زيادات كثيرة، وأنواع المجاز وتفصيل علاقاتها في علم البيان»[1].

ويظهر من ذلك، ومما قاله العلماء أن كتاب العز في هذا الخصوص أهم كتاب في الموضوع، والناس عالة عليه، ولذلك انتشر واشتهر، وطبع عدة مرات وصور، كما ذكرنا سابقاً.

ويتكون كتاب العز «الإشارة إلى الإيجاز» من مقدمة وبابين وخاتمة، وفيه فصول كثيرة، وفوائد عديدة.

والمقدمة قصيرة من عدة أسطر، يعرف فيها الاختصار بأنه: «الاقتصار على ما يدل على الغرض مع حذف أو إضمار» ثم انتقل إلى سبب الحذف وفائدته، فقال: «والعرب لا يحذفون ما لا دلالة عليه، ولا وَصْلة إليه، لأن حذف ما لا دلالة عليه مناف لغرض وضع الكلام من

(١) مفتاح السعادة ٢/٤٥٠.

الإفادة والإفهام، وفائدة الحذف تقليل الكلام وتقريب معانيه إلى الأفهام»[1].

أما الباب الأول فهو في أنواع الحذف، وذكر فيه تسعة عشر نوعاً، وضمنها فائدة: ليس حذف المضاف من المجاز، وفصل فيما يتعلق بالله من الأقوال والأعمال، وفائدة عن تقدير ما ظهر في القرآن أولى في بابه من كل تقدير، وله أمثلة عشرة، وأن وصف الفاعل والمفعول بالمصدر قيل من حذف المجاز، وقيل من مجاز المبالغة[2].

وأما أنواع الحذف فالأول: حذف المضاف، وذكر العز فيه أنواع أدلة الحذف الثمانية، والثاني: حذف المفعولات، والثالث: حذف الموصوفات، والرابع: حذف الأقوال، والخامس: حذف الشروط وذلك في الأمر والدعاء، والسادس: حذف أجوبة الشروط، وهو أنواع، والسابع: حذف جواب لو، وهو ضربان، والثامن: حذف جواب لولا... والنوع التاسع عشر: حذف الجملة الكبيرة استغناء عنها لدلالة السياق عليها[3]، ومثل لهذه الأنواع بآيات قرآنية، وأحاديث نبوية.

والباب الثاني: في المجاز، فعرّفه، وفرق بينه وبين الحقيقة، وبيّن قوة العلاقة بين الحقيقة والمجاز، وقال: «المجاز فرع للحقيقة، لأن الحقيقة استعمال اللفظ فيما وضع دالاً عليه أولاً، والمجاز استعمال لفظ الحقيقة فيما وضع دالاً عليه ثانياً لنسبة وعلاقة بين مدلولي الحقيقة والمجاز، فلا يصح التجوز إلا بنسبة بين مدلولي الحقيقة والمجاز، وتلك النسبة متنوعة... فإذا قوي التعلق بين محلي الحقيقة والمجاز فهو المجاز الظاهر الواضح، وإذا ضعف التعلق بينهما إلى حد لم تستعمل العرب مثله ولا نظيره في المجاز، فهو مجاز التعقيد، فلا يحمل عليه شيء من الكتاب

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز ص ٢.

(٢) المرجع السابق ص ٨ ـ ١٢.

(٣) المرجع السابق ص ٢ ـ ١٨.

والسنة، ولا ينطق به فصيح، وقد تقع علاقة بين الضعيفة والقوية، فمن العلماء من يتجوز بها لقوتها بالنسبة إلى العلاقة الضعيفة، ومنهم من لا يتجوز، لانحطاطها عن العلاقة القوية»[١].

وبيَّن العز أن العرب تجوزت في الأسماء والحروف والأفعال، ثم ذكر أنواع المجاز في الحروف، وهي تسعة[٢]، وأن أنواع المجاز في الأفعال عشرة[٣]، ثم انتقل إلى أنواع المجاز في الأسماء وعرضه في سبع وأربعين فصلاً[٤]، وفي الفصل الثامن والأربعين ذكر العز أمثلة من حذف المضافات على ترتيب السور[٥]، وفي آخرها عرض تردد المضاف المحذوف بين أن يكون مجملاً أو مبيناً، وبين الحسن والأحسن، وهنا تطرق إلى الحسن والقبح، وأنه أربعة أقسام، وأن المعنى الواحد قد يعبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض، وبعضها أفصح من الآخر بحسب ما يلائم معاني الجمل، وضرب العز أمثلة لذلك من آيات القرآن الكريم[٦].

وختم العز كتابه في نُبَذ من مقاصد الكتاب العزيز في سبع وعشرين فصلاً، ثم ذكر فائدتين، ثم حدد مقاصد القرآن بأربعة أنواع[٧]، وفي الخاتمة استطرد العز إلى أنواع التفسير ومنهجه، وموقفه من التفسير[٨]، مما نفرده بعنوان مستقل.

منهج العز في التفسير:

ذكر الشيخ العز في آخر كتابه «الإشارة إلى الإيجاز» على سبيل الاستطراد بعض الأمور اللازمة لتفسير القرآن الكريم، وتعتبر قواعد أساسية في التفسير، وتوحي إلى منهاجه في تفسير كتاب الله تعالى، ويمكن استنتاجها بالمبادىء الآتية:

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز ص ١٨.
(٢) المرجع السابق ص ٢٠ ـ ٢٦.
(٣) المرجع السابق ص ٢٦ ـ ٢٩.
(٤) المرجع السابق ص ٣٠ ـ ١١٢.
(٥) المرجع السابق ص ١١٢ ـ ٢٠٤.
(٦) المرجع السابق ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦.
(٧) المرجع السابق ص ٢٠٦ ـ ٢١٩.
(٨) المرجع السابق ص ٢٢٠ ـ ٢٢٣.

١ - **معرفة اللغة العربية**: قال العز: «وتتوقف معرفة القرآن على معرفة اللغة والإعراب، قال ابن عباس: إذا أشكل عليكم شيء من القرآن فالتمسُوه في الشعر، فإنّه ديوان العرب، فما كان موجباً للعمل جاز أن يستدل عليه بالآحاد وبالبيت والبيتين من الشعر، وما كان موجباً للعلم فلا يستدل عليه بمثل ذلك»[1].

٢ - **فهم معنى الألفاظ**: قال العز: «واعلم أن للتفسير أحكاماً وضروباً، فمن ذلك فهم معنى اللفظ، وهو منقسم إلى ثلاثة أقسام، أحدها: يعرفه العامة والخاصة كالأرض والسماء، والجبال والرجال، والأشجار والأمطار، القسم الثاني: ما يعرفه معظم الخاصة كالمعاد والملاذ، القسم الثالث: ما يعرفه القليل من الخاصة كالرفرف والصفصف»[2].

٣ - **الترجيح عند تعدد المعاني**: قال العز: «ومن ضروب التفسير ما يتردد بين محملين، أحدهما أظهر عند النزول فيرجع فيه إلى الصحابة والتابعين، ويحمل على ظاهره حينئذ، ومنه ما يحمل على أخفى محمليه لدليل يقوم عليه، ومنه ما يتساوى فيه الأمران فيخص أحدهما بالسبب الذي نزل لأجله، ومنه ما يتساوى من غير ترجيح عندنا، وهو راجح في نفس الأمر، لأن الرسول ﷺ قد بين للناس ما نزل إليهم، فبعض المتأخرين يحمله على جميع معانيه، والوقف أولى به، وقد يتردد بين محامل كثيرة يتساوى بعضها مع بعض، ويترجح بعضها على بعض، وأولى الأقوال ما دلَّ عليه الكتاب في موضع آخر، أو السنة أو إجماع الأمة، أو سياق الكلام، وإذا احتمل الكلام معنيين، وكان حمله على أحدهما أوضح وأشد موافقة للسياق كان الحمل عليه أولى، وقد يقدر بعض النحاة ما يقتضيه علم النحو لكن يمنع منه أدلة شرعية فيترك ذلك التقدير، ويقدر تقديراً آخر يليق بالشرع، وقد يعبر النحاة

(١) الإشارة إلى الإيجاز ص ٢٢٢. (٢) المرجع السابق ص ٢٢٠.

والمفسرون وغيرهم بالعام ويريدون به الخاص، فيجهله كثير من الناس».

ويقرر العز القاعدة فيقول: «وعلى الجملة فالقاعدة في ذلك أن يحمل القرآن على أصح المعاني، وأفصح الأقوال، فلا يحمل على معنى ضعيف، ولا على لفظ ركيك، وكذلك لا يقدر فيه من المحذوفات إلا أحسنها، وأشدها موافقة وملائمة للسياق»[1].

٤ ـ **تحديد معنى الألفاظ القرآنية**: قال العز: «والألفاظ ضربان، أحدهما: ما لا يحتمل إلا معنى واحد، فيجب حمله عليه، الثاني: ما يحتمل معنيين فما زاد، فإن ظهر في أحد محتمليه، وخفي في الآخر وجب حمله على الظاهر، ما لم يمنع منه دليل، وإن استوى المعنيان في الظهور والخفاء، فإن كان أحد اللفظين لغوياً، والآخر عرفياً حمل على العرفي، وإن كان أحدهما لغوياً أو عرفياً، والآخر شرعياً حمل على الشرعي، وإن استوى استعمال اللفظين لغة وعرفاً، أو لغة وشرعاً كالقرء، فإن لم يمكن جمعهما حمله المجتهد على أحدهما بما يدل عليه، فإن اختلف فيه مجتهدان فمراد الله من كل واحد منهما ما أدى إليه اجتهاده، وإن لم يترجح أحدهما فهل يتخير بينهما، أو يؤخذ بالأغلظ؟ فيه مذهبان، وإن أمكن الجمع بينهما ولم يترجح أحدهما على الآخر فكلاهما مراد الله؛ لأنه لو أراد أحدَهما لنصب عليه دليلاً، وإن ترجح أحدهما بدليل على بطلان الآخر لم يجز الحمل عليه، وإن لم يدل على بطلان دليل جاز أن يكون مراداً مع ما دل الدليل على رجحانه»[2].

٥ ـ **الترجيح بحسب قواعد اللغة العربية**: قال العز: «ومن ضروب التفسير وأحكامه بيان كون اللفظ حقيقة أو مجازاً، ومنه بيان رجحان إحدى

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز ص ٢٢٠.
(٢) المرجع السابق ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

الحقيقتين على الأخرى، ومنه بيان رجحان أحد المجازين على الآخر، ومنه ترجيح الحقيقة على المجاز، ومنه بيان ترجيح ما يناسب الكلام ويطابقه على ما ليس كذلك، ومنه ترجيح بعض الإعراب على بعض، ومنه بيان التقديم والتأخير، ومنه بيان مظان الإطالة، ومنه بيان مظان الاختصار، وفائدة الاختصار سهولته على المتكلم، وإيصال المعنى على الفور إلى المخاطب، كقوله تعالى: ﴿فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين﴾ يونس/١٠٦، ومنه الحذف، وقد تقدمت في أول هذا الكتاب، ومن ضروب التفسير وأحكامه تعيين المضاف المحذوف، ومنه ترجيح بعض المضافات المحذوفة على بعض...»(١) إلى آخر ذلك، وضرب أمثلة لكل نوع.

٦ - **ربط الكلام مع بعضه**: قال العز: «واعلم أن من الفوائد أن من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض، ويتشبث بعضه ببعض لئلا يكون مُقَطَّعاً مَتَبَّراً، وهذا بشرط أن يقع الكلام في أمر متحد، فيرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحد الكلامين بالآخر، ومن ربط ذلك فهو متكلف لما لم يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث، فضلاً عن أحسنه...»(٢) وذكر العز أمثلة وأدلة لذلك.

٧ - **التحذير من التفسير بالرأي**: قال العز محذراً من ذلك: «عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ: من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار، وقال الشعبي: لأن أكذب مائة كذبة على محمد ﷺ أحب إليَّ من أن أكذب كذبة واحدة في القرآن، إنما يفضي الكاذب في القرآن إلى الله»(٣).

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز ص ٢٢١.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق ص ٢٢٣.

٨ ـ **أنواع التفسير**: قال العز: «قال ابن عباس: تفسير القرآن على أربعة وجوه، فتفسير يعلمه العلماء، وتفسير يعرفه العرب، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته يقول: من الحلال والحرام، وتفسير لا يعلم تأويله إلا الله، فمن ادعى علمه فهو كاذب»[١].

٩ ـ **تقديم التفسير بالقرآن على القرآن نفسه**: قال العز: «فائدة: تقدير ما ظهر في القرآن أولى في بابه من كل تقدير، وله أمثلة»[٢] وذكر أمثلة من الآيات الكريمة يوضح بعضها بعضاً.

ومن هذا العرض السريع لمحتويات كتاب العز «الإشارة إلى الإيجاز» ومن المنهج السابق الذي وضحه العز نتأكد صحة مقولة ابن السبكي أن هذا الكتاب يدل على إمامة العز، وتظهر ملكته الفريدة في علم البيان والمعاني لكشف «مجاز القرآن» وما فيه من بلاغة وفصاحة وإعجاز، وأن العز وضع قواعد العربية ومصطلحات علماء البلاغة، وطبقها على آيات القرآن الكريم، واستشهد لمجازات القرآن من الآيات والأحاديث والشعر العربي، ومزج كل ذلك بثقافته الواسعة في الفقه وأصول الفقه، واستنباط الأحكام، وفهم المعاني الدقيقة والعميقة والصحيحة لكتاب الله تعالى، فتحققت فيه صفات المفسر الناجح والمتفوق والدقيق لكتاب الله تعالى، وأهمها إتقان العلوم العربية، والتخصص في العلوم الشرعية، مما يدل على سعة علمه في الجهتين، وبذلك برهن العز على فصاحة القرآن وإعجازه عن الإتيان بمثله من فصحاء العرب وغيرهم.

٢ ـ الفوائد في مشكل القرآن:

وهو جزء من «أمالي العز بن عبد السلام» التي تشمل الأمالي في

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز.

(٢) المرجع السابق ص ٩، وانظر أمثلة لذلك في تفسير العز نفسه «مختصر النكت والعيون»، (العز، للوهيبي ص ٢١٠ وما بعدها).

تفسير آيات القرآن الكريم، والأمالي في شرح بعض الأحاديث، والأمالي في مناقشة بعض المسائل الفقهية، ووجدت بعض النسخ الخطية تجمع هذه الأمالي الثلاث، واقتصرت بعض النسخ الخطية على قسم التفسير بعنوان «فوائد العز بن عبد السلام» فقام الأستاذ رضوان علي الندوي بتحقيق هذا القسم، وقال: «وأعطيت لنفسي الحرية، فأطلقت على الكتاب عنوان «فوائد العز في مشكل القرآن» وهو أقرب العناوين وأشملها من مادة الكتاب»[1]، وطبعته ونشرته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت سنة ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧م.

ونقلنا سابقاً كلمة بعض مترجمي العز بن عبد السلام بأنه «أول من ألقى التفسير دروساً في مصر» وقام بعض تلاميذ العز بتدوينها وجمعها في هذا الكتاب[2]، وقام آخرون بضمها إلى أمالي العز في الحديث والمسائل الفقهية.

ويعتبر الكتاب تفسيراً للقرآن الكريم من نوع خاص، وذلك أنه تناول بعض آيات القرآن الكريم التي تبدو مشكلة من ناحية علمية أو عقدية أو لغوية أو بلاغية أو نحوية، أو أصولية، أو غير ذلك من نواحي العلم والمعرفة، مما يعرف «بمشكل القرآن»، وأجاب عنها العز بما ينقله أو بما يراه مناسباً بأسلوب دقيق موجز، وبما يتضمن الفوائد العلمية والفكرية التي تمرّن فكر طالب العلم، وتوسّع أفقه، وتعطيه تحليلاً دقيقاً، وفهماً ثاقباً لكتاب الله تعالى، وتنزيله على الاحتمالات الصحيحة، وما يتفرع عنها من نتائج مقبولة، ورد البعيد والمستبعد.

وكان أشهر كتاب في هذا الموضوع كتاب «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) والذي حققه الأستاذ سيد أحمد صقر، ولكن هذا الكتاب يقتصر على الرد على الزنادقة، ودحض اعتراضاتهم وادعاءاتهم

---

(١) الفوائد، المقدمة ص/ س. (٢) الفوائد، المقدمة ص/ ي.

على القرآن، فقدم ابن قتيبة الحلول للمشكلات التي أثاروها للدفاع عن القرآن، وكانت محصورة في تفسير المشكلات اللغوية والنحوية، بينما يشمل كتاب العز بيان المشكلات اللغوية والنحوية والبلاغية والعقدية والأصولية وغيرها، ولا يوجد دليل على أن الشيخ العز استفاد من كتاب ابن قتيبة أو نسج على منواله[1].

وطريقة العز في هذا الكتاب أنه يطرح النقطة التي يبغي إيضاحها، بشكل «مشكلة» ثم يعطي حلاً لها، وهذا يتناسب مع إلقاء الدروس في المساجد، والإملاء على الطلاب مباشرة بدرس عام، وجاءت الأجوبة أحياناً بلغة علمية فنية مكثفة جداً، وأطرفها وأهمها ما جاء في التفسير البلاغي، بأن يعطي العز أصول الكلمات في الأبحاث اللغوية، ويدلل على الفروق الدقيقة في معاني المترادفات، ويشرح استعمالاتها المجازية، ليظهر للسامع والقارىء بلاغة النص القرآني وفصاحته ودقة اختياره للفظ الدقيق المحدد للمراد، كما قدم تفسيرات كلامية في آيات العقيدة والصفات، وعبَّر بها عن وجهة نظر الأشاعرة التي التزم بها العز رحمه الله تعالى[2].

واعتمد العز في كتابه على مصادر أصيلة ومشهورة في الموضوع، لعلماء بارزين كالفَرّاء (٢٠٧ هـ) صاحب تفسير «معاني القرآن» وأبي علي الفارسي (٣٧٧ هـ) صاحب كتاب «الحجة في القراءات»، والمفسر ابن عطية (٥٤١ هـ)، والمفسر الزمخشري (٥٢٨ هـ)، ويقتبس العز كثيراً من نصوص أبي علي الفارسي، ويندر أن يستشهد في هذا الكتاب بأقوال قدامى المفسرين والصحابة وأتباعهم[3].

وطرح العز رحمه الله تعالى في كتابه بعض الأسئلة، ولم تصلنا

---

(١) الفوائد، المقدمة ص/أ.
(٢) الفوائد، المقدمة ص/ س ـ ع.
(٣) الفوائد، المقدمة ص/ ع.

أجوبتها، إما لأن العز نفسه ترك هذه الأسئلة دون أن يجيب عليها، وإما أنها فاتت الطلاب، أو النساخ الذين دونوا الأمالي، وقام مؤلف مجهول بعد القرن العاشر الهجري، ولعله أحمد بن أحمد بن يوسف الحسيني وكتب إجابات على الأسئلة التي لم ترد أجوبتها في كتاب الشيخ العز، وقام الأستاذ الندوي بإضافتها في ملحق الكتاب(١).

ويبدأ العز كتابه بعد البسملة بقوله: «فائدة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فيشرح معنى الإعاذة، واشتقاق الشيطان، وبيان المراد منه «وهل المراد كل شيطان أو القرين فقط؟ والظاهر أنه في حقنا القرين، وفي حق رسول الله ﷺ إبليس» ودلّل على ذلك(٢)، ثم انتقل إلى فاتحة الكتاب «بسم الله الرحمن الرحيم» فبيَّن معنى الباء، ثم قال: «فائدة: قيل: الرحمن أبلغ من الرحيم لزيادة البناء، وخولفت القاعدة بتقديم الأفضل... وقيل الرحيم أبلغ، لأنه أخر، والقاعدة أنهم لا يؤخرون إلا الأبلغ...، وقيل الرحمن للدنيا فقط، والرحيم للآخرة، فيكون أبلغ لسعة رحمته الآخرة، وقيل الرحمن لأهل الأرض، والرحيم لأهل السماء...»(٣)، وهكذا بحسب ترتيب سور القرآن الكريم.

ويختم العز كتابه بقوله بعد سورة الناس: «فائدة: القرآن فيه فاضل ومفضول، فالفاضل كآية الكرسي، وأول سورة الحديد، وآخر سورة الحشر، فإن ذلك كلام الله في الله، والمفضول كـ ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ و ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ ونحو ذلك، فإن ذلك كلام الله في غير الله، فاكتسى الأول الشرف من جهتين، واكتسى الثاني الشرف من جهة، إذا تقرر ذلك، فنقول: لا ينبغي أن يُواظب على الفاضل وترك المفضول، وإن كان الزمان الذي يشغل بالمفضول ينبغي أن يشغل بالفاضل إلا أنا خالفنا هذه القاعدة للنص والمعنى، أما النص، ففي الصحيح «أن النبي ﷺ كان

---

(١) الفوائد، المقدمة ص/ ف. (٢) الفوائد ص ١. (٣) الفوائد ص ٣، ٥.

يداوم على قراءة ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و﴿قل هو الله أحد﴾ في ركعتي الفجر»، مع أن ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ كلام الله في غير الله، وأما المعنى فلما يؤدي إليه ترك المفضول من نسيانه، فسدت الذريعة في حق من حفظه، وفي حق من لم يحفظه»[1].

ويقع الكتاب في ١٨٧ صفحة، والملاحق (١٨٩ - ٢٠٠) والتعليقات والهوامش (٢٠١ - ٢٧٠) ثم المراجع والمصادر والفهارس العامة، والاستدراك والتذييل (٢٧١ - ٣٢٥).

٣ - تفسير القرآن الكريم:

وهو تفسير كامل للقرآن الكريم، بعبارة مختصرة، اهتم فيه العز ببيان معاني الكلمات، وذكر الوجوه اللغوية، وبعض الوجوه النحوية، والنكات البلاغية، مع العناية بالأحكام الفقهية، ويحتوي على جميع سور القرآن الكريم، سورة فسورة[2].

وهذا التفسير لا يزال مخطوطاً، ولم ير النور، ويوجد منه عدة نسخ خطية، نسخة كاملة في مجلد صغير، ويقع في ٣٦٣ ورقة، ونسخة أخرى في مجلد متوسط الحجم، ويقع في ٢٨٦ ورقة، ونسخة ثالثة تشمل النصف الثاني من التفسير، ومكتوب عليها «الجزء الثاني من النصف من كتاب تفسير القرآن العزيز» وتقع في ٢٤٨ ورقة[3].

وقام الدكتور عبد الله الوهيبي بالمقارنة بين هذا التفسير بنسخه الثلاث، وبين تفسير العز الآتي الذي اختصر فيه تفسير الماوردي، وسوف نعتمد على دراسته بعد التعريف بالكتاب الرابع للعز، لإعطاء صورة متكاملة عن الكتابين.

---

(١) الفوائد ص ١٨٦ - ١٨٧.

(٢) انظر: العز، للوهيبي ص ١١٨، ١١٩، كشف الظنون ١/٣٠٤، طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٨.

(٣) العز، للوهيبي ص ١١٨، ١١٩.

٤ ـ مختصر تفسير الماوردي «النكت والفوائد»:

وهو تفسير مختصر، يقع في مجلد واحد فقط، وأوراقه (٢٣٠) ورقة، أي (٤٦٠) صفحة، وبدأه العز بمقدمة موجزة عن أسماء القرآن، ومعنى السورة والآية والأحرف السبعة والإعجاز، ثم شرع في تفسير القرآن الكريم سورة سورة من الفاتحة إلى سورة الناس.

وقام الدكتور الوهيبي بدراسة هذا التفسير، وتحقيقه تحقيقاً علمياً بتخريج الأحاديث والأشعار، والتعريف بالأعلام، وبيان الغريب، والتعليق عليه، وقدمه أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التفسير، ويقول: «وهو تحت الطبع وسيصدر قريباً إن شاء الله»[1]، ولكني لم أطلع عليه، وسألت عنه فلم يؤكد لي أحد بصدوره، ولعله لا يزال في المطبعة، أو طبع ولم ينتشر بتوسع، ولذلك سنعتمد على دراسة الدكتور الوهيبي لدراسة التفسيرين السابقين، وجزاه الله خيراً.

وكتاب الماوردي تفسير كامل للقرآن الكريم، اقتصر فيه مؤلفه على تفسير ما خفي من الآيات، وجمع فيه أقاويل السلف والخلف، وأضاف له ما ظهر له من معنى محتمل، ورتبه ترتيباً بديعاً بحصر الأقوال في تأويل الآية، ثم يفصلها بالترتيب، وينسب كل قول لصاحبه، ويوجه بعض الأقوال ويرجح بعضها، واعتنى فيه بالتفسيرات اللغوية، فيذكر أصول الكلمات، ويوضحها بضرب الأمثال، والاستشهاد عليها بالشعر، ويربطها بالمعنى المراد من الآية، لأن الماوردي فقيه مشهور وأديب كبير[2]، وتقوم دار المعرفة ببيروت بإعداده للطباعة بعد تحقيقه وتخريج أحاديثه، وعمل الفهارس العلمية له[3]، كما طبع قبل ذلك بمدة وجيزة.

---

(١) المرجع السابق ص ١١٧، ١١٨.

(٢) انظر: العز، للوهيبي ص ١٦٧ بتصرف، كشف الظنون ١/٣١٤، ٢/٦١٤، مفتاح السعادة ١/٣٢٢، الأعلام للزركلي ٥/١٤٦.

(٣) الفتاوى للعز، مقدمة المحقق ص ٢٥، ونقل في الهامش وصف الماوردي له: =

وقام الشيخ العز باختصار تفسير الماوردي لقيمته العلمية، وأهميته، ولما فيه من تطويل، ولمجاراة روح العصر في شيوع الاختصار وكثرة المختصرات، وحافظ العز على ميزات تفسير الماوردي في جمع أقاويل السلف والخلف في تفسير الآية دون تعداد وتفصيل، وقد يترك العز نسبة بعض الأقوال إلى قائليها، ويقتصر على تفسير جزء من الآية، ويترك بعض الآيات، ولا يعنى بالقراءات، ويذكر الجواب عما يرد من إشكالات، ويختصر أسباب النزول، واهتم العز كالماوردي في التفسيرات اللغوية، دون استطراد، مع الاقتصار على بعض الشواهد الشعرية، وقد يقتبس لفظ الماوردي في بعض الحالات، ولم يزد عليه إلا ما ندر، وميّزه بلفظ: قلت، مبالغة في الدقة والأمانة العلمية، ولم تبرز شخصية العز في هذا الكتاب إلا في الأسلوب، وطريقة عرض المعلومات وترتيبها[1].

وعقد الدكتور الوهيبي مقارنة بين تفسيري العز، المطول من تأليفه، والمختصر لتفسير الماوردي، وبيّن نقاط الاتفاق والاختلاف، ونقتبس بعضها باختصار:

١ ـ بدأ العز تفسيره المطول بتفسير الاستعاذة والبسملة، ثم ذكر أسماء سورة الفاتحة وفسرها، ثم شرع في تفسير سور القرآن، سورة سورة، أما في المختصر فبدأ بمقدمة عن أسماء القرآن، ومعنى السبع الطوال، والمئين، والمثاني، والمفصل، والسورة، والآية، والأحرف السبعة والإعجاز بكلام موجز، ثم ذكر أسماء الفاتحة وفسرها، ثم فسر البسملة، ثم شرع في تفسير سور القرآن سورة سورة.

= «جعلته جامعاً بين أقاويل السلف والخلف... وقدمت لتفسيره فصولاً تكون لعلمه أصولاً».

(١) انظر: العز، للوهيبي ص ١٦٨ ـ ١٦٩ بتصرف واختصار.

٢ ـ في تفسيره المطول ذكر العز البسملة في أول كل سورة، بينما في تفسيره المختصر لم يذكرها إلا أول سورة الفاتحة والكهف ومريم.

٣ ـ في تفسيره المختصر يذكر في أول كل سورة هل هي مكية أم مدنية، وما استثني منها، وفي تفسيره المطول لا يذكر ذلك.

٤ ـ في تفسيره المختصر ذكر في معنى «ألم» تسعة أقوال، واستطرد في بيان هذه الأقوال، وبيان معاني «كلمات أبجد» وحساب الجُمَّل، بينما ذكر في تفسيره المطول خمسة أقوال بعبارة مختصرة، والقول الأول منها لم يذكره في تفسيره المختصر.

٥ ـ يلاحظ على العز في تفسيريه أنه لا يفسر جميع الآيات، فقد يترك بعضها، أو جزءاً منها بدون تفسير لوضوحها، ولكن ما يتركه في تفسيره المختصر أكثر منه في تفسيره المطول.

٦ ـ عنايته بالنحو والإعراب في تفسيره المطول بارزة، بينما لا نجد ذلك في تفسيره المختصر اللهم إلا إشارات قليلة.

٧ ـ في تفسيره المطول يأتي بالمادة العلمية التي في تفسيره المختصر، ويضيف إليها شيئاً من الإيضاح والتفصيل، وقد يحذف منها بعض الأقوال.

وخلاصة هذه المقارنة أن التفسِيرين يتفقان في الاختصار، والعناية بالتفسيرات اللغوية لمفردات الآية، وإيراد الأقوال الكثيرة التي قيلت في معنى الآية، كما أنهما يتركان بعض الآيات أو جزءاً منها، ويتفقان في أكثر المادة العلمية وطريقة العرض والأسلوب، فلا يشك القارىء لهما أنهما لشخص واحد.

ويختلفان في أن التفسير المختصر اشتمل على مقدمة، وبيان لكل سورة هل هي مكية أم مدنية؟ بينما لم يشتمل تفسيره المطول على ذلك،

وانفرد بالبسملة في أول كل سورة، وكان التفسير المطول أكثر استشهاداً بالشعر، وأجمع للأقوال[1].

وختم الدكتور الوهيبي دراسته لبيان القيمة العلمية لتفسير العز المختصر، وما امتاز به، وما يؤخذ عليه، ونحيل القارىء إليها[2]، لنصل إلى النتيجة أن الشيخ العز كان مفسراً دقيقاً لكتاب الله تعالى، وأنه كان فارس الميدان فيه، ولا يشق له غبار، وخاصة في النواحي البلاغية، والبيان والمعاني، وعمق الفهم لآيات الله تعالى، والأحكام الفقهية وطرق الاستنباط، وقواعد أصول الفقه في ذلك، مما يكشف عن سعة ثقافته العربية والشرعية، وصلته الدقيقة بكتاب الله تعالى.

---

(١) انظر: العز، للوهيبي ص ٢٥٧ ـ ٢٦٩.
(٢) المرجع السابق ص ٢٧١ ـ ٢٧٨.

الفَصل الثالث
العِزُّ فقيهاً

تمهيد عن الفقه:

الفقه أحد العلوم الشرعية الأساسية، ومن أكثر العلوم شهرة واتساعاً، وصلةً بجميع الناس، وتطبيقاً عملياً في الحياة.

والفقه يمثل شريعة السماء للأرض والإنسان، وهو المنهج الإلهي في سير الحياة، وهو الأحكام العملية التي تغطي تصرفات الإنسان، لذلك اتسعت دائرته، وأصبح أوسع تراث حضاري وتشريعي في العالم أجمع.

وأصح تعريف للفقه هو ما بيّنه الإمام الشافعي، فقال: «هو العلم بالأحكام الشرعية العملية، المكتسب من أدلتها التفصيلية»، أي هو معرفة وإدراك الأحكام التي تتوقف على مصدر شرعي، وتقتضي من المكلف البالغ العاقل القيام بعمل وسلوك في الحياة، وتكون هذه المعرفة مستنبطة ومستمدة بالنظر والاجتهاد والبحث من نصوص القرآن والسنة وبقية المصادر الشرعية، ويكون الفقيه مجتهداً، ثم أصبح يطلق على من يعرف أحكام الحوادث نصاً واستنباطاً، أو دراسة وحفظاً من مذهب ما، فالفقيه في العصور الأخيرة هو الذي يعرف الأحكام الشرعية ويحفظها من مذهب معين ليعلمها للناس.

والفقه الإسلامي يشمل جميع متطلبات الحياة، ويبين الحكم لكل ما يحتاجه الفرد والمجتمع، وينظم علاقة الفرد بربه، وعلاقة الإنسان

بنفسه، وعلاقته بمجتمعه، ويسعى لتحقيق الصلاح له في الدنيا والآخرة، وتأمين المصالح وجلبها، ودفع المضار والتحذير منها، على مستوى الفرد والدولة، والأمة والشعوب والمجتمع، والعلاقات الدولية، والعالم أجمع، لذلك يشمل الفقه الإسلامي: العبادات، والمعاملات المالية، والأحوال الشخصية، والأحكام الجنائية، والقضائية، والدستورية، والدولية، والمالية، والاقتصادية، مع ارتباطه الوثيق بالعقيدة والإيمان، ويمتزج بالأخلاق والقيم، ويقيم التوازن بين الفرد والمجتمع، والدنيا والآخرة، والجسم والعقل والروح، لذلك كان الفقه الإسلامي صالحاً للتطبيق الدائم، والبقاء الخالد في كل زمان ومكان.

وظهرت في الفقه مدارس متعددة، لكل منها منهجها وطريقتها في استنباط الأحكام من المصادر الشرعية، وتدوين الأحكام، وتفريعها، وأشهرها المذاهب الأربعة المعروفة في العالم الإسلامي، وهي المذهب الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي، بالإضافة إلى المذهب الجعفري في إيران، والمذهب الزيدي في اليمن، والمذهب الإباضي في بعض مناطق شمال أفريقيا وعُمان[1].

والمذهب الشافعي نسبة إلى الإمام محمد بن إدريس الشافعي المطلبي القرشي (٢٠٤ هـ) ويعتمد في مذهبه على الأصول الأربعة: القرآن والسنة والإجماع والقياس، ويأخذ بالاستصحاب عند الحاجة، ويرجع إلى قول الصحابي والعرف والمصالح وسد الذرائع في بعض الأحيان، ويرد الاستحسان والاستصلاح وعمل أهل المدينة.

وينتشر المذهب الشافعي في مصر وبلاد الشام، وبعض مناطق الجزيرة العربية، وإيران، وجنوب شرقي آسيا، وظهر فيه علماء أعلام،

---

(١) انظر دراسة مكثفة ومختصرة عن الفقه الإسلامي ومذاهبه وعلمائه وكتبه في (مرجع العلوم الإسلامية ص ٣٦١ وما بعدها).

وفقهاء متعددون، وله كتب كثيرة، وموسوعات مخطوطة ومطبوعة، وأحد علمائه وفقهائه والمصنفين فيه شيخنا العز بن عبد السلام.

مساهمة العز في علم الفقه:

تعرضنا سابقاً في سيرة العز الشخصية إلى طلبه للفقه، ومشايخه فيه، وتلامذته، وثناء العلماء عليه في الفقه وأهم كتبه، وتوليه للقضاء، ونلخص ذلك بإيجاز للإفادة.

توجه العز ـ أول ما بدأ بالتعلم ـ إلى علم الفقه، فحفظ «التنبيه» للشيخ الشيرازي في مدة يسيرة[1]، وقصد أشهر فقهاء عصره بدمشق كفخر الدين بن عساكر شيخ الشافعية بالشام، وفقيه زمانه، وقاضي القضاة ابن الحرستاني، وغيرهما، فأخذ الفقه عنهم حتى برع فيه، وفاق الأقران، وقال عنه زميله ومعاصره ابن الحاجب «إنه أفقه من الغزالي»[2]، وقال ابن كثير: «وبرع في المذهب. . . ، وانتهت إليه رياسة الشافعية»[3]، وعكف الشيخ العز على دراسة الفقه ومراجعته حتى قال: «مضت عليَّ ثلاثون سنة لا أنام حتى أُمرّ أبواب الأحكام على خاطري»[4].

ثم قام بتدريس الفقه بأسلوب رفيع، وطريقة مشوقة، حتى قال فيه معاصره أبو الحسن الشاذلي: «ما على وجه الأرض مجلس فقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام»[5]، وتخرج على يدي العز جلة

---

(١) انظر التعريف بكتاب التنبيه وأهميته، والترجمة المختصرة لمؤلفه الشيرازي في (مرجع العلوم الإسلامية ص ٤٢٩، ٥١٥) وإذا أطلق «الشيخ» في كتب المذهب الشافعي فهو المراد.

(٢) انظر: حسن المحاضرة ١/٣١٥.

(٣) البداية والنهاية ١٣/٢٣٥، وانظر: فوات الوفيات ١/٥٩٤، حسن المحاضرة ١/٣١٥.

(٤) رفع الإصر عن قضاة مصر، لابن حجر ٢/٣٥٠، طبقات المفسرين ١/٣١٣.

(٥) حسن المحاضرة ١/٣١٥.

من فقهاء الأمة، كابن دقيق العيد الذي يعتبر مجدد القرن الثامن[1]، وابن المنيِّر، ويقول فيهما الشيخ العز: «الديار المصرية تفتخر برجلين في طرَفيها: ابن دقيق العيد بقوص، وابن المنيِّر بالإسكندرية»[2]، والعلامة القرافي، ونقل السيوطي فقال: «أجمع المالكية والشافعية على أن أفضل عصرنا بالديار المصرية ثلاثة: القرافي، وناصر الدين بن المنيِّر، وابن دقيق العيد»[3]، والثلاثة من تلاميذ العز، وقال الكتبي وغيره: «وقصده الطلبة، وتخرج به أئمة»[4].

كما مارس العز الفتوى لبيان الأحكام الشرعية في المسائل الجليلة والصغيرة، واشتهر في ذلك، وكانت مواقفه المشهورة في الفتوى أمام الملوك والحكام والسلاطين مضرب المثل، وتتوقف المجالس وحسم القضايا على فتواه، ولذلك قال ابن كثير عنه: «وقصد بالفتوى من الآفاق»[5]، ودونت فتاويه كما سبق في كتبه، وكما سنرى بعد قليل، وسمي في دمشق بمفتي الشام[6]، واستمر على ذلك بعد رحلته إلى مصر، حتى امتنع مفتيها الشيخ زكي الدين المنذري من الإفتاء لأجل الشيخ العز، وقال: «كنا نفتي قبل حضوره، وأما بعد حضوره، فمنصب الفتيا متعيِّن فيه»[7]، وقال الكتبي وابن تغري بردي: «وله الفتاوى السديدة»[8].

وتعامل العز أيضاً مع الفقه مباشرة في التطبيق العملي في الحياة، فتولى القضاء بدمشق، كما تولى منصب قاضي القضاة في مصر، ليمارس

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٩/٢٠٩، حسن المحاضرة ١/٣١٨.
(٢) حسن المحاضرة ١/٣١٦. (٣) المرجع السابق.
(٤) فوات الوفيات ١/٥٩٤، وانظر شذرات الذهب ٥/٣٠١.
(٥) البداية والنهاية ١٣/٢٣٥. (٦) الذيل على الروضتين ص ١٧٠.
(٧) حسن المحاضرة ١/٣١٥، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/٨٥.
(٨) فوات الوفيات ١/٥٩٤، النجوم الزاهرة ٧/٢٠٨.

الإشراف الواقعي في تطبيق الأحكام الشرعية على الناس، لتأمين مصالحهم، وحفظ حقوقهم، ومنع الاعتداء عليهم، ووضع الحدود بينهم، كما سئل العز رحمه الله تعالى كثيراً عن شروط القضاة، وأحكامهم، وما يصدر عنهم، وأجاب عن ذلك بمقتضى الشرع[1].

ثم تجلت مساهمة العز في علم الفقه بتصنيف عدد من الكتب الفقهية التي مرت معنا، وسوف نعود لدراستها بعد قليل، ولم تقتصر هذه المساهمة في الكتب الفقهية فحسب، بل تجلت أيضاً في سائر كتبه عامة كما مرَّ، وفي كتب أصول الفقه خاصة كما سنرى.

ولم يقف الشيخ العز عند هذا الحد، بل تجاوز ذلك، وبلغ رتبة الاجتهاد، وكان يفتي في المذاهب الأربعة، وكان في آخر عمره لا يتعبد بالمذهب، بل اتسع علمه واجتهاده، وأفتى بما أدى إليه اجتهاده، ووضع قواعده في أصول الفقه، وصنف فيه، مما سنفرد له الفصل التالي.

ونحصر بحثنا هنا على كتب العز الفقهية.

كتب العز الفقهية:

صنف العز رحمه الله عدة كتب في الفقه والفتاوى، وكانت كتبه متنوعة، فبعضها كبير وواسع، ويعتبر مرجعاً ومصدراً في الفقه على المذهب الشافعي، وبعضها رسائل صغيرة في أبواب فقهية محددة، وبعضها جمع للفتاوى التي أصدرها جواباً للأسئلة التي وردت عليه من الموصل ومصر.

ونسارع إلى القول: إن كتب العز الكبيرة لم تر النور بعد، فأحدها لم يكمل، ولم يرد ذكره في فهارس المخطوطات، ولعله فقد، وهو كتاب «الجمع بين الحاوي والنهاية» والثاني «الغاية في اختصار النهاية» لا يزال

---

(١) انظر فتاوى سلطان العلماء ص ١١٩ وما بعدها، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٨ وما بعدها.

مخطوطاً، ينتظر اليد الحانية، والرعاية العطوفة لتحقيقه ونشره، وكذلك رسالته في «أحكام الجهاد وفضله» لا تزال مخطوطة، أما بقية رسائله وفتاويه فقد لقيت العناية، والدراسة، والتحقيق، والطباعة، والنشر.

١ ـ الغاية في اختصار النهاية:

وهو كتاب كبير في خمس مجلدات كبيرة، اختصر فيه أشهر كتب الفقه الشافعي، وهو «نهاية المطلب في دراية المذهب» لإمام الحرمين الجويني (٤٧٨ هـ)، ويقع في ٢٧ مجلداً[١]، فاختصره بترك التفريعات والاستطرادات، والاهتمام بالموضوع الفقهي مع ذكر الأدلة الواردة فيه، وذكر أقوال أئمة المذهب وأدلته، وبيان رأي الجويني نفسه ودليله، والتعقيب برأي العز الموافق أو المخالف ودليله، وقد يخالف العز رأي الإمام الشافعي، ويبين حجته في ذلك.

وكتاب الشيخ العز، كما يظهر من عنوانه وأصله، يدل على الجهد الكبير الذي مارسه العز في فقه المذهب الشافعي، والوقت الطويل الذي عاشه مع كتاب الجويني، وأدرك أحكامه وأسراره وأدلته، ثم اختصره، اتباعاً لطريقة المختصرات التي كانت شائعة في ذلك العصر، وما حصل للعز بهذا العمل من ملكة فقهية كبيرة، وحصيلة واسعة لأحكام المذهب وأدلته، وأقوال أئمته وفقهائه، مع ما أضفى عليه من أسلوب مشرق، وتركيز على أهم الأحكام، واقتصار على الأقوال الراجحة في المذهب.

٢ ـ الجمع بين الحاوي والنهاية:

وهذان الكتابان «الحاوي» للماوردي، و«نهاية المطلب» للجويني

---

(١) انظر ترجمة إمام الحرمين الجويني، وتعريفاً مختصراً بكتابه في (مرجع العلوم الإسلامية ص ٣٤١، ٥١٦، الإمام الجويني ص ٤١، ١٢٥ وما بعدها)، وانظر: البداية والنهاية ١٣/٢٣٥، طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٨، العز للوهيبي ص ١٥٠.

من أعظم كتب الفقه الشافعي، فالأول يقع في ٢٤ مجلداً كبيراً، والثاني يقع في ٢٧ مجلداً، وهما أهم كتب الشافعية وأوسعها، ولم يطبعا حتى الآن، وكتاب العز «الجمع» بينهما لم يكمل، كما قال ابن السبكي، ولم يرد في فهارس المخطوطات المتوفرة[1]، ولكن مجرد محاولة العز للجمع بين هذين الكتابين، وشروعه بذلك يدل على معايشته الكبيرة لكتب الفقه الشافعي، وتخصصه بذلك، وقراءته لهما، ومعرفته لأهميتهما، وإدراكه لمكانتهما الفقهية، وإن لم يقطع في الكتاب شوطاً كبيراً، ومع ذلك فإنه يدل على ثقافته الواسعة بالفقه الشافعي خاصة، والفقه المقارن عامة، لوجود المقارنة في الكتابين مع بقية المذاهب.

٣ ـ أحكام الجهاد وفضله:

وهو رسالة في الجهاد وأحكامه وفضله، وتقع في ثماني ورقات، ولا تزال مخطوطة، وتظهر أهميتها من موضوع الجهاد ومكانته في الإسلام، والظروف المحيطة في عصر العز من التقاء الشرق التتري والغرب الصليبي على مهاجمة بلاد المسلمين، والعدوان عليهم، فكانت الحاجة ماسة لتذكير المسلمين، حكاماً ورعية، بأحكام الجهاد وفضله، ليهبوا للدفاع عن أرضهم ودينهم، وأموالهم وأعراضهم، وهذا ما حدث فعلاً وتحقق الانتصار العظيم في تحرير بيت المقدس وطرد الصليبيين، ثم في الانتصار الباهر على التتار، وهذا ما يتكرر في كل عصر، مما يبين الحاجة إلى التذكير بأحكام الجهاد، وخاصة من أمثال العز بفقهه وعلمه ومكانته ومشاركته في جهاد اللسان والجسم والمال كما سبق.

٤ ـ مقاصد الصلاة:

وهي رسالة صغيرة عن فضل الصلاة، وبيان شرفها، وأنها أفضل

---

(١) انظر ترجمة الماوردي، والتعريف بكتابه في (مرجع العلوم الإسلامية ص ٤٢٨، ٥١٣)، وانظر: طبقات الشافعية الكبرى ٢٤٨/٨. العز، للوهيبي ص ١٥٠.

العبادات بعد الإيمان بالله تعالى، وفيها: معنى قرب الله تعالى من خلقه، والتفاضل بين العبادات، ومتعلقات الصلاة، ثم مقصود العبادة، وشرف الصلاة وفضلها، وأفعال القلوب في الصلاة، والحقوق فيها، ومقاصد الأقوال في الصلاة، ومقاصد أفعالها، والصفات في القراءة، ومعنى الدعاء بين السجدتين، والتشهد، والصلوات الإبراهيمية، ودعاء القنوت.

وحققها الأستاذ إياد الطباع، وتقع في ٢٧ صفحة صغيرة بخط المحقق، وهي تحت الطبع.

ولما دخل الشيخ شمس الدين سِبط ابن الجوزي، وكان واعظ الزمان، وذا مكانة عند الحكام، وقبول عند الناس، لما دخل على السلطان الملك الأشرف ناوله «مقاصد الصلاة» وقال الملك: اقرأها، فقرأها بين يديه، وقال: «لم يُصنِّف أحد مثلَها» فقال له: طرّز مجلسك الآتي بذكرها، وحرِّض الناس عليها، فلما صعد المنبر قال: اعلموا أن أفضل العبادات البدنية الصلاة، وهي صلة بين العبد وربّه، فعليكم بمقاصد الصلاة، تصنيف ابن عبد السلام، فاسْمَعوها وعُوها واحفظوها، وعلّموها أولادكم، ومن يعزّ عليكم، وكان لها وقع عظيم في ذلك المجلس، وكتب منها من النسخ ما لا يحصى عدده[1].

٥ ـ مقاصد الصوم:

وهي رسالة صغيرة أيضاً تقع في خمس ورقات، وفيها عشرة فصُول، بيّن فيها العز: وجوب الصوم، وفضله وفضائله، وآدابه، وما يتجنب فيه، والتماس ليلة القدر، والاعتكاف فيه، وإتباع رمضان بست من شوال، والصوم المطلق، وصوم التطوع وعاشوراء، والأيام المنهي عنها: بعد انتهاء نصف شعبان، واستقبال رمضان بيوم أو يومين، وصوم يوم

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٣٩ بتصرف، وانظر: الإمام العز، للفقير ص ٣٣١، العز، للوهيبي ص ١٤٥.

الشك، وصوم العيدين وأيام التشريق، وإفراد يوم الجمعة بالصيام.

وقرن العز هذه الأحكام بالأدلة والنصوص من القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، والترغيب بالصيام المشروع، والترهيب من المنهي عنه، والحكمة من كل ذلك.

وحقق الأستاذ إياد الطباع هذه الرسالة، وأطلعني عليها بخط يده في ثلاث وثلاثين صفحة بحجم متوسط، وهي تحت الطبع الآن.

٦ - مناسك الحج:

وهي رسالة صغيرة في خمس ورقات، قصد منها العز أن تكون رفيق الحاج ودليله منذ مغادرته بلده، وحتى عودته إليه، فبدأ العز بآداب السفر، والاستخارة له، والأذكار الواردة للمسافر في الصباح والمساء، وعند الفراش والاستيقاظ، والصعود والنزول، وعند رؤية ما يخاف منه، وإذا هبّت الريح، ثم شرع في بحث قصر الصلاة للمسافر، ثم ببحث الحج وأحكامه.

فبيَّن العز الإحرام، ومحظورات الإحرام، والفدية للمتمتع والقارن، وإحرام المرأة، والدخول إلى مكة، والطواف بالبيت الحرام، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة، والوصول إلى منى ورمي جمرة العقبة، والمبيت بمنى ورمي الجمار أيام التشريق، وأركان الحج وواجباته وسننه، ومغادرة مكة، ثم بيَّن العز أحكام العمرة، وزيارة رسول الله ﷺ، كل ذلك باختصار وتركيز وإجمال للأحكام مع الأدلة بإيجاز.

وقام الأستاذ إياد الطباع بتحقيق هذه الرسالة، وأطلعني عليها بخط يده في أربع وعشرين صفحة بحجم الوسط، ودفعها للطباعة.

٧ ـ الترغيب عن صلاة الرغائب:

وهي رسالة مطبوعة، كما ذكرنا سابقاً في «فصل إنتاج العز»، كتبها العز للرد على من يدعي مشروعيتها، وبيَّن أنها بدعة مكروهة، لأن الحديث الوارد فيها موضوع، وأن «العلماء الذين هم أعلام الدين، وأئمة المسلمين، من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين وغيرهم، وممن دوَّن الكتب في الشريعة... لم ينقل عن أحد منهم أنه ذكر هذه الصلاة، ولا دوَّنها في كتبه، ولا تعرّض لها في مجالسه»(١) وذكر العز أحد عشر دليلاً على بطلانها، واعتبرها من البدع المنكرة، ولذلك قدم لرسالته ببيان أنواع البدع، وموقف الشرع منها، وموقف العلماء والعوام منها.

وذكر الشوكاني حديث صلاة الرغائب، ثم قال: «هو موضوع، ورجاله مجهولون، وهذه هي صلاة الرغائب المشهورة، وقد اتفق الحفاظ على أنها موضوعة، وألفوا فيها مؤلفات...، وأول من رد من المعاصرين... ابن عبد السلام»(٢).

وخالف ابن الصلاح في ذلك، وكتب في الترغيب بها، فردَّ عليه العز برسالة أخرى، لأن النور في الصلاة مخصوص بالمشروعة، وصلاة الرغائب مخالفة للصلاة المشروعة، وهي بدعة مخالفة للشرع، والعبادات مبناها على الاتباع، لا على الابتداع، وذكرنا سابقاً أن هذه الرسائل مطبوعة أكثر من مرة، ومعها فتاوى بعض العلماء بتأييد العز، كفتوى الشيخ النووي محقق مذهب الشافعية(٣).

ويظهر من قراءة هذه الرسالة أسلوب العز في الكتابة الفقهية، وتركيز المعلومات، وإيراد الحجج والبراهين، والالتزام بالأدلة التي وردت في

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٥٥.
(٢) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ص ٥٨.
(٣) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٥١، المجموع شرح المهذب ٨/٤٢٧.

الشرع، ودوَّنها السلف، وسار عليها العلماء وقدوة المؤمنين، حتى احتج بعمل الملتزمين بالسنة في عصره، فقال: «وهذه الصلاة لا يصليها أهل المغرب الذين شهد رسول الله ﷺ لطائفة منهم أنهم لا يزالون على الحق حتى تقوم الساعة، وكذلك لا تفعل بالإسكندرية، لتمسكهم بالسنّة، ولما صح عند السلطان الملك الكامل رحمه الله أنها من البدع المفتراة على رسول الله ﷺ، أبطلها من الديار المصرية، فطوبى لمن تولى شيئاً من أمور المسلمين فأعان على إماتة البدع، وإحياء السنن»(١).

٨ ـ الفتاوى الموصلية:

وهي أجوبة عن تسعين سؤالاً، وجهت إليه من خطيب الموصل، وتشمل مختلف أبواب الفقه، وبعض الأسئلة في علم الكلام والتفسير وموضوعات أخرى.

٩ ـ الفتاوى المصرية:

وهي فتاوى عن أسئلة في الفقه والأصول والتفسير والعقيدة سئل عنها العز بمصر، وقال عنها ابن السبكي: «وهي مجموع مشتمل على فنون من المسائل والفوائد»(٢).

وذكرنا سابقاً أن الأستاذ مصطفى عاشور جمع بين فتاوى العز الأولى والثانية، واشتملت على ١٢١ مسألة، وقام بتحقيقها، وطبعها، ونشرتها مكتبة القرآن بالقاهرة، سنة ١٩٨٧ م، وجاءت في ١٦٠ صفحة من الحجم العادي بعنوان «فتاوى سلطان العلماء، العز بن عبد السلام»، واعتمد على مخطوطتين في دار الكتب المصرية والمكتبة التيمورية فيها.

واشتمل هذا الكتاب على فتاوى في: التوحيد والإيمان والسنة

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٥٥.

(٢) انظر: فهرس فتاوى سلطان العلماء ص ١٥٦ ـ ١٦٠، وللكتاب مقدمة للمحقق تقع في ١٤ صفحة.

والعلم، وفي العبادات، وفي المعاملات والآداب والحدود والقضاء، وفي الطعام والشراب واللباس والزينة، وفي الزواج والطلاق(١)، كما قام الأستاذ عبد الرحمن بن عبد الفتاح بتحقيق الفتاوى للعز، وهي نفس الفتاوى السابقة التي تجمع الفتاوى الموصلية والفتاوى المصرية، وجاءت في ١٢١ مسألة، واعتمد المحقق على نفس المخطوطتين السابقتين، ومخطوطة ثالثة في دار الكتب المصرية(١).

والأجوبة مختصرة، وبعضها يقترن بالدليل من القرآن والأحاديث، وبعضها يعالج كثيراً من دعاوى العامة المتلبسة بالدين، وبعضها يكشف عن البدع والافتراءات اللاصقة بالشرع، وعلى الجملة فهي فتاوى مفيدة ونافعة وعملية، وفيها تصحيح لسلوك المسلم، وتصويب لمساره، ودعوته للالتزام بما ثبت في الشرع، وطرح ما يخالفه.

والخلاصة أن العز رحمه الله تعالى كان فقيهاً شافعياً، وخدم المذهب الشافعي بكتبه ورسائله وفتاويه، وأنه يعتمد المنهج القويم بالالتزام بما ثبت عليه الدليل، ولكنه لم يلتزم بالتقليد الأعمى، والاتباع الكامل لأحكام المذهب، فقد كانت له شخصيته الفذة، وفكره الحر، فخالف الإمام الشافعي في بعض الحالات، وخالف إمام الحرمين الجويني في آراء أخرى، فكان الدليل رائده، ولم يتقيد بالمذهب، وقد بلغ رتبة الاجتهاد، وهو ما نعرضه في الفصل التالي.

ويضاف إلى ما سبق فتاوى العز التي قالها أمام السلاطين والملوك في دمشق ومصر عند الاستعداد لمواجهة الفرنج والتتار، وحكم الجهاد

(١) قدم المحقق عبد الرحمن عبد الفتاح بمقدمة للتحقيق في ٣٠ صفحة، وخرج الأحاديث، واقتبس في الهوامش بعض فتاوى النووي وفتاوى ابن الصلاح والفتاوى المصرية لابن تيمية، ومن كتب ابن حجر وابن قدامة وغيرهما، وعمل ثلاثة فهارس، ولكن ترتيب المسائل عنده يختلف عن ترتيبها في «فتاوى سلطان العلماء»، وجاءت الفتاوى من (ص ٣١ - حتى ص ١٧٤) والفهارس (ص ١٧٥ - ٢٠٣).

والاستعداد، وشروط جمع الأموال وجباية الضرائب من الشعب استعداداً للقتال، وفتواه في منع بيع السلاح للفرنج في دمشق؛ لأنهم سيقاتلون به المسلمين، وفتواه في عزل السلطان الصغير الذي يعجز عن تدبير شؤون الدولة والأمة في الوقت الذي يهدد فيه التتار حدود مصر لاحتلالها، واجتثاث آخر سلطة للمسلمين، وغير ذلك من الفتاوى الجريئة التي كانت منهجاً سديداً لتطبيق الشرع في رعاية مصالح الدين والدنيا.

ولم يُؤْثر عن الشيخ العز شيء من أحكامه القضائية في الدعاوى الشخصية، والحقوق الخاصة، وفصل المنازعات والخلافات، إما لأنه لم يمارس الوظيفة القضائية عملياً، وإما لأنها قليلة، أو لا تذكر أمام مواقفه الخالدة والمشهورة، وثروته العلمية والفقهية، ولكنه كان قاضياً للقضاة، فيدير أمور المحاكم والقضاة، ويشرف عليهم، ويرسم لهم الطريق السوي، ويوجههم إلى الحق، فإن كانت الأمور جسيمة بادر إلى الفصل فيها مباشرة، كما مرَّ معنا في هدم الطبلخانة وإسقاط عدالة الوزير، وكتب فقرات كثيرة في كتبه عن الغاية من القضاء، وشروط القاضي، وأهم الوسائل والغايات منه.

نماذج من فتاوى العز:

أجاب العز رحمه الله تعالى في **قسم التوحيد والإيمان والسنة والعلم** عن عدد من الأسئلة، بدأها بفتوى عن بيان معنى الحديث الموقوف عن ابن مسعود «ما رآه المسلمون حسناً، فهو عند الله حسن»، وأن المراد بالمسلمين أهل الإجماع (ص ١٩)، ثم أفتى بأنه لا يحرم رد السلام على من يقول بخلق القرآن؛ لأنهم مسلمون، بل يجب رد السلام عليهم، كما يجب على غيرهم، وبيَّن المراد من النهي عن كتم العلم، بأنه العلم الذي يجب تعلمه في علوم الشرع، وأنه لا يجوز دفع المصاحف والتفاسير ولا كتب الحديث إلى كافر لا يرجى إسلامه، وينكر على فاعله، وأجاب عمن يحبُّ سيدنا عليّ وينتهك المحارم، بحجة أن حبَّه يمحي السيئات

والمعاصي، فقال: «حب علي رضي الله عنه من الإيمان، فمن أحبَّه وأطاع ربه، كان له ثواب حبّه، وأجر طاعته، وكان عند الله من السعداء، ومن أحبه، وعصى ربَّه، كان له حبُّه، وعليه وبال معصية ربه، وكان عند الله من الأشقياء» (ص ٢٤).

وفي الجواب عن **زيادة الإيمان ونقصه**، قال العز رحمه الله بأن الإيمان ضربان: حقيقي وهو ما كان يتعلق بمتحد وحقيقة مفردة كالإيمان بوجود الله، والإيمان بالوحدانية، فهذا لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان، وإن كان الإيمان يختلف متعلقه، كالإيمان بكل صفة، وكل آية، فهذا يزيد وينقص بزيادة متعلقه ونقصانه، وأما الإيمان المجازي، وهو فعل الطاعات، وترك المعاصي، فهذا يزيد بزيادة الطاعات، وينقص بنقصانها (ص ٢٦).

وأجاب عن رؤية الله في الآخرة، وأنه يرى بالنور الذي خلقه في الأعين زائداً عن نور العلم (ص ٣٠).

وأجاب أنه يجوز تقليد كل واحد من الأئمة الأربعة رضي الله عنهم، ويجوز لكل واحد أن يقلد أحدهم في مسألة، ويقلد إماماً آخر منهم في مسألة أخرى، ولا يتعين عليه تقليد واحد بعينه في كل المسائل، ولا يجوز تتبع الرخص (ص ٣٨).

ولا يجوز ترك السنة لمشاركة المبتدعين فيها، إذ لا يترك الحق لأجل الباطل (ص ٣٩)، وإذا صح عن بعض الصحابة مذهب في حكم من الأحكام لم يجز مخالفته إلا بدليل أوضح من دليله، ولا يجب على المجتهدين تقليد الصحابة في مسائل الخلاف (ص ٤٠).

وقال العز: لم يصح في تلقين الميت شيء، وهو بدعة، والحديث محمول على من دَنَا موته، ويُئس من حياته، فأما ثواب القراءة فمقصور على القارىء لا يصل إلى غيره (ص ٤٣).

وقال: «**لا خير في ورع يؤدي إلى إسقاط فرائض الله عزّ وجلّ**» (ص ٤٨).

وفي **العبادات** أجاب العز رحمه الله تعالى بأن أمر الرسول بالمحافظة على الصلوات أول الوقت، ولم يأمر بالمحافظة على الأداء، لإجماع المسلمين على أن تأخير الأداء بغير عذر شرعي غير جائز (ص ٦٥).

وسئل العز عن الصلاة على الميت بعد الغسل، أو بعد الحمل إلى المصلى، فقال: الأوْلى أن يحمل إلى المصلى، لأنه فعل الخلف والسلف، لأن الحمالة يكثرون. . .، وفي سؤال عن المداومة على العبادة قال العز رحمه الله تعالى: «لا يمقت الرب أحداً من عباده، إلا على ترك الواجب وإنكار الحرام، وقال عن التلحين في الأذان: نعم يجاب المؤذن إن لحّن الأذان، . . . وإن أمكن الإنكار عليه باللسان أنكر، . . . وتلحين القرآن أعظم إثماً من تلحين الأذان، وأبْعَد من أجاز تلحين القرآن من العلماء» (ص ٦٧).

وسئل عن صلاة التراويح في جماعة، فقال: صلاة التراويح في الجماعة أفضل منها في الانفراد، وكذلك فعل الصحابة رضي الله عنهم تداوله الناس من بعدهم، **والخير في اتباع السلف**، . . . وقراءة القرآن فيها أفضل من تكرير سورة الإخلاص، لأن ذلك مسنون منقول، وليس تكرير سورة الإخلاص مسنوناً في الصلاة، وإن فُعل فلا بأس (ص ٦٨).

وفي السؤال عن الجهر في النوافل، قال العز رحمه الله تعالى: السنة في سنن الفرائض الإسرار في الليل والنهار، وعليه عمل أهل الأمصار.

وعن ذكر الشعر في الخُطبة قال: لا تذكر الأشعار في الخُطبة، لأنه من أقبح البدع (ص ٧٢)، وقال عن لباس الخطيب الألبسة السوداء: أحب الثياب إلى الله البياض، وقد لبس رسول الله ﷺ عمامة سوداء يوم فتح مكة

(أخرجه أحمد والترمذي)، والمواظبة على لبس السواد بدعة (ص ٧٣) إلى غير ذلك، وقال: السنة تسطيح القبور، والتختم في الأيمان (ص ٨٩).

وفي **المعاملات والآداب والحدود والقضاء**، قال العز رحمه الله تعالى: «لا بأس بقيام الإكرام للناس» (ص ٩٩)، وقال: «ومن فعل طاعة لله تعالى، ثم أهدى ثوابها إلى حي أو ميت لم ينتقل ثوابها إليه، إذ ليس للإنسان إلا ما سعى، فإن شرع في الطاعة ناوياً أن يقع على الميت (فلا تصح) عنه، إلا فيما استثناه الشرع، كالصدقة، والحج، والصوم» (ص ١٠٤).

وسئل عن الإنشاد، والتواجد، والرقص، والسماع، فقال رحمه الله: «الرقص بدعة، لا يتعاطاه إلا ناقص العقل، ولا يصلح إلا للنساء، وأما سماع الإنشاد المحرك للأحوال السيئة بما يتعلق بالآخرة فلا بأس به، بل يندب إليه عند الفتور، وسآمة القلوب، لأن الوسائل إلى المندوب مندوبة، **والسعادة كلها في اتباع الرسول ﷺ، واقتفاء أصحابه**، الذين شهد لهم بأنهم خير القرون...، والسماع يختلف باختلاف السامعين والمسموع منهم...» (ص ١٠٧).

وقال العز رحمه الله: «من تحتم قتله بذنب من الذنوب، لم يجز له أن يقتل نفسه، وستره على نفسه مع التوبة أولى» (ص ١١٦)، وسئل عن **حكم القضاة غير الملتزمين بشرائع الإسلام**، فقال: «من لا أهلية له من القضاة والولاة، إذا حكموا بحق، وأمروا به، أو دفعوا منكراً، ونَهَوا عنه، أو تصرفوا لمجانين، أو للغيّب والأيتام، وأقاموا في جميع ولايتهم بما يوافق الحق والصواب، فإننا ننفذه تحصيلاً لمصالح أهل الإسلام....، وكذلك تصرفات الملوك والولاة الجائرين، ننفذ منها ما وافق الحق والصواب، ونردّ منها ما ليس بحق» (ص ١١٩).

وسئل عن القيام للآخرين عند قدومهم، فقال رحمه الله تعالى: «لا بأس بالقيام لمن رُجي خيرُه، أو يُخاف شره من أهل الإسلام، وأما الكفار فلا يقام لأحد منهم...، وأما إكرامهم بالألقاب الحسان فلا يجوز إلا لضرورة، أو حاجة ماسة» (ص ١٢٣).

وسئل: هل لقضاة عصرنا أن يحكموا بما يُؤثرون (يفضلون) من المذاهب، أم يتوقف ذلك على بلوغهم درجة الاجتهاد ومرتبته، ولعل أحدهم يقول: أختار هذا الوجه، وألغي هذا الوجه؟ فأجاب العز رحمه الله: «ليس ذلك لقضاة هذا الزمان، لأنهم يفعلون ذلك بناء على أغراض فاسدة، ولا سيما من ليس له أهلية الاجتهاد» (ص ١٢٧).

وسئل عن شروط المفتي، فقال: «يشترط في المفتي والحاكم أن يكون مجتهداً في أصول الشريعة، عارفاً بمآخذ الأحكام، فإن عجز عن ذلك، فليكن مجتهداً في مذهب من المذاهب، فإن عجز عن ذلك فله أن يفتي بما يتحققه، ولا يشك فيه، وما يبرح عن ذلك، فإن كان خطؤه فيه بعيداً نادراً جاز له الفتوى والحكم، وإلا فلا» (ص ١٢٧).

وسئل عن القرض الذي يجر منفعة؟ فقال رحمه الله: «القرض الذي يجر منفعة هو القرض الذي يَشترط فيه المقترض منفعة لنفسه، فإن لم يشترط ذلك، وردَّ أفضل مما أخذ، فهذا من باب مكافأة الإحسان بالإحسان»، وقد قال عليه السلام: «خيركم أحسنكم قضاء» (ص ١٢٩).

وفي قسم الطعام والشراب واللباس والزينة، سئل عن اللحم يُشترى من السوق، ثم يطبخ من غير غسل...؟ فقال رحمه الله تعالى: «لا يحكم بنجاسته، والورع أن لا يؤكل حتى يغسل» (ص ١٣٧).

وسئل عن تعليق الحرز في رقاب الخيل؟ فقال: «هذه بدعة، وتعريض لكتاب الله للإهانة، بما يتعلق به من النجاسة، ولم يكن الصحابة يصنعون شيئاً من ذلك» (ص ١٤٢).

وفي قسم الزواج والطلاق: سئل عن ولاية الفاسق لعقد النكاح؟ فقال رحمه الله: «الأصح أن الفسق لا يمنع من ولاية النكاح، لأن العدالة شُرطت من الولاية، حثاً للولاة على القيام بمصالح الولايات، ودفع مفاسدها، وطبع الولي يحثه على تحصيل مصالح النكاح، ويزعه عن إدخال العار على نفسه وعلى وليه، **والوازع الطبعي أقوى من الوازع الشرعي**» (ص ١٥١).

وسئل عن تزويج الولي موليته ممن لا يواظب على الصلاة؟ فقال رحمه الله تعالى: «لا يجوز ذلك إجباراً، ويجوز برضاها إن كانت ممن يعتبر رضاها، ويكره كراهة شديدة إلا أن يخاف من فاحشة، أو ريبة، ولا ينعقد النكاح إلا بحضور عدلين مستورين، يغلب على الظن عدالتهما» (ص ١٥٢).

ويظهر من هذه النماذج من فتاوى العز حرصه على الالتزام بالكتاب والسنّة، وما ثبت عن الصحابة والسلف، وما شاع وانتشر في العالم الإسلامي، وعرف من الدين بالضرورة، وأنه يجمع في الاستدلال والتعليل بين النقل والعقل، والنصوص والمصالح، بما يتفق مع مقاصد الشريعة، ويحقق النتائج العملية لأحكام الدين.

كما يظهر أن الشيخ العز بن عبد السلام لم يكن مفتياً كأكثر المفتين في عصرنا الحاضر، ولم يقتصر على بيان الحكم الشرعي للأفراد، إن وجه إليه سؤال في العبادات، أو عرضت له قضية في الزواج والطلاق والميراث، وإنما كان مفتياً لكل أحكام الشرع، وكل مشتملات الفقه الإسلامي، وكانت توجه إليه الأسئلة من الأقاليم والأطراف والبلدان، ويبين حكم الشرع في كل ما يستجد من أحداث وقضايا ووقائع حتى في أمور الجهاد والحرب والقتال وجباية الأموال، ومبايعة الخليفة وتعيين الأمراء والسلاطين.

وفوق كل ذلك لم يكن العز مفتياً لتسويغ التصرفات المنحرفة أو الجائرة على الشعب، وتأييد الحكام والأمراء بالأحكام الشرعية التي توافق هواهم، أو تتفق مع آرائهم السياسية، كما لم يقتصر على السكوت بغية السلامة، كما يفعل مفتو اليوم، بل كان الشيخ عز الدين مفتياً لبيان الحكم الشرعي الإلهي السماوي فيما يخص الدولة والأمة والوطن والشعب والأفراد، ويبين حكم الله ودينه في كل ذلك، سواء وافق هوى الحاكم أم خالفه، فالحق والشرع والدين فوق الخلفاء والحكام والسلاطين والأمراء، ومقدمة عليهم، وهي الأصل لتكون متبوعة، لا تابعة، ويكون الشعب والحكام من ورائها ملتزمين وتابعين ومنفذين، ويكون العلماء والدعاة والمفتون مراقبين على صحة التطبيق والتنفيذ.

ومن هنا فحُقَّ للعز أن يوصف بجدارة بأنه «مفتي الشام» وأن «يقصده الناس بالفتاوى من الآفاق» وأن يكون «سلطان العلماء» وأن تكون «له الفتاوى السديدة» وأن يُخلد اسمه، وتبقى ذكراه عطرة على مر التاريخ، وأن يكون شعاراً لمدرسة إسلامية متميزة في العالم، وفوق كل ذلك أن ينال الأجر العظيم، والثواب الجزيل عند رب العالمين.

ولا تكتمل صورة العز الحقيقية كفقيه إلا بعد التعرف عليه مجتهداً وأصولياً في الفصل التالي، ويبدو ـ والله أعلم ـ أن صفته فقيهاً ومفتياً تطغى عليها سيرته الشخصية، لأن كتبه الفقهية، ومنها الفتاوى، لم تكن من الناحية العلمية في المستوى العملي والواقعي في حياته وأثره في المجتمع والأمة، بينما تطغى صفته ـ كمجتهد وأصولي ـ على سيرته العلمية، لما خلف من آثار قيمة في الاجتهاد والأصول.

الفَصْل الرابع
العِزُّ مُجْتَهِداً وأُصُولِيّاً

تمهيد عن الاجتهاد والأصول:

قال الجرجاني: «الاجتهاد في اللغة: بذل الوسع، وفي الاصطلاح: استفراغ الفقيه الوسع ليحصل له ظن بحكم شرعي» وقال أيضاً: «الاجتهاد: بذل المجهود في طلب المقصود من جهة الاستدلال»[1].

وأدق تعريف للاجتهاد ما قاله القاضي البيضاوي، هو «استفراغ الجهد في دَرْكِ الأحكام الشرعية»[2]، فالاجتهاد هو عملية استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية في الشريعة[3].

ويشترط في المجتهد أن يعرف معاني آيات الأحكام لغة وشرعاً، وأن يعرف أحاديث الأحكام لغة وشرعاً، وأن يعرف الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة، وأن يكون متمكناً من معرفة مسائل الإجماع ومواقعه، وأن يعرف وجوه القياس وشرائطه المعتبرة، وعلل الأحكام وطرق استنباطها من النصوص ومصالح الناس وأصول الشرع الكلية، وأن يعلم علوم اللغة العربية من لغة ومعان، ونحو وصرف، وبيان وأساليب، وأن يدرك مقاصد الشريعة العامة في استنباط الأحكام[4].

---

(١) التعريفات ص ٥.
(٢) نهاية السول في شرح منهاج الأصول ٤/٥٢٤.
(٣) انظر: أصول الفقه الإسلامي، للدكتور وهبة الزحيلي ٢/١٠٣٩.
(٤) المرجع السابق ٢/١٠٤٣ وما بعدها.

وأما أصول الفقه فقد عرّفه البيضاوي بأنه: «معرفة دلائل الفقه إجمالاً، وكيفية الاستفادة منها، وحال المستفيد»[1].

والاجتهاد جزء من أصول الفقه، وهو الجانب العملي، والممارسة التطبيقية، والتنفيذ الواقعي لعلم أصول الفقه، هذا العلم الذي يعتبر المنارة الوضاءة بين العلوم الشرعية، وهو علم فريد في تاريخ الشرائع والأمم، وهو مما انفرد به المسلمون في العالم، ويعني العلم الذي يكسب صاحبه معرفة بمصادر التشريع الإسلامي، وكيفية الاستفادة من هذه المصادر في استخراج الأحكام الشرعية واستنباط الأقوال والآراء، وبيان الدليل الصحيح عند التعارض الظاهري، وهذا يرشد إلى شرائط الاجتهاد ليسعى الإنسان العالم إلى تحصيلها، ثم يستعين بطرق الاستدلال وقواعد الاستنباط، ليستنير بها على ضوء الكتاب والسنة ومبادىء اللغة العربية، ولعلم أصول الفقه أهداف سامية، وغايات جليلة، ويتحدد موضوعه في: الأدلة الشرعية الكلية، والأحكام الشرعية الكلية كالوجوب والندب والإباحة والكراهة والتحريم، والاجتهاد وشروط المجتهد وصفاته، والتعارض والترجيح، والدلالات التي تتعلق بمباحث الكتاب والسنة[2].

ونشير هنا أيضاً إلى أن المجتهدين على مراتب، أعلاها المجتهد المطلق المستقل الذي يضع قواعد الاجتهاد، ويستنبط منها الأحكام، وله أتباع كأئمة المذاهب المعروفة، ثم المجتهد في المذهب الذي توفرت فيه شروط الاجتهاد، ولكنه يستخرج الأحكام على مقتضى قواعد إمامه، ولذلك لا يكون مستقلاً بمذهب، بل يكون له آراء في مذهبه، ويسمى في الفقه الشافعي: صاحب وجه في المذهب، ثم المجتهد المقيد، أو مجتهد التخريج للمسائل الجديدة على النصوص أو القواعد المنقولة عن إمام

---

(١) نهاية السول على منهاج الأصول ١/٥.

(٢) انظر تعريف علم أصول الفقه وأهميته وأشهر علمائه، وأهم كتبه في (مرجع العلوم الإسلامية ص ٥٦٥ وما بعدها).

المذهب، ويسمى أيضاً صاحب وجه في المذهب، ثم مجتهد الترجيح الذي لم يبلغ رتبة أصحاب الوجوه، لكنه يحفظ مذهب إمامه، وأدلته، ويستطيع الترجيح بين الأقوال أو الآراء في مذهبه، ثم مجتهد الفتيا الذي يعتمد عليه في حفظ المذهب ونقله والفتوى بالإخبار عن حكم المسائل منه[1].

صلة الفقه بالاجتهاد والأصول:

هذا البحث عن العز مجتهداً وأصولياً هو تكملة للبحث السابق عن العز فقيهاً، لأن الفقيه ـ في الأصل ـ هو المجتهد، وليس مجرد حافظ الفقه، ولأن علم أصول الفقه هو الوسيلة القويمة لمعرفة الفقه، وتكوين الفقيه، واستنباط الأحكام وتحديد المصادر والأدلة الإجمالية، ولذلك لما وضع الإمام الشافعي ـ لأول مرة ـ قواعد علم أصول الفقه، ودوَّن أحكامه ـ جعل كتابه الفريد في الأصول «الرسالة» مقدمة لكتابه الشهير في الفقه «الأم»[2].

ولذلك سنرى أن أشهر كتب العز التي سنعرضها في أصول الفقه مشحونة بالأحكام الفقهية، وهي في حد ذاتها وضعت اللبنات الأولى لعلم القواعد الفقهية، وهي أساس اجتهاده لاستنباط الأحكام، وخاصة في ابتكاره وصياغته لنظرية المصالح.

مساهمة العز في الاجتهاد والأصول:

إن دراسة الفقه، وأصول الفقه هي بداية الطريق للاجتهاد والاستنباط، وهي مقدمة لا بدَّ منها، ويأتي الاجتهاد ـ بعد توفيق الله تعالى وإنعامه وتفضيله ـ مرحلة لاحقة وعالية في الفقه والتفقه، ويكون المجتهد في القمة والذروة التي لا يصل إليها إلا القليل.

وشيخنا العز لم يكن فقيهاً بالمعنى التقليدي في العصر الحاضر

(١) انظر: أصول الفقه الإسلامي، وهبة الزحيلي ١/١٠٧٩ وما بعدها.
(٢) انظر التعريف بالرسالة والأم في (مرجع العلوم الإسلامية ص ٥١١، ٦١٠).

والقرون الأخيرة، بل كان فقيهاً بالمعنى المعروف في القرون الإسلامية الأولى، أي مجتهداً، ووصل إلى القمة، وكانت له جولات مشهودة.

وقد درَس العز أصول الفقه على علامة زمانه، الأصولي البارع، سيف الدين الآمدي، كما سبق، واستفاد منه كثيراً، وتأثر بطريقته في البحث، وأعجب بتفكيره وعقليته الفذة، وأثنى عليه، وتابع العز دراسة الأصول، وممارسة الفقه، وتتبع طرق الاستنباط والاجتهاد حتى صار مجتهداً، واعترف له الجميع بذلك، ولكنه لم يبلغ درجة الاجتهاد المطلق، وتأسيس مذهب مستقل.

فالعز تفقه على المذهب الشافعي، واشتغل فيه معظم حياته العلمية، دراسة وتدريساً، وإفتاء وقضاء، وتصنيفاً، كما سبق، ولكنه لم يتقيد به كما سنرى.

والعز مجتهد في المذهب الشافعي، وصاحب وجه فيه، لأنه اجتهد على ضوء أصول المذهب، قال الكتبي وابن كثير: «وبرع في المذهب»[1] أي المذهب الشافعي، وقال الذهبي: «انتهت إليه معرفة المذهب»[2].

والعز لم يحْصر دراسته في المذهب الشافعي، بل كان له جولات واسعة في مجال الفقه الإسلامي عامة، والفقه المقارن بين المذاهب، والاطلاع عليها، وكان مغرماً بها، حتى قال: «ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل «المحلى» لابن حزم، وكتاب «المغني» للشيخ موفق الدين»[3] أي ابن قدامة، وكلاهما يجمعان فقه علماء الأمصار، وفقه الصحابة والتابعين واجتهاداتهم[4]، ولذلك قال ابن كثير أيضاً عن العز:

---

(١) فوات الوفيات ١/٥٩٤، البداية والنهاية ١٣/٢٣٥.

(٢) العبر ٥/٢٦٠.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء ١٨/١٩٣.

(٤) انظر التعريف بكتابي المحلى والمغني في (مرجع العلوم الإسلامية ص ٥٤٩، ٥٥٧، ٧٤٩).

«ثم كان آخر عمره لا يتقيد بالمذهب (أي الشافعي) بل اتسع نطاقه، وأفتى بما أدى إليه اجتهاده»[1]، كما كان يفتي في المذاهب الأربعة[2].

ثم بلغ العز رتبة الاجتهاد، واعترف له بذلك معاصروه، والمترجمون له، فقالوا: «وبلغ رتبة الاجتهاد»[3]، وقال شيخ الإسلام، المؤرخ الحافظ الذهبي: «وكان أحد المجتهدين»[4]، وسوف نرى في هذا الفصل صحة هذه المقولات بالدراسة المباشرة لكتب العز في الأصول والاجتهاد، كما أن العز توفرت فيه شروط الاجتهاد السابقة، ومارس هذا العمل الجليل في حياته وكتبه، وصنف في الأصول، ولذلك قال السيوطي: «وبرع في الفقه والأصول والعربية»[5]، فكان مجتهداً أصولياً.

كتبه في الأصول والاجتهاد:

صنف العز عدة كتب في أصول الفقه، فكان بعضها أصولياً بحتاً كسائر كتب الأصول، وبعضها ذا طابع خاص، وأسلوب متميز، ومحتوى متنوع، فكان له شهرة خاصة، وصبغة متميزة تنم عن شخصية العز العلمية، وثقافته المتنوعة، واطلاعه الواسع، وإدراكه العميق لأسرار الشريعة.

١ ـ شرح منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل:

وأصل الكتاب هو ما يعرف «بمختصر ابن الحاجب» المشهور المتداول، المعتمد في الدراسة والتدريس، وهو أهم كتاب في أصول الفقه عند المالكية[6]، وله شروح عديدة، منها شرح الشيخ العز رحمه الله

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٣٥، وانظر: حسن المحاضرة ١/٣١٥.
(٢) انظر: الإمام العز، للفقير ص ١٥٧.
(٣) انظر: العبر في خبر من غبر ٥/٢٦٠، شذرات الذهب ٥/٣٠١، فوات الوفيات ١/٥٩٤، ذيل مرآة الزمان ١/٥٠٥، حسن المحاضرة ١/٣١٥.
(٤) سير أعلام النبلاء ١٨/١٩٣.
(٥) حسن المحاضرة ١/٣١٤.
(٦) انظر التعريف بكتاب مختصر ابن الحاجب وشروحه في (مرجع العلوم الإسلامية =

تعالى، والكتاب مخطوط، ولعله كبقية شروح «مختصر ابن الحاجب»، ولم نطلع عليه، ونكتفي بهذه الإشارة.

٢ - القواعد الصغرى، وقد يشار إليها باسم «الفوائد في مختصر القواعد» أو «الفوائد في اختصار المقاصد»:

وهو مختصر لكتاب العز نفسه «قواعد الأحكام أو القواعد الكبرى» فحذف منه العز الفروع الفقهية، والاستطرادات والتعليقات، ويوجد منه نسخ خطية كثيرة، وذكره معظم المؤرخين والمترجمين للعز[١]، ويقوم الأستاذ إياد الطباع بتحقيقه، وأفادني شفهياً أن الكتاب، وإن كان تلخيصاً للقواعد الكبرى، ولكنه يعتبر كتاباً جديداً لما فيه من ترتيب مستقل، وإضافات كثيرة، ونكتفي بهذه الإشارات للكتابين.

٣ - الإمام في بيان أدلة الأحكام:

ويعرف أيضاً بعنوان: «الدلائل المتعلقة بالملائكة والنبيين عليهم السلام، والخلق أجمعين»، وهو كتاب لطيف وطريف، وقال عنه ابن السبكي: «بديع جداً»[٢]، وجاء في مقدمة الكتاب: «هذا بيان لأدلة الأحكام، المتعلقة بالملائكة، والمرسلين، وسائر العالمين»[٣].

ويتضمن الكتاب بيان وجه دلالة آيات القرآن على الأحكام، والمعروف أن آيات القرآن الكريم تشمل العقيدة والإيمان، والأخلاق، والشرع، ولذلك جاء الكتاب بموضوعات شتى تتعلق بالعقيدة، والأحكام، حتى ظنه بعضهم أنه كتاب عقيدة، ولكنه في الواقع أقرب ما يكون إلى أصول الفقه، لأنه يبين دلالة القرآن الكريم على مختلف

= ص ٦٢٢، كشف الظنون ٢/٥٣٨).

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٧، البداية والنهاية ١٣/٢٣٥، فوات الوفيات ٢/٣٥٢، حسن المحاضرة ١/٣١٥، طبقات المفسرين ١/٣١٤، كشف الظنون ٢/٢٤٣، الإمام العز، للفقير ص ٣٣٣.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٨. (٣) الإمام في بيان أدلة الأحكام ص ٧٥.

الأحكام، وبحث الدلالات أحد موضوعات علم أصول الفقه.

ويتألف الكتاب من افتتاحية عامة للمؤلف عن موضوعاته، فبين أن الأحكام ضربان: «أحدهما: ما كان طلباً لاكتساب فعل أو تركه (وهذا يسمى في أصول الفقه الحكم التكليفي) والثاني: ما لا طلب فيه كالإباحة (ويسمى الحكم التخييري) ونصب الأسباب، والشرائط، والموانع، والصحة، والفساد، وضرب الآجال، وتقدير الأوقات، والحكم بالقضاء والأداء، والتوسعة، والتضييق، والتعيين والتخيير، ونحو ذلك من الأحكام الوضعية الخبرية»(١) (وهذا يسمى الحكم الوضعي، وكأن العز تابع في هذا التقسيم الثلاثي شيخه الآمدي الذي يقسم الحكم الشرعي إلى تكليفي، وتخييري، ووضعي، خلافاً لجمهور الأصوليين الذين يقسمونه إلى قسمين: تكليفي، ويدخل فيه التخييري، ووضعي(٢))، وهنا نبّه العز رحمه الله تعالى إلى أنه «لا يتعلق طلب ولا تخيير إلا بفعل كسبي، ولا يمدح الشرع شيئاً من أفعال، ولا يذمه، ولا يمدح فاعله، ولا يذمه... إلا أن يكون كسبياً، فإن عُلّق شيء من ذلك بفعل جبلي كان متعلقاً بآثاره»(٣)، ثم بين أن «أدلة الأحكام ضربان: لفظي: يدل بالصيغة تارة، وبلفظ الخبر أخرى، والثاني معنوي: يدل دلالة لزوم إما بواسطة، وإما بغير واسطة»(٤) وذكر أمثلة لذلك، ثم عرض العز فصول الكتاب العشرة.

الفصل الأول في الدلالة اللفظية.

والفصل الثاني في تقريب أنواع أدلة الأمر، وأن الله تعالى نوّع في ذلك، وذكر العز القاعدة فقال: «كل فعل كسبي عظمه الشرع، أو مدحه، أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به، أو أحبه، أو أحب فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالاستقامة، أو البركة، أو الطيب، أو أقسم به،

---

(١) الإمام في بيان أدلة الأحكام ص ٧٥ ـ ٧٧.

(٢) انظر كتابنا في أصول الفقه الإسلامي ص ٢٣١، والإحكام للآمدي ١/ ٩١.

(٣) الإمام ص ٧٧ ـ ٧٨.

(٤) الإمام ص ٨١ ـ ٨٣.

أو بفاعله، أو نصبه سبباً لمحبته، أو لثواب عاجل، أو آجل، أو نصبه سبباً لذكره، أو لشكره، أو لهدايته، أو لإرضاء فاعله، أو لمغفرة ذنبه، أو لتكفيره، أو لقبوله، أو لنصرة فاعله، أو بشارته، أو وصف فاعله بالطيب، أو وصفه بكونه معروفاً، أو نفي الحزن والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصبه سبباً لولاية الله تعالى، أو وصف فاعله بالهداية، أو وصفه بصفة مدح كالحياة، والنور، والشفاء، أو دعا الله به الأنبياء **فهو مأمور به**»[1]، وذكر ثلاثة وثلاثين مثالاً لذلك، بعضها من الحديث الشريف، وأغلبها من القرآن الكريم مع بيان الاستدلال ووجه الاستشهاد، مما يدل على صلة العز الوثيقة بكتاب الله تعالى، وتفسير آياته، وفهم معانيه، وإدراك أسراره وبيانه وأسلوبه.

والفصل الثالث في تقريب أنواع أدلة النهي، وأن الشارع الحكيم نوَّع فيها مثل تنويع أدلة الأمر، وذكر العز رحمه الله تعالى القاعدة مفصلة، فقال: «النهي عن كل فعل كسبي طلب الشارع تركه أو عتب على فعله، أو ذمّه، أو ذم فاعله لأجله، أو مَقَتَه، أو مقت فاعله لأجله. . .» وعدَّد مختلف الأساليب والصيغ في صفحتين إلى أن قال: «**فكل ذلك منهي عنه، وكل ذلك راجع إلى الذم والوعيد، ولكنّه نوّع ليكون ذكر أنواعه أبلغ في الزجر**»[2] ثم ذكر أمثلة هذه الأنواع، فجاءت في سبعة وأربعين مثالاً، وذكر لكل مثال عدداً من آيات القرآن الكريم، مع بيان بعض الآيات، والاستشهاد ببعض الأحاديث، وقال في ختام الأمثلة والفصل: «وأصناف الوعيد كثيرة. . . وفيما ذكرناه دلالة على ما تركناه، وكل ما ذكرناه عائد إلى الذم، أو الوعيد، ولكنه نوَّع ترهيباً وتحذيراً، وإذا تواردت هذه الدلائل على فعل دلت على تأكده في بابه، **وكذلك أدلة الأمر**»[3].

---

(١) الإمام ص ٨٧ ـ ١٠٣.

(٢) المرجع السابق ص ١٠٥ ـ ١٢٥. (٣) المرجع السابق ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

والفصل الرابع: فيما يصلح للدلالة على الأمرين: الأمر والنهي، وهو أنواع، قال العز: «فنذكر من ذلك ما يستدل به على غيره»(١)، وذكر أربعة عشر نوعاً، واستشهد لكل نوع بعدد من الآيات القرآنية، مع التوضيح، والتعليل، وبيان كيفية دلالة كل نوع على الأمرين: الأمر والنهي.

والفصل الخامس: في نفي التسوية بين الفعلين، أو الفاعلين أو الجزاءين، وذكر أمثلة وأدلة من الآيات الكريمة(٢).

والفصل السادس: فيما يضمنه ضرب الأمثال من الأحكام، فقال العز: «إنما ضرب الله تعالى الأمثال في كتابه تذكيراً أو وعظاً... فما اشتمل من الأمثال على تفاوت: في ثواب، أو على إحباط عمل، أو على مدح، أو ذم، أو على تفخيم، أو تحقير، أو على ثواب، أو عقاب، **فإنه يدل على الأحكام**، بحسب ذلك على ما تقدم ذكره»(٣)، وبعد أن بيَّن العز رحمه الله تعالى العلة في ضرب الأمثال من الأحكام، وكيفية دلالة الأمثال على الأحكام ذكر أمثلة على كل ذلك من كتاب الله العظيم، مع التفسير والتوضيح بعبارة موجزة، وأسلوب بديع، وإرشادات قيمة.

والفصل السابع: في فوائد متفرقة(٤)، وتكاد أن تكون قواعد ومبادىء لتفسير القرآن الكريم، وكيفية الاستدلال والاستنباط، ودراسة الأساليب المتنوعة، وذكر العز اثنتين وثلاثين فائدة، مع بيان المبدأ العام في كل منها، وضرب الأمثلة من القرآن لها، وبيان المراد والمقصود منها، لتكون منارات الهدى للقارىء والفقيه والمجتهد والمفسر، مثل: «**السياق** مرشد إلى تبيين المجملات، وترجيح المحتملات، وتقرير الواضحات» (ص ١٥٩)، و«إخبار الشارع عن ما يعلم بالعادة، أو بالفعل، أو بالحس،

---

(١) الإمام ص ١٢٧ - ١٣٨.

(٢) المرجع السابق ص ١٣٩ - ١٤٢.

(٣) المرجع السابق ص ١٤٣.

(٤) المرجع السابق ص ١٥٩.

ليس الغرض منه الإعلام بذلك المخبر عنه، بل به فوائد» (ص ١٦٢) وعدد عشرة منها، و «بيان معنى كلمة التوحيد، ودلالتها على الأحكام فيما تضمنته من معان» (ص ١٨٦)، و «بيان معنى مجاز المجاز» (ص ١٩١) و «أنواع المحذوفات» (ص ٢٠٦) وذكر تسعة منها.

والفصل الثامن: فيما يدل على الأحكام من صفات الله تعالى[١]، وذكر العز أوصاف الرب سبحانه، وقسمها إلى ضربين، وبيَّن كيف يستدل من هذه الصفات على أحكام مطلوبة من المكلف، وأن الله سبحانه وتعالى يذكر بعضها «تمدّحاً لنفسه، وإعلاماً لعباده، وترغيباً في الإعظام والإجلال» (ص ٢١٨)، «وتذكر صفات الذات إعلاماً وترغيباً في الإجلال والمهابة، وتمدّحاً، وترغيباً في الطاعة، وتحذيراً من المعصية» (ص ٢١٨) «وتذكر صفات الفعل للتمدّح، والتمنن، والترغيب والترهيب، والتعليم لأجل التعظيم» (ص ٢١٩)، ثم ذكر العز صفات الذات السبع، وصفات الفعل، وبين دلالة كل منها على الأحكام.

ويكاد أن يكون هذا الفصل من جهة، وهذا العمل والبيان والشرح، عملاً فريداً، وإبداعاً عجيباً للعز، ليؤكد أن الأحكام الشرعية ليست مقصورة فيما يعرف بآيات الأحكام، وأنها خمسمائة آية، بل إن الأحكام الفقهية تستفاد من كل آية من كتاب الله تعالى، حتى من القصص، والأمثال، وصفات الباري سبحانه وتعالى، وهذا الفهم الفريد والعجيب والمبدع من العز دفع بعض القراء أن يظنوا أن هذا الكتاب في العقيدة، وهو في حقيقته وجوهره، ومضمونه في أصول الفقه عامة، وفي مبحث الدلالات منه خاصة، ويؤكد بكل جزم أن العز كان مجتهداً وأصولياً، ويستحق ذلك بجدارة مطلقة.

والفصل التاسع: في ضروب من المجاز، والمجاز في

---

(١) الإمام ص ٢١٧.

الحروف[1]، وهذا ما يقربه من كتاب العز السابق «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز»، ويذكر الأمثلة العديدة من آيات القرآن الكريم.

والفصل العاشر والأخير: في كيفية استخراج الأحكام من أدلتها[2]، وهذا العنوان بحد ذاته يدل على أن مضمون الكتاب في «أصول الفقه» وفي الدلالات، واستخراج الأحكام من أدلتها، وفي هذا الفصل تأكيد وتذكير ببعض القواعد السابقة، والمبادىء المقررة لفهم كتاب الله تعالى، واستنباط الأحكام منه مع بعض الإضافات والأمثلة والأدلة.

ويختم العز كتابه بدعاء مؤثر، ينبع من القلب، ويحرك الوجدان، ويثير العاطفة، ويدفع إلى العمل والتطبيق والالتزام، فيقول: «اللهم وفقنا لفهم كتابك، والعمل بما فيه، والتخلّق بأخلاقه، والوقوف على أسراره ومعانيه، فإنه لا ينفع شيء إلا بقدرتك، ولا يتم أمر إلا بإرادتك، فأذقنا برد عفوك، وحلاوة مغفرتك. اللهم سلوةً بك عن كل شيء، وإيثاراً لك عن كل شيء. اللهم تمسكاً بكتابك، وتخلقاً بآدابك، ووقوفاً ببابك، وعكوفاً على جنابك. اللهم إقبالاً عليك، وإصغاءً إليك، وأخذاً عنك، وقبولاً منك، وغنيمة من كل بر، وسلامة من كل وزر، يا أرحم الراحمين»[3].

اللهم استجب آمين، منا ومنه يا رب العالمين، واقبل منا ومنه، واحشرنا جميعاً في ظل رحمتك وعفوك وغفرانك وجنابك، وتحت لواء عرشك، وبصحبة نبيك ﷺ والعلماء الصالحين، والشهداء الأبرار، مع والدينا، وأحبتنا، وجميع المسلمين.

---

(١) الإمام ص ٢٣٥.

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٥.

(٣) المرجع السابق ص ٢٨٦، وعمل محقق الكتاب الأستاذ رضوان مختار بن غربيّة جزاه الله خيراً فهارس للكتاب: فهرساً للآيات، وفهرس الأحاديث والآثار، وفهرس الشعر والقوافي، وفهرس المصادر، وفهرس موضوعات الدراسة، وفهرس موضوعات الكتاب (ص ٢٨٧ ـ ٣٦٠).

٤ ـ قواعد الأحكام في مصالح الأنام، أو القواعد الكبرى:

وهذا الكتاب أعظم كتب الشيخ العز رحمه الله تعالى، وقمة إنتاجه، وأعمق بحوثه، وهو الدليل القاطع على إمامة العز في الاجتهاد والأصول، ولذلك قال ابن السبكي: «ومن تصانيف الشيخ عز الدين «القواعد الكبرى» وكتاب «مجاز القرآن» وهذان الكتابان شاهدان بإمامته وعظيم منزلته في علوم الشريعة، واختصر القواعد الكبرى في «قواعد صغرى» والمجاز في آخر»[1].

وقال صاحب كشف الظنون: «وليس لأحد مثله، وكثير منها مأخوذ من شعب الإيمان للحليمي»[2].

وهذا الكتاب يقع في مجلدين، ولا يتجاوز ٥٢٦ صفحة مع فهرس موضوعاته، ومع كونه صغيراً بالنسبة لكتب الأصول المطولة، وأمهات كتب الأصول، والشروح، ولكنه كتاب قيم، وعميق الفكر، وجليل القدر، ويدل على طول باع العز في علم الأصول، ودقة نظره في مقاصد الشرع، وفهمه المتميز في نصوص القرآن والسنة، وبعد تفكيره في سعة الأحكام الشرعية وشمولها، وصلاحها لكل زمان ومكان، كما يدل هذا الكتاب على تفتح ذهن العز، وقوة مداركه، وسعة عقله، وإحاطته بعلوم الشريعة، وتوفر صفات المجتهدين فيه.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٧.

(٢) كشف الظنون ٢/٢٤٣، وكتاب الحليمي هو «منهاج الدين في شعب الإيمان» للشيخ أبي عبد الرحمن الحسين بن الحسن الحليمي الجرجاني الشافعي (٤٠٣ هـ) ويقع في ثلاث مجلدات، وفيه أحكام كثيرة، ومسائل فقهية، وما يتعلق بأصول الإيمان، ورتبه على سبعة وسبعين باباً، اقتباساً من الحديث الشريف «الإيمان بضع وسبعون شعبة»، واختصره القاضي علي بن إسماعيل التبريزي القونوي (٧٢٩ هـ) ونظمه نور الدين علي الأشموني (بعد ٩٠٠ هـ) وشرحه شمس الدين الخطيب الشربيني (٩٧٧ هـ). انظر: كشف الظنون ٢/٥٤٩، مرجع العلوم الإسلامية ص ٦٢٣.

وهو أهم كتاب للعز رحمه الله تعالى في الفقه وأصول الفقه، لأنه تجلت فيه مواهب العز، وخصائصه التي تميز بها، وشخصيته كعالم عامل، وداعية ممارس، له ثقافة واسعة ومتنوعة، ففيه الأصول، والقواعد، والضوابط الفقهية، والنظريات في المصالح، والمقاصد، مما أهلته لرتبة الاجتهاد، وفيه الأحكام القضائية، والفوائد المتنوعة التي تفيض من عقله القضائي، ومهارته في القضاء وخبرته في الحياة، وممارسته لتطبيق الفقه والشرع، وفيه الفتاوى، وأجوبة المسائل التي تكشف عن قيامه بالفتوى على الصعيد الشعبي والفردي والرسمي والحكومي في الدولة والسلطنة والإمارة والخلافة.

مقدمة الكتاب:

ويبدأ العز كتابه بالضرب مباشرة على الوتر الحساس، لبيان **جوهر الدين**، فقال بعد الحمدلة وفضيلة البعثة والإرسال للناس: «وكذلك أمرهم بتحصيل مصالح إجابته، وطاعته، ودرء مفاسد معصيته ومخالفته، إحساناً إليهم، وإنعاماً عليهم، لأنه غني عن طاعتهم وعبادتهم، فعرفهم ما فيه رشدهم ومصالحهم ليفعلوه، وما فيه غيهم ومفاسدهم ليجتنبوه، وأخبرهم أن الشيطان عدو لهم ليعادوه، ويخالفوه، **فرتب مصالح الدارين على طاعته، واجتناب معصيته**» (١/٤).

مقاصد الكتاب:

وحدد العز **مقاصد كتابه، والغاية منه**، فقال: «الغرض بوضع هذا الكتاب بيان مصالح الطاعات والمعاملات وسائر التصرفات، ليسعى العباد في تحصيلها، وبيان مقاصد المخالفات، ليسعى العباد في درئها، وبيان مصالح العبادات، ليكون العباد على خبر منها، وبيان ما يقدم من بعض المصالح على بعض» (١/١٠).

نظرية المصالح:

ثم وضع المبدأ الإسلامي الخالد، وعنوان النظرية التي يريد كشفها وبيانها للناس، وهي نظرية المصالح، فقال بكل صراحة ووضوح: «**والشريعة كلها مصالح**، إما تدرأ مفاسد، أو تجلب مصالح، فإذا سمعت الله يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فتأمل وصيته بعد ندائه، فلا تجد إلا خيراً يحثك عليه، أو شراً يزجرك عنه، أو جمعاً بين الحث والزجر، وقد أبان الله في كتابه ما في بعض الأحكام من المفاسد حثاً على اجتناب المفاسد، وما في بعض الأحكام من المصالح حثاً على إتيان المصالح» (١/١١).

حقيقة المصالح والمفاسد:

ثم بيَّن العز حقيقة المصالح والمفاسد فقال: «المصالح أربعة أنواع: اللذات وأسبابها، والأفراح وأسبابها، والمفاسد أربعة أنواع: الآلام وأسبابها، والغموم وأسبابها، وهي منقسمة إلى دنيوية وأخروية» (١/١١ ـ ١٢) ثم شرح لذات الدنيا، ولذات الآخرة، مع الأدلة من القرآن الكريم.

الحسن والقبح الشرعي:

ثم بيَّن العز رحمه الله تعالى أن معرفة المصالح الدينية وأسبابها لا تعرف إلا بالشرع، وهو رأي جماهير المسلمين من أهل السنة والجماعة، فقال: «أما مصالح الدارين وأسبابها ومفاسدها فلا تعرف إلا بالشرع، فإن خفي منها شيء طلب من أدلة الشرع، وهي: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس المعتبر، والاستدلال الصحيح، وأما مصالح الدنيا وأسبابها ومفاسدها فمعروفة بالضرورات والتجارب والعادات والظنون المعتبرات، فإن خفي شيء من ذلك طلب من أدلته، ومن أراد أن يعرف المتناسبات والمصالح والمفاسد... **فليعرض ذلك على عقله** بتقدير أن الشرع لم يرد به ثم يبني عليه الأحكام» (١/١٠).

العقل والشرع:

وأوضح العز رحمه الله تعالى مكانة العقل، وتوافقه مع الشرع، والاعتماد على معرفة العقل في أمور الدنيا، وأن المعرفة على درجات، ويقبل فيها الظن، فقال: «ومعظم مصالح الدنيا ومفاسدها معروف بالعقل، وذلك معظم الشرائع، إذ لا يخفى على عاقل قبل ورود الشرع أن تحصيل المصالح المحضة، ودرء المفاسد المحضة عن نفس الإنسان وعن غيره محمود حسن، وأن تقديم أرجح المصالح فأرجحها محمود حسن، وأن درء أفسد المفاسد فأفسدها محمود حسن، وأن تقديم المصالح الراجحة على المرجوحة محمود حسن، وأن درء المفاسد الراجحة على المصالح المرجوحة محمود حسن، واتفق الحكماء على ذلك، وكذلك الشرائع» (١/٥)، وقال: «ولا يقدم الصالح على الأصلح إلا جاهل بفضل الأصلح، أو شقي متجاهل لا ينظر إلى ما بين المرتبتين من التفاوت» (١/٧)، وقال: «الاعتماد على جلب معظم مصالح الدارين، ودرء مفاسدهما على ما يظهر من الظنون...، وتحصيل معظم هذه المصالح بتعاطي أسبابها مظنون غير مقطوع، فإن عمال الآخرة لا يقطعون بحسن الخاتمة، وإنما يعملون بناء على حسن الظنون... فكذلك أهل الدنيا إنما يتصرفون بناء على حسن الظنون»[1] (١/٤)، وشرح ذلك، وأقام عليه الدليل النصي والعقلي، والواقعي من الحياة.

وعقد بعد ذلك فصولاً مهمة، لا يتسع المجال لعرضها، أو الاقتباس منها، ونشير إلى بعض عناوينها، مثل «تقسيم اكتساب العباد» و«الحث على جلب المصالح، ودرء المفاسد» و«بيان أن الأسباب الشرعية بمثابة الأوقات» و«بيان ما رُتب على الطاعات والمخالفات» و«تفاوت رتب الأعمال بتفاوت رتب المصالح والمفاسد» و«فيما تتميز به الصغائر من الكبائر،

(١) انظر قواعد الأحكام ٢/٢٧.

وآثار ذلك عملياً، و «تقسيم المصالح والمفاسد بحسب معرفتها من الأذكياء والأغبياء والأولياء، و «تفاوت رتب المصالح والمفاسد وتساويها» و «فيما يتفاوت أجره بتفاوت تحمل مشقته» و «تساوي العقوبات العاجلة مع تفاوت المفاسد» و «انقسام المصالح والمفاسد إلى العاجل والآجل» و «تفاوت الأعمال مع تساويها باختلاف الأماكن والأزمان» وهنا استطرد إلى فصل بعنوان «في تفضيل مكة على المدينة» (١/٤٥) وردَّ على الإمام مالك في تفضيل المدينة، وبيَّن تفضيل مكة من اثني عشر وجهاً مع الأدلة، وفصل «انقسام المصالح والمفاسد إلى الوسائل والمقاصد» و «فيما يخفى من المصالح والمفاسد من غير تعبد» (١/٥٨) و «اجتماع المصالح المجردة عن المفاسد» (١/٦٢) وذكر ثلاثة وعشرين مثالاً مع الأدلة والتوضيح، واستطرد في أثنائها إلى «بيان العدل» ثم انتقل إلى فصل «فيما لا تشترط فيه العدالة من الولايات» (١/٧٧) وذلك في أمور واقعية عملية، ولوجود الوازع الجبلي والفطري، ثم عقد فصلاً لبيان «تنفيذ تصرفات البغاة وأئمة الجور لما وافق الحق لضرورة العامة» (١/٧٩)[1]، وفصل في «تقييد العزل بالأصلح للمسلمين فالأصلح» (١/٨٠).

وهكذا عرض العز رحمه الله تعالى نظرية المصالح، وذكر في كل فصل قاعدة من قواعدها، وشرح القاعدة، وذكر الأمثلة العملية والأحكام الشرعية لها، واستدل على صحتها من الشرع والعقل، وأكد محور النظرية في بيانها لمقاصد الشريعة، وهي «جلب المصالح، ودرء المفاسد» وهو ما اشتهر فيه الشاطبي المالكي (٧٩١ هـ) فيما بعد[2]، فكان العز سابقاً له بقرن ونيف، وأماط العز اللثام عن أهمية المصالح المرسلة (وهي المصالح التي لم ترد في الشرع، ولم يرد دليل على اعتبارها أو إلغائها) لبناء الأحكام الشرعية على مقتضاها، وهي ما سماها الغزالي قبل ذلك «بالاستصلاح» أي بناء الحكم الشرعي على توفر المصلحة.

---

(١) انظر: قواعد الأحكام ٢/٤١.

(٢) الموافقات ٢/٢.

بناء الفروع على الأصول:

وجمع العز رحمه الله في هذا الكتاب بين أصول التشريع والاستنباط، وبين الأحكام الفقهية الجزئية المتفرعة عنها، وربطها بفلسفة التشريع، أو مما سنَّ الشرع الحنيف، وغاياته وأهدافه السامية، وأن الأحكام الشرعية الكثيرة تؤكد اعتبار مصالح العباد، وأنها قطب الرحى في التشريع، وهي نقطة الارتكاز لجميع الأحكام الشرعية، ولذلك وضع العز عنوان كتابه بما يبلور هذه الحقيقة، فقال: «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» فالأحكام خطابات الشارع الحنيف، ولها قواعد تجمع بينها، وأن هذه القواعد تهدف إلى تحقيق مصالح البشر في العاجل والآجل، وأن الشرع إنما جاء ليرشد الإنسان إلى الخير، ويبعده عن الشر، وأن عليه أن يتحرى ذلك، ويلتزم به، ليفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة، ولهذا يقول العز:

«كل تصرف جالب لمصلحة، أو داريء لمفسدة، فقد شرع الله له من الأركان والشرائط ما يحصل تلك الشرائط المقصودة الجلب بشرعه، أو يُدرىء المفاسد المقصودة الدرء بوضعه،... فأحكام الإله كلها مضبوطة بالحِكم، ومحالة على الأسباب والشرائط التي شرعها» (**٢/١٥١، ١٥٣**)[(١)].

وهكذا يؤكد العز أن أحكام الشرع مضبوطة مُحكمة، وهو ما يعتقده المسلم، ويقرره جميع العلماء، فمن ذلك ما يقوله العلامة ابن الجوزي: «فائدة: اعلم أن **شرعنا مضبوط الأصول، محروس القواعد**، لا خلل فيه، ولا دَخَل، وكذلك كل الشرائع، وإنما الآفة تدخل من المبتدعين في الدين أو الجهال»[(٢)].

---

(١) انظر: شجرة المعارف للعز ص ٤٠١.
(٢) صيد الخاطر، لابن الجوزي، تحقيق محمد الغزالي ص ١١٤.

ويفصح العز أيضاً عن بيان تشريع التصرفات بحسب مآلها في تحقيق المصالح، ووضع قاعدة لذلك «اختلاف أحكام التصرفات لاختلاف مصالحها» وشرحها في تسع صفحات، وقال في أول شرحه: «اعلم أن الله تعالى شرع في كل تصرف من التصرفات ما يحصل مقاصده، ويوفر مصالحه، فشرع في باب ما يحصل مصالحه العامة والخاصة، فإن عمت المصلحة جميع التصرفات شرعت تلك المصلحة في كل تصرف، وإن اختصت ببعض التصرفات شرعت فيما اختصت به دون ما لم تختص به» (١٤٣/٢).

وأكد العز مرة أخرى على كون الشرع مصدر المصالح، فقال: «التكاليف كلها مبنية على الأسباب المعتادة من غير أن تكون الأسباب جالبة للمصالح، ولا دارئة للمفاسد بأنفسها، بل الأسباب في الحقيقة مواقيت للأحكام ولمصالح الأحكام، والله هو الجالب للمصالح الدارىء للمفاسد» (١٧/١)، وهذا مأخوذ من حديث الرسول ﷺ لابن عباس الذي ذكرناه سابقاً.

وبناء على نظرية المصالح المقررة شرعاً، فإن الإنسان متى عرف مقاصد الشرع، عرف مجمل المصالح التي يتبناها، والمفاسد التي يجب تجنبها، فإن لم يرد دليل شرعي على اعتبارها كان مجال العقل والاستصلاح داعياً لقبولها والعمل بها، وينحصر هذا العمل في الاستصلاح بمن توفرت فيه شروط الاجتهاد التي ذكرناها سابقاً،ومتى عايش المجتهد النصوص الشرعية وعرف مراميها وأغراضها.

وتنبه العز رحمه الله تعالى إلى **اختلاف الناس في تقدير المصالح** من جهة، وفي تعارض المصالح مع بعضها من جهة أخرى، ويرشد إلى الأخذ بالأرجح، فإن لم يتم الترجيح فهذا مجال لاختلاف العلماء، وفيه سعة في الشرع، ورحمة للأمة، وهو الواقع الملموس في الحياة

والتشريع، يقول العز: «قاعدة: في الموازنة بين المصالح والمفاسد: إذا تعارضت المصلحتان، وتعذر جمعهما، فإن علم رجحان إحداهما قُدمت، وإن لم يعلم رجحان، فإن غلب التساوي فقد يظهر لبعض العلماء رجحان إحداهما فيقدمها، ويظن آخر رجحان مقابلها فيقدمه، فإن صوبنا المجتهدين فقد حصل لكل واحد منهما مصلحة لم يحصلها الآخر، وإن حصرنا الصواب في أحدهما فالذي صار إلى المصلحة الراجحة مصيب للحق، والذي صار إلى المصلحة المرجوحة مخطىء معفو عنه، إذا بذل جهده في اجتهاده، وكذلك إذا تعارضت المفسدة والمصلحة. . . ، والحاصل أن الشرع يجعل المصلحة المرجوحة عند تعذر الوصول إلى الراجحة أو عند مشقة الوصول إلى الراجحة، بدلاً من المصلحة الراجحة» (١/ ٦٠)[1].

كما ينبه العز إلى انقسام المصالح والمفاسد إلى **الوسائل والمقاصد**، ويبين أحكامها، فيقول: «وللوسائل أحكام المقاصد، فالوسيلة إلى أفضل المقاصد هي أفضل الوسائل، والوسيلة إلى أرذل المقاصد هي أرذل الوسائل، ثم تترتب الوسائل بترتب المصالح والمفاسد» (١/ ٥٣ ـ ٥٤).

وهكذا يقرر العز رحمه الله تعالى مبدأ **«سد الذرائع»** الذي اشتهر به المالكية، مبيناً أن وسيلة المحرم حرام، ووسيلة الواجب واجبة، وهو ما يتفق مع المنطق والعقل، وتقرره الأنظمة المعاصرة، وتشهد له عدة آيات قرآنية، وأحكام شرعية.

ويدعو العز العلماء والفقهاء **إلى الاجتهاد والرجوع إلى القرآن والسنة ومصادر التشريع**، وينعى عليهم التقليد، وأنه لا يقبل إلا من العامي، فأنكر على المقلدين في عصره، وأنهم وصلوا إلى **التعصب**

(١) وانظر: شجرة المعارف للعز ص ٤٠١.

المذهبي الأعمى، والتقليد الباطل في الأخذ برأي المذهب مع التأكد من ضعف دليله، ويبدأ كلامه بوضع قاعدة: «فيمن تجب طاعته، ومن تجوز طاعته، ومن لا تجوز طاعته» ويبدأ الشرح، فيقول: «لا طاعة لأحد المخلوقين إلا لمن أذن الله في طاعته، كالرسل والعلماء والأئمة والقضاة والولاة والآباء، والأمهات والسادات والأزواج...، ولا طاعة لأحد في معصية الله عزّ وجلّ لما فيها من المفسدة الموبقة في الدارين أو في أحدهما» (٢/١٥٧)، ثم يقول: «وتفرد الإله بالطاعة لاختصاصه بنعم الإنشاء والإبقاء والتغذية والإصلاح الديني والدنيوي،... **وليس بعض العباد بأن يكون مطاعاً بأولى من البعض**...، وكذلك لا حكم إلا له، فأحكامه مستفادة من الكتاب، والسنة، والإجماع، والأقيسة الصحيحة، والاستدلالات المعتبرة، فليس لأحد أن يستحسن... **ولا أن يقلد أحداً لم يؤمر بتقليده**، كالمجتهد في تقليد المجتهد، أو في تقليد الصحابة، وفي هذه المسائل اختلاف بين العلماء، ويَرِد على من خالف في ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿إن الحكم إلا لله، أمر أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ يوسف/٤٠، ويستثنى من ذلك العامة، فإن وظيفتهم التقليد، لعجزهم عن التوصل إلى معرفة الأحكام بالاجتهاد، بخلاف المجتهد، فإنه قادر على النظر المؤدي إلى الحكم» (٢/١٥٨)، وصرح بجواز تقليد كل واحد من الأئمة الأربعة، ولا يتعين تقليد واحد بعينه في كل المسائل، ويجوز تقليد أحدهم في مسألة، وآخر في غيرها[1].

موقف العز من التقليد:

ثم يتأوه العز من الواقع المرير في جمود الفقهاء في عصره، ويعجب من التقليد الأعمى، فيقول: «ومن العجب العجاب أن الفقهاء المقلدين يقف أحد على ضعف مأخذ إمامه، بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً، ومع هذا

---

(١) انظر: فتاوى سلطان العلماء ص ٣٨.

يقلده فيه، ويترك من الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبه، جموداً على تقليد إمامـه، بل يتحايل لدفع ظواهر الكتاب والسنة، ويتأولهما بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالاً عن مقلَّده، وقد رأيناهم يجتمعون في المجالس، فإذا ذكر لأحدهم في خلاف ما وطن نفسه عليه، تعجب غاية التعجب من استرواح إلى دليل، بل لما ألفه من تقليد إمامه حتى ظنَّ أن الحق منحصر في مذهب إمامه، (وهذا) أولى (بالتعجب) من تعجبه من مذهب غيره» (٢/ ١٥٩).

ثم يبين العز الخروج من هذا المأزق، فيقول: «فالبحث مع هؤلاء ضائع، مُفْضٍ إلى التقاطع والتدابر، من غير فائدة يُجْديها، وما رأيت أحداً رجع عن مذهب إمامه إذا ظهر له الحق في غيره، بل (يصر) عليه مع علمه بضعفه وبعده، فالأولى ترك البحث مع هؤلاء الذين إذا عجز أحدهم عن تمشية مذهب إمامه قال: لعل إمامي وقف على دليل لم أقف عليه، ولم أهتد إليه، ولم يعلم المسكين أن هذا مقابَل بمثله، ويفضل لخصمه ما ذكره من الدليل الواضح والبرهان اللامح، فسبحان الله ما أكثر من أعمى التقليد بصره حتى حمله على مثل ما ذكر! وفقنا الله لاتباع الحق أينما كان، وعلى لسان من ظهر» (٢/ ١٥٩).

وهكذا يدعو العز لاتباع الحق أينما دار، وفي أي مكان وجد، ومن أي شخص جاء، ويحفظ لنفسه ذلك الطريق الأمثل، لأن الحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها التقطها، والعبرة للدليل وليس للتقليد، ولذلك أكد هذا المبدأ في هذا الكتاب «والشرع ميزان يوزن به الرجال، وبه يتيقن الربح من الخسران، فمن رجح في ميزان الشرع كان من أولياء الله، وتختلف مراتب الرجحان، ومن نقص في ميزان الشرع فأولئك أهل الخسران، وتتفاوت خفتهم في الميزان، وأخسها مراتب الكفار»[1].

(١) قواعد الأحكام ٢/ ٢٢٢، وانظر: أحوال الناس ص ٢٢، والعز وضع هذا الفصل =

ويؤكد العز العودة إلى النصوص الشرعية لمعرفة حكم الله، «فأحكامه مستفادة من الكتاب والسنة والإجماع والأقيسة الصحيحة والاستدلالات المعتبرة» (٢/١٥٨).

وهذا المنهج الذي نادى به العز، هو المنهج الإسلامي، ومنهج الصحابة والتابعين، والعلماء العاملين، والأئمة المجتهدين، ومن تبعهم بإحسان ونور وعلم وعقل ويقين، وقد طبقه العز على نفسه، وظهرت مخالفته لإمام الحرمين الجويني، كما سبق في اختصار «نهاية المطلب» له، وخالف الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في أحكام كثيرة.

فمن ذلك قوله: «لو ادعى السوقة على الخليفة أو على عظيم من الملوك أنه استأجره، لكنس داره، وسياسة دوابه، فإن الشافعي يقبله، وهذا في غاية البعد ومخالفة الظاهر، وخالفه بعض أصحابه في ذلك، وخلافه متجه لظهور كذب المدعي، والقاعدة في الأخبار من الدعاوى والشهادات والأقارير وغيرها أن ما كذبه العقل أو جوزه وأحالته العادة، فهو مردود» (٢/١٢٥).

وهنا رد العز قول الشافعي، معتمداً على القواعد الثابتة في كيفية الاستنباط، وفي ذلك يوافق الإمام مالكاً في هذه المسألة، وإن لم يصرح بذلك[1].

وقد يصرح أحياناً بأخذه برأي إمام آخر كأبي حنيفة ومالك مثلاً، فيقول في فصل «تعارض أصل وظاهر»: «المثال الرابع: إذا اختلف الزوجان في النفقة مع اجتماعهما وتلازمهما ومشاهدة ما ينقله الزوج إلى مسكنهما من الأطعمة والأشربة، فالشافعي يجعل القول قول المرأة، لأن

= بكامله تقريباً في الكتابين، ولم يتنبه له أحد ممن حقق الكتابين.

(١) انظر رسالتنا (وسائل الإثبات ص ٦٥٦ وما بعدها، أصول المحاكمات الشرعية والمدنية ص ١٢٥).

الأصل عدم قبضها كسائر الديون، ومالك يجعل القول قول الزوج، لأنه الغالب في العادة، **وقوله ظاهر**» (٢/ ٥٤) ثم يعلل ذلك[١].

وقد يرجح رأي الجمهور خلافاً للشافعي، فمن ذلك مثلاً قوله: «فصل في تعارض ظاهرين» قال: «قد يتعارض ظاهران، ويختلف العلماء فيهما، ولذلك مثالان، أحدهما: إذا اختلف الزوجان في متاع البيت، فادعاه كل واحد منهما، أو ادعى أحدهما الاشتراك في الجميع، فإن الشافعي رحمه الله يسوي بينهما، نظراً إلى الظاهر المستفاد من اليد، وبعض العلماء (الجمهور) يخص كل واحد منهما بما يليق به نظراً إلى الظاهر المستفاد من العادة الغالبة، **وهذا مذهب ظاهر متجه**» (٢/ ٥٦) ثم يضرب الأمثلة التوضيحية العملية لذلك[٢].

ويتفق العز في معظم الأحكام والمسائل والآراء مع الإمام الشافعي، ولكنه اتباع للدليل، وليس تعصباً أو تقليداً، ولذلك عندما يصرح بمخالفة إمام آخر يؤكد ذلك بالدليل والتعليل، فمن ذلك ما أشرنا له سابقاً فيما قاله العز في فصل «تفاوت الأعمال مع تساويها باختلاف الأماكن والأزمان» (١/ ٤٤) قال بعد ذلك: «فصل في تفضيل مكة على المدينة: إن قيل قد ذهب مالك رحمه الله إلى تفضيل المدينة على مكة! فما الدليل على تفضيل مكة عليها؟ قلنا معنى ذلك أن الله يجود على عباده في مكة بما لا يجود بمثله في المدينة، وذلك من وجوه» وذكر العز اثني عشر وجهاً مع الأدلة العديدة من القرآن والسنة، مع التوجيه وبيان وجه الاستشهاد.

ويناقش العز أيضاً أقوال الشافعي وأدلته أحياناً، فيقول: «إذا قال: له علي مال عظيم، فإن الشافعي يقبل تفسيره بأقل ما يتمول (**وهذا**) **خلاف ظاهر اللفظ**، وعلل الشافعي مذهبه بأن العظيم لا ضابط له، لأنه يختلف باختلاف همم الناس، فقد يرى الفقير المدقع الدينار عظيماً بالنسبة إليه،

---

(١) انظر: وسائل الإثبات ص ٦٧٠. (٢) المرجع السابق ص ٦٦٩.

والغني المكثر قد لا يرى المئين عظيمة بالنسبة إلى غنائه، فلما لم يكن للعظمة ضابط يُرجع إليه رجع الشافعي إلى ما يحتمله اللفظ في اللغة، حملاً للعظمة على الصفة بكونه حلالاً خالصاً من الشبهة، **ولا يخفى ما في هذا من مخالفة الظاهر»** (٢/١٢٤).

ويقول العز في نفس الفصل السابق: «فيما أثبت على خلاف الظاهر، وله أمثلة» يقول: «المثال العاشر إذا قال لامرأته: إذا رأيت الهلال فأنت طالق، فرآه غيرها، طلقت عند الشافعي، حملاً للرؤية على العرفان، **وهذا على خلاف الوضع، وعرف الاستعمال**، وخالفه أبو حنيفة في ذلك، واستدل الشافعي بصحة قول الناس: رأينا الهلال، وإن لم يروه كلهم، وجوابه: أن قول الناس: رأينا الهلال من مجاز نسبة فعل البعض إلى الكل، كقول امرىء القيس: «وإن تقتلونا نقتلكم» معناه وإن تقتلوا بعضنا نقتلكم»... (وذكر آياتٍ كذلك) ثم قال: «**فليس ما استدل به الشافعي بمجاز لمحل النزاع، فإن مجاز محل النزاع لا يشهد لما ذكره الشافعي**، فإن علقه على نفس رؤيتها، وهي واحدة، لا ينسب إليها ما وجد في غيرها، **فاستدل بنوع من المجاز على نوع آخر لا يناسبه ولا يوافقه»** (٢/١٢٤ ـ ١٢٥).

فعلى الرغم من قوة هذا الحكم، وصحة الاستدلال له، لكن العز يظهر ضعفه في مقدرة فائقة، لا تتم إلا لمتمكن في العلوم البلاغية، وهو صاحب كتاب «مجاز القرآن»، إذ يرى أن الشافعي استدل بنوع من المجاز على نوع آخر لا يناسبه ولا يوافقه.

ويظهر من ذلك الأصالة في تفكير العز لإدراك الأحكام، والقدرة على المناقشة العلمية الهادئة، والمواقف الموضوعية الحيادية، والتعمق في فهم النصوص حتى يستخرج أسرارها، ويستنبط منها ما يراه متفقاً مع مقاصد الشرع الحنيف، ويوافق اللغة، وينسجم مع الواقعة، ويحقق المصلحة.

العز و القواعد الفقهية :

ويعتبر كتاب «قواعد الأحكام» من البواكير الأولى لتقعيد الأحكام الفقهية، ووضعها في قواعد عامة، ومبادىء كلية، وضوابط منتظمة، وهي المرحلة الثانية في تطور الفقه الإسلامي من الفروع والجزئيات إلى القواعد والكليات، ثم إلى النظريات، فكتاب العز كتاب قواعد فقهية من جهة، ويمثل نظرية المصالح في الفقه الإسلامي من جهة أخرى، فكان كتاب «قواعد الأحكام» من أقدم كتب القواعد الفقهية والأصولية، وهو أقدم كتاب وصلنا في المذهب الشافعي، ومزج فيه بين الأصول والفروع، فحاز قصب السبق في ذلك.

قال السيوطي عن جهود العز في وضع القواعد الفقهية، وسبقه في هذا المجال في المذهب الشافعي: «أول من فتح هذا الباب شيخ الإسلام ابن عبد السلام في «قواعده الكبرى»، فتبعه الزركشي في «القواعد» وابن الوكيل في «أشباهه»[1].

كما حاز العز في «قواعد الأحكام» على قصب السبق في بيان مقاصد الشريعة التي أفردها بالبحث والبيان، وتوسع في دلالاتها وأدلتها وأمثلتها، إلى أن جاء بعده الشاطبي المالكي، وشرحها في كتابه «الموافقات» ونسبت إليه أكثر من غيره.

ويمثل كتاب العز أيضاً الخطوط العريضة لبيان سياسة التشريع الإسلامي في إطاره العام والشامل، والحرص على أداء الطاعات والواجبات، والتحرز من جميع المفاسد والمحرمات، فيقول مثلاً: «طلب الشرع لتحصيل أعلى الطاعات كطلبه لتحصيل أدناها في الحد والحقيقة،

---

(١) الأشباه والنظائر في النحو، للسيوطي ص ٥، وانظر بحثنا عن: «السيوطي والقواعد الفقهية» في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق.

كما أن طلبه لدفع أعظم المعاصي كطلبه لدفع أدناها، إذ لا تفاوت بين طلب وطلب» (١/ ٢٢).

هذه نماذج ومقتطفات، وغيض من فيض، من كتاب «قواعد الأحكام في مصالح الأنام»، ومهما قدمنا من أمثلة ودراسة وتحليل عن هذا الكتاب فلا نوفيه حقه، ولا يغني كلامنا عن قراءة الكتاب مباشرة، والاستفادة منه، والتقاط جواهره، وكشف مكنونه، واقتباس عباراته، ولا أخفي سراً أن هذا الكتاب يحتاج إلى مختص بالعلوم الشرعية، ومثقف واعٍ، ومفكر كبير، ليدرك هذه المعاني، ولذلك يستحيل علينا تقديم تلخيص وافٍ عنه، لأنه يحتاج إلى شرح ومجلدات، وكل قاعدة منه تحتاج إلى صفحات.

ومع ذلك يمكننا أن نذكر بعض المبادىء والأسس التي تؤخذ من قراءة الكتاب بأنه يعتمد على:

١ ـ الاعتماد على ما جرت العادة، ٢ ـ المدلول الشائع للألفاظ، ٣ ـ التحليل اللغوي للكلمات، ٤ ـ مراعاة الواقع، ٥ ـ تطور دلالات الألفاظ، ٦ ـ الاستشهاد بآيات القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربي، ٧ ـ التنوع والاستطراد، ففي الكتاب مثلاً وصية العز في العقيدة (١/ ١٩٨) وفي آخر الجزء الثاني فقرات طويلة، وفصول وفوائد متفقة حرفياً، وبنفس العنوان «فصل في بيان أحوال الناس» مع كتابه السابق «أحوال الناس» الذي زاد فيه بعض الفصول والفوائد.

فالكتاب حديقة غَنَّاء، فيها من جميع الأشجار والأثمار والنباتات، ولا يمكن للقارىء أن يقطف إلا بعض الثمرات، ويجني بعض المحصول، والكتاب فيه تنوع عجيب، لا يوجد في غيره من كتب الفقه والأصول، وإن نظرية المصالح وحدها تحتاج إلى مجلدات، وقد وضع العز قواعدها، وذكر آلاف الأمثلة والأحكام للتمثيل لها، وشرح بعض

جوانبها، معتمداً على الكتاب والسنة واللغة والشعر، والواقع العملي، والتحليل النفسي، ومراعاة الغرائز الجبلية للناس، والميول والعواطف الحسنة، ومحذراً من العواطف السيئة والجنوح للشر، ليوجه المسلم نحو الشرع إن كان يبتغي الخير والمنفعة والمصلحة والسعادة في الدارين[1].

ونختم كلامنا عن كتاب «قواعد الأحكام» بهذه العبارات الذهبية، والحِكَم العميقة، والقواعد المحكمة، فيقول العز رحمه الله:

«**ومن تتبع مقاصد الشرع في جلب المصالح ودرء المفاسد حصل** له من مجموع ذلك اعتقاد أو عرفان بأن هذه المصلحة لا يجوز إهمالها، وأن هذه المفسدة لا يجوز قربانها، وإن لم يكن فيها إجماع، ولا نص، ولا قياس خاص، فإن فهم الشرع يوجب ذلك» (٢/ ١٨٩).

«ولو تتبعنا مقاصد ما في الكتاب والسنة، لعلمنا **أن الله أمر بكل خير** دِقِّه وجِلِّه، وزجر عن كل شر دقّه وجلّه، فإن الخير يُعبر به عن جلب المصالح ودرء المفاسد، والشر يُعبر به عن جلب المفاسد ودرء المصالح» (٢/ ١٨٩).

«**وأجمع آية في القرآن للحث على المصالح كلها، والزجر عن المفاسد بأسرها**: قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعَدْل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاءِ والمنكرِ والبَغْي، يعظكم لعلّكم تذكرون﴾ (النحل/ ٩٠)، فإن الألف واللام في العدل والإحسان للاستغراق... والعدل هو التسوية والإنصاف، والإحسان إما جلب مصلحة أو دفع مفسدة...» (٢/ ١٨٩ - ١٩٠).

---

(١) انظر: عز الدين، محمد حسن عبد الله ص ١١٥ وما بعدها، العز للوهيبي ص ١٣٣، ٨٣ وما بعدها، العز، للندوي ص ٨٤ وما بعدها، الإمام العز، للفقير ص ٣٣٢ وما بعدها، تاريخ المذاهب الفقهية، للشيخ محمد أبو زهرة ٢/ ٩٣، ٩٧، ١٠٠، ١٠٢.

العز والمذهب والاجتهاد:

كما نختم كلامنا عن العز الفقيه والمجتهد والأصولي لنقول: إن العز درس المذهب الشافعي، وسار عليه، والتزمه في الغالب، فهو فقيه شافعي، ولكن بالاتباع والاقتناع والموافقة، وليس بالتقليد والتعصب والنقل والجمود، وملك العز شروط الاجتهاد، ولم يتقيد بـالمذهب الشافعي، وبلغ رتبة الاجتهاد، ووضع الأصول، وقعَّد القواعد، وأعمل عقله وفكره، فإن وافق قوله قول الشافعي اتبعه، وإن خالفه صرح بذلك، فالتزم الدليل الصحيح، والاستنباط الأقوى، دون أن يأسره التقليد، أو يجمد عقله في البحث، أو يمنعه الاتباع من الدقة، والابتكار الجديد، والمخالفة المبنية على الدليل، ويظهر هذا في كتبه الفقهية والأصولية، وفي الفتاوى وسائر كتبه، ولكنه لم يصبح صاحب مذهب مستقل وكامل.

وكان العز صاحب نظر ثاقب، وعقل مرصوص، وفكر نفاذ ومفتوح، وفطنة قوية، ولذلك كانت حجته قوية، واستدلاله منطقياً، وأحكامه واقعية فيما يعتمد على النظر والاجتهاد، والرأي والاستدلال.

ونشير أخيراً إلى أن العز عرض لنظرية المصالح وقواعدها وأمثلتها في معظم كتبه، وخصص الباب الثامن عشر من كتابه «شجرة المعارف» إلى تعرف المصالح والمفاسد، وما يقدم منها عند التعارض، وترتيب المصالح والمفاسد، وخصص الباب التاسع عشر في حسن العمل بالظنون الشرعية في العبادات وغيرها[1].

---

(١) شجرة المعارف ص ٤٠١ وما بعدها، و ص ٤١١ وما بعدها، وانظر: العز للندوي ص ٩٤، عز الدين، محمد حسن عبد الله ص ١١٦ وما بعدها.

الفصل الخامس
العز وعلوم الحديث والسيرة النبوية

تمهيد عن علوم الحديث والسِّيرة:

يأتي الحديث النبوي في الدرجة الثانية بعد القرآن الكريم في الأهمية الدينية والتشريعية واللغوية، كما يحتل المرتبة الثانية في الدراسة والبحث، والعلم والتعليم، والتأليف والتصنيف، والرعـاية والحفظ، والرواية والنقل، والكتب والرجال.

والحديث الشريف هو ما أضيف إلى النبي ﷺ من قولٍ أو فعل أو تقرير أو صفة، وتظهر أهميته باعتباره المصدر الثاني للتشريع، وأنه بيان للقرآن الكريم، وأنه وحي من عند الله تعالى من حيث المعنى، ويمتاز بالفصاحة والبلاغة والبيان العربي الرفيع، وأن أحاديث الرسول ﷺ وسيرته ترجمة عملية للقرآن الكريم، وتعطي صورة المجتمع الإسلامي الكامل، والمثل الأعلى في مجال العقيدة والإيمان، وفي الأخلاق والسلوك، وفي جميع المجالات في الحياة الزوجية، والاجتماعية، والعاطفية، والروحية، ورئاسة الدولة، ومعاملة الناس، وقيادة الجيش، وخوض المعارك، ومعاملة الأعداء، ورعاية الأصدقاء.

وعرف السيوطي علم الحديث بأنه «علم بقوانين يعرف بها أحوال السند و المتن»[1] بهدف حفظ أحاديث رسول الله ﷺ، وصونها عن

(١) النقاية ص ٢٦٧ على هامش مفتاح العلوم.

الخلل، والخلط، والدس، والتحريف والتبديل، والكذب، لتبقى السنة مصدراً صحيحاً، وصافياً، وسليماً لاستنباط الأحكام، وتربية النفوس، وتغذية الأرواح، وحفظ اللسان العربي.

وينقسم علم الحديث إلى **علم الرواية** أي رواية الحديث لاتصاله بالرسول عليه الصلاة والسلام من حيث السند والرواة ضبطاً وعدالة، واتصالاً...، **وعلم الدراية** الذي يبحث عن المعنى المفهوم من الحديث، والمراد من اللفظ، وما يرشد إليه[1]، وصنف العلماء كل ذلك في كتب السنة المشهورة، وشروحها، وكتب علم مصطلح الحديث، ورجاله، وحفاظه[2]..

والمقصود من **علم السيرة النبوية** الاطلاع والدراسة لحياة النبي ﷺ وشخصيته وصفاته وجميع تصرفاته، وطريقته في الدعوة والتبليغ والتربية، فهو جزء من الحديث الشريف، لأنها تصف حياة الرسول ﷺ في أحواله الخاصة والعامة، وهو موضوع علم الحديث، والمدون في كتب السنة، ولكن **اختلاف المنهج** في الجمع والتدوين والرواية والنقل فرق بينهما، وجعلهما علمين مستقلين، فعلم الحديث يخضع لمنهج نقدي دقيق، ويعتمد على الرواية الموثوقة، ليكون مصدراً صحيحاً ومعتمداً للتشريع والأحكام، بينما بقيت أخبار السيرة مسايرة لعلم التاريخ في نقل الروايات والأخبار، حتى اعتبرت السيرة في كثير من الأحيان جزءاً من علم التاريخ.

وتمتاز السيرة النبوية ـ كالحديث ـ أنها تمثل الصورة المثالية للحياة الإنسانية، وتقدم للمسلم خاصة، وللإنسان عامة، أكمل صورة للبشر، ليكون رسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة، والقدوة المثلى، لمن كان يبغي

---

(١) انظر: مفتاح السعادة ٢/٦٠، ١٢٨، وهناك أقوال أخرى للتفريق بين الرواية والدراية.

(٢) انظر التعريف بعلوم الحديث وأهم أعلامها وأشهر كتبها في (مرجع العلوم الإسلامية ص ٢٢٧ وما بعدها).

الخير والصلاح والإصلاح والتقوى، ويرجو الله واليوم الآخر[1].

مساهمة العز في علوم الحديث والسِّيرة:

عرفنا سابقاً أن العز كان واسع المعرفة، متعدداً في ألوان الثقافة، ولكن لم يعرف عنه تخصصٌ في الحديث والسيرة، وبراعة فيهما، بمقدار ما عرف فقيهاً وأصولياً ومفسراً، وما عرف عن مواقفه وشخصيته، فلم يكن العز حافظاً للحديث الشريف، ولم يكن محدثاً كسائر الحفاظ والمحدثين.

وهذا لا يعني عدم اشتغال العز بالحديث والسيرة، ومعرفته بعلوم الحديث، ودرايته بالسنة، ودراسته واطلاعه على السيرة النبوية، بل يظهر من سيرته الشخصية والعلمية صلته الوثقى بالسنة النبوية الشريفة، لأنها المصدر الثاني ـ بعد القرآن ـ للإسلام، والدعوة، والتشريع، والوعظ، والتدريس، والإفتاء، وكان يتحرى أخبار السيرة النبوية، ويتأسى بمواقفها، ويأخذ من قبسها.

لذلك شارك العز غيره في علوم الحديث والسيرة، وظهر اشتغاله في الحديث الشريف لحاجته إليه كداعية، ومدرس، وخطيب، ومفت، وواعظ، وقاضٍ، ومجتهد، وأصولي، وعوَّل على السيرة النبوية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واتخاذ المواقف الحميدة والحكيمة، فهو عالم وداعية يستقي فكره، وعلمه، ونصحه، وإرشاده من منبع الشريعة الصافي، ومعين النبوة الثر الذي يتبلور في الحديث والسيرة.

ومرَّ معنا أنه أخذ الحديث بدمشق، وسمعه من مشايخه، منهم الحافظ القاسم بن عساكر أبو محمد ابن الحافظ المؤرخ ابن عساكر صاحب كتاب «تاريخ دمشق»، كما سمعه من شيخ الشيوخ عبد اللطيف بن إسماعيل البغدادي والقاضي ابن الحرستاني، ولما سافر إلى بغداد سمع

---

(١) انظر التعريف بالسيرة النبوية والمؤلفين فيها، وأهم كتبها في (مرجع العلوم الإسلامية ص ٦٣٩ وما بعدها).

الحديث من أبي حفص عمر بن طبرزد، وحنبل بن عبد الله الرصافي[١].

وبلغ العز شأواً كبيراً في الحديث، وقام بالتحديث، وروى عنه الحديث تلاميذه، منهم تقي الدين بن دقيق العيد، والحافظ الدمياطي الذي خَرَّج للعز أربعين حديثاً عواليَ، أي عالية السند، أو قصيرة السند من الراوي إلى رسول الله ﷺ، ومنهم أبو الحسين اليونيني وغيرهم[٢].

ونقل ابن السبكي عن والده أن الإمام العز كان يُسمع الحديث قليلاً في دمشق، فلما دخل القاهرة بطل ذلك، وصار يحضر مجلس الشيخ زكي الدين المنذري، ويَسْمع عليه في جمْلة من يَسْمع، ولا يُسمع، وفي ذات الوقت امتنع المنذري عن الفتوى بعد حضور العز، وقال: حيث دخل الشيخ عز الدين لا حاجة للناس إليَّ[٣].

وهذا الأدب الجمّ، والتواضع العلمي، والاعتراف بالاختصاص، والتعويل على المختص، من العز والمنذري، وكلاهما شافعيان، اقتفيا فيه سيرة إمام المذهب، ويذكرنا بلقيا الإمام الشافعي مع الإمام أحمد بن حنبل في بغداد، فأخذ الشافعي الحديث عن أحمد، وأخذ أحمد الفقه والأصول عن الشافعي[٤].

وكانت مشاركة العز في علم الحديث، وجمعه بين الفنون، غير خافية على الناس، ولذلك وردت عليه الأسئلة عن بعض الأحاديث رواية ودراية، وأجاب عنها في الفتاوى المصرية، وبين المراد من أحاديث رسول الله ﷺ، وشرح معناها، وبين درجة صحتها أحياناً[٥].

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٢٠٩/٨، شذرات الذهب ٣٠١/٥.
(٢) انظر: فوات الوفيات ٥٩٤/١، شذرات الذهب ٣٠١/٥.
(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٢٦١/٨.
(٤) انظر: البداية والنهاية ٣٢٦/١٠ في ترجمة الإمام أحمد.
(٥) انظر: فتاوى سلطان العلماء ص ١٩، ٢٠، ٣٠، ٣٢، ٣٥، ٣٧، ٥٩، ٦٥، ٦٦، ٨٩، ٩١، ١٠٠، ١١٦، ١٥١، ١٥٤.

قال ابن العماد الحنبلي عن العز: «وبرع في الفقه، والأصول، والعربية، وفاق الأقران والأضراب، **وجمع بين فنون العلم من التفسير والحديث والفقه** واختلاف أقوال الناس»[1].

وقال الشريف عز الدين ـ تلميذ العز ـ: «كان عالم عصره في العلم، جامعاً لفنون متعددة...»[2].

ومن هنا نرى كتب العز الفقهية والأصولية مشحونة بالأحاديث النبوية، كما تجد الأحاديث النبوية مبثوثةً في كتبه في العقيدة والإيمان، وفي كتبه في التفسير والتربية والأخلاق وفضائل الأعمال[3]، وكان العز رحمه الله في كثير من الأحيان يعزو الحديث إلى كتب الصحاح والسنن، ويشير أحياناً إلى درجتها في التصحيح والتحسين والتضعيف، وينبه بشدة إلى الأحاديث الموضوعة والمكذوبة والباطلة، ويردها.

ومن هذه المساهمة للعز في علوم الحديث والسيرة، ومشاركته فيها، تجده معتمداً بشكل أساسي ومباشر على الأحاديث والسنة والسيرة في الدعوة، والتهذيب، والترغيب والترهيب، والتربية والأخلاق، والأحكام والفتاوى، والدعوى إلى فضائل الأعمال، والتحذير من البدع والمنكرات، وردها لمخالفتها للسنة[4]، ويندر أن تجد صفحة من معظم كتبه تخلو من

---

(١) شذرات الذهب ١/٣٠١.

(٢) المرجع السابق ١/٣٠٢.

(٣) انظر فهارس الأحاديث الشريفة الواردة في بعض كتب العز المطبوعة (شجرة المعارف ص ٤٤٨ ـ ٤٦٤، الإمام في بيان أدلة الأحكام ص ٣٢٧ ـ ٣٢٩، الفوائد في مشكل القرآن ص ٣٠٦ ـ ٣٠٨، ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام ص ٥٤ ـ ٥٥).

وانظر مقدمة تحقيق «شجرة المعارف» وأن العز استشهد في كتابه بنحو ٦٤٠ حديثاً، جلها رواها الشيخان أو أحدهما، وليس فيها إلا ثلاثة أحاديث ضعيفة، وأربعة أحاديث لم يعثر المحقق على مخرجيها. (ص ٣٧ المقدمة).

(٤) انظر رد العز لصلاة الرغائب وتكرار كلامه سبع مرات في مقدمة كل دليل وحجة: =

حديث شريف وعدة آيات، مما يؤكد صلته المباشرة بعلوم الحديث، والسنة النبوية، والسيرة الشريفة، وإدراكه لأهمية السنة والسيرة في جميع مجالات الحياة والدعوة والعقيدة والشريعة، والعبادات والأخلاق.

وفوق كل ذلك فقد أفرد بعض كتبه وإنتاجه للحديث والسيرة، نشير إلى المخطوط منها باختصار، ونقدم تعريفاً موجزاً، ودراسة عابرة للكتب المطبوعة، للتعريف بها، وبيان مضمونها.

كتب العز في الحديث والسِّيرة:

صنف العز رحمه الله تعالى بعض الكتب والرسائل في الحديث والسيرة، وهي:

أولاً: كتبه في الحديث:

وردت في ترجمة العز، وفي كتب الفهارس والمخطوطات، بعض الكتب والرسائل، وهي:

١ ـ شرح حديث «لا ضرر ولا ضرار»:

نسبه إليه الندوي، ولم يحدد مصدراً لذلك[1]، ولم يرد في كتب المصادر والمراجع، وشكك كثيرون بصحة هذه الرسالة إلى العز، ولعلّها تناولت هذا الحديث الشريف الصحيح باعتباره من أهم القواعد الفقهية، ويمثل شعاراً لنظرية كاملة في منع الضرر في العبادات والمعاملات، وفي التشريع والسياسة العامة والخاصة، ويعتبر من البلاغة النبوية، وجوامع الكلم عن النبي ﷺ، وتناوله كثير من العلماء قديماً وحديثاً بالدراسة[2].

= «أنها مخالفة للسنة»، ويذكر الأدلة لذلك. (طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٥٣ وما بعدها).

(١) العز، للندوي ص ٧٥.

(٢) انظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٨٦، الأشباه والنظائر لابن نجيم ص ٨٥، المدخل الفقهي العام، لأستاذنا الزرقا ٢/٩٧١، القواعد الفقهية، بحث لنا.

٢ ـ مختصر صحيح مسلم:

ذكره ابن السبكي في كتب العز، وذكره الداودي(١)، ولا يعرف له وجود الآن، ولا ينكر أحد أهمية كتاب «صحيح مسلم» وأنه أهم كتاب على الإطلاق في الحديث النبوي بعد «صحيح البخاري»، وبعض العلماء يفضله على «صحيح البخاري».

واشتغال العز باختصار «صحيح مسلم» يدل على مدى مشاركته في علم الحديث، ومعايشته لسنة رسول الله ﷺ، وصلته العميقة والمباشرة بأصح الأحاديث، واستفادته في ذلك في تكوين ذخيرة دينية ولغوية، تساعده على الأعمال التي مارسها، وفي التأليف والتصنيف(٢)، ونكتفي بهذه الإشارة لعدم الجدوى من التوسع بها إلا بعد وجود الكتاب، واكتشاف مخطوطته، وطبعه ونشره.

٣ ـ شرح حديث «أم زَرْع» الذي روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

وهو حديث صحيح ومهم، رواه الإمام مسلم(٣)، واستخرج منه العلماء فوائد كثيرة، وأحكاماً عديدة، ويذكر في مجال استحباب حسن المعاشرة للأهل، وحسن العلاقة بين الزوجين(٤).

ويوجد من «شرح حديث أم زرع» للعز نسخة خطية من ثلاث

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٨، طبقات المفسرين للداودي ١/٣١٣.

(٢) قال حاجي خليفة: «والكتب المصنفة في علم الحديث أكثر من أن تحصى، إلا أن السلف والخلف قد أطبقوا على أن أصح الكتب بعد كتاب الله سبحانه وتعالى صحيح البخاري ثم صحيح مسلم، ثم الموطأ، ثم بقية الكتب الستة، وهي سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، والدارقطني والمسندات المشهورة» (كشف الظنون ١/٤٢٦). وانظر التعريف الموجز لصحيح مسلم وشروحه في (مرجع العلوم الإسلامية ص ٢٨٤).

(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/٢١٢ ـ ٢٢٢.

(٤) ذكر حاجي خليفة أيضاً «شرح حديث أم زرع» لأبي الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (٥٤٤ هـ) وقال: وهو شرح مستوفى. (كشف الظنون ٢/٥٥).

ورقات ملحقة بآخر مجلد كبير لنسخة خطية عن «مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري» كما سبق.

وأول الشرح قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم: شرح حديث أم زرع، وهو قول النسوة اللاتي اجتمعن وتعاهدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً، قول الأولى: زوجي لحم جمل غَثٍّ يعني المهزول على رأس جبل، تصف قلة خيره، وبعده مع القلة، كالشيء في قمة الجبل الصعب، لا ينال إلا بالمشقة، قال الخطابي: معنى البعد في هذا أن يكون وصفته بسوء الخلق، والترفع في نفسه، والذهاب بها تِيهاً وكِبْراً، تريد أنه مع قلة خيره ونزارته قد يتكبر على العشيرة، فيجمع إلى منع الرفد الأذى، وسوء الخلق» وهكذا ينقل عن أبي عبيدة، والأصمعي والهروي وابن الأعرابي وغيرهم[1]، إلى أن يذكر أقوال أم زرع في الأوصاف الحسنة لزوجها، مع حسن العشرة، وذلك للترغيب بهذه الصفات، والاقتداء بها، وهذا ما قصده العز وغيره من شرح هذا الحديث، والتعريف به، وتخصيصه عن غيره.

ثانياً: كتبه في السيرة:

كتب العز رسائل صغيرة في السيرة النبوية، ولم يتوسع بها، وإنما هي نماذج تدل على اطلاعه على السيرة، واستفادته منها، واقتباسه من أخبارها، واعتماده عليها في أعماله، وهذه الرسائل هي:

١ ـ قصة وفاة الرسول ﷺ:

توجد منها نسخة في مكتبة برلين، وشكك الدكتور الفقير بصحة نسبتها للشيخ العز[2].

---

(١) العز، للوهيبي ص ١٢٩.

(٢) الإمام العز، للفقير ص ٣٥٤.

٢ ـ مجلس ذم الحشيشة:

وهي رسالة مخطوطة بمكتبة بريل في ليدن، ولم تثبت نسبتها الصحيحة للعز، ولعلها مجموعة أخبار في هذا الموضوع.

٣ ـ ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام:

وهي رسالة صغيرة في بيان فضل الشام والترغيب بالسكن فيها، حققها الأستاذ أحمد سامح الخالدي الديري، وطبعها في المطبعة التجارية بالقدس سنة **١٣٥٩ هـ/ ١٩٤٠ م**، وجاءت في **١٦** صفحة، وقال المحقق في مقدمته عن أهمية هذه الرسالة: «إنها ترجع أولاً: لقرب عهد المؤلف بالسلطان صلاح الدين، ثانياً: لأنه جاء ذكرها غير مرة في كتاب «إتحاف الأخصا في فضائل المسجد الأقصى» للشمس السيوطي المتوفى سنة **٩٠٦ هـ**، وقد نقل عنها الإتحاف، **فهي مصدر مهم** عن الشام وفضائله، وأعتقد أن صاحب «مثير الغرام» استعان بها، وإن لم يذكرها، وكذلك «الأنس الجليل» والمنيني في كتابه «الإعلام في فضائل الشام» وغيرهم. ثالثاً: لأنها تبين لنا **إحدى الاتجاهات الفكرية في الحروب الصليبية**، فقد أراد بها المؤلف أن **يشيد بذكر الشام وخطره**، وما ورد فيه من الآيات **لتشجيع المسلمين على سكناه والتمسك به والمدافعة عنه**» ص ٣، ٤[1].

وحقق الرسالة أيضاً الأستاذ محمد شكور الحاجي أمرير الميادين، وقدم لها ترجمة للمصنف (ص ٧ ـ ١٤)، وأضاف لها ملحقاً بأحاديث في فضل الشام وأهله (ص ٤٧ ـ ٤٩) وفهارس للآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والموضوعات (ص ٥١ ـ ٥٦) وست صفحات من صور المخطوطة، والرسالة تقع في (ص ٢١ ـ ٤٦)، وشرح بعض الألفاظ، وترجم للأعلام الواردة فيها، وخرَّج الأحاديث المذكورة، وهو أهم جانب في التحقيق.

---

(١) انظر: العز، للوهيبي ص ١٥٨، كشف الظنون ١/ ٢٨١.

قال الشيخ العز في المقدمة: «وبعد حمد الله، أن حبب إلينا الإيمان، وكرّه إلينا الكفر، والفُسوق والعصيان، فإن الله تعالى جعلنا من أهل الشام، الذي بارك فيه للعالمين، وأسكنه الأنبياء والمـرسلين، والأولياء، والمخلصين، والعباد الصالحين، وحفّه بملائكته المقربين، وجعله في كفالة رب العالمين، وجعل أهله على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم إلى يوم الدين، وجعله معقل المؤمنين، وملجأ الهاربين، ولا سيما دمشق المحروسة الموصوفة في القرآن المبين، بأنها ربوة ذات قرار ومعين، وكذا روي عن سيد المرسلين وجماعة من المفسرين. . .»[1]، ثم شرع بعد ذلك في ذكر الآيات والأحاديث والأخبار التي تدل على فضل الشام، ثم خصص فصلاً في تفضيل دمشق على الخصوص (ص ٣٩ ـ ٤٥).

وقال العز في الأخير: «وقد قال موسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿ويستخلفكم في الأرض، فينظر كيف تعملون﴾ الأعراف/١٢٩، فيجب على ولاة الأمر أن يستحيوا من نظر الله تعالى إليهم، وأن يشكروا إنعامه عليهم، وقد قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ إبراهيم/٧»[2].

وختم العز رسالته بدعاء: «اللهم وفق ولاة أمور المسلمين للتمسك بكتابك، والتخلق بآدابك، والوقوف ببابك، والعكوف على جنابك، واجعله سلماً لأوليائك، حرباً لأعدائك، وأعنهم على اتباع الحق، واجتناب الباطل بحولك وقوتك يا رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله أجمعين، وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين» (ص ٤٦).

وحقق هذه الرسالة الأستاذ إياد خالد الطباع بدمشق، وهي قيد الطباعة.

---

(١) ترغيب أهل الإسلام ص ٢٣ ـ ٢٤. (٢) المرجع السابق ص ٤٥.

ونقلنا أعلاه كلمة الأستاذ الخالدي في أهمية الرسالة، وكلمة العز في موضوعها بما يكفي عن الزيادة، ويدعو للقراءة والمطالعة.

٤ ـ بداية السول في تفضيل الرسول ﷺ:

وهي رسالة صغيرة مخطوطة في خمس ورقات، بدأها الشيخ العز بمقدمة من ستة أسطر بأن الله تعالى نص في القرآن الكريم أنه فضّل محمداً ﷺ على بقية الأنبياء والمرسلين، وامتن عليه بقوله تعالى: ﴿وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ النساء/١١٣[1]، ثم ذكر العز رحمه الله تعالى اثنين وثلاثين وجهاً لتفضيل الرسول ﷺ على سائر المخلوقات، وساق العز الفضيلة، وأردفها بالدليل من الآيات والأحاديث، ومن هذه الفضائل:

أ ـ أن الله تعالى أخبره بأنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولم ينقل أنه أخبر أحداً من الأنبياء بمثل ذلك.

ب ـ أن رسول الله ﷺ ساد الكل، لقوله: «أنا سيد ولد آدم، ولا فخر».

جـ ـ أنه أول شافع وأول مشفع، وهذا يدل على تخصيصه وتفضيله.

د ـ أن الله تعالى أقسم بحياته، فقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُم لفي سَكْرَتِهِم يَعْمَهُونَ﴾ الحجر/٧٢، للدلالة على شرف حياته، ومكانته عند الله تعالى.

هـ ـ أن الله تعالى ناداه بأحب أسمائه، وأسمى صفاته، فقال: ﴿يا أيها النبي﴾ و ﴿يا أيها الرسول﴾، وهذه الخصيصة لم تثبت لغيره، ونادى الله تعالى سائر الأنبياء بأسمائهم المجردة، يا آدم، يا إبراهيم، يا نوح، يا موسى.

و ـ أن معجزة رسول الله ﷺ، وهي القرآن الكريم، باقية إلى يوم الدين.

إلى غير ذلك من تسليم الحجر عليه، وحنين الجذع إليه، ونبع

---

(١) بداية السول في تفضيل الرسول ص ١١، وانظر: الإمام العز، للفقير ص ٣٤٣، العز، للوهيبي ص ١٥٦.

الماء من بين أصابعه، وحشر الأنبياء تحت لوائه يوم القيامة. . .

ويقصد العز من هذا الكتاب أن يَذْكر ويُذَكّر بوجوه تفضيل النبي محمد ﷺ على جميع الخلق، وسائر الأنبياء، ومكانته عند الله تعالى، لتكون هذه الخصائص والفضائل باعثة للإنسان العاقل لمعرفة منزلة رسول الله ﷺ، وداعية للبشر إلى اتباعه، ومحركة للمؤمنين إلى محبته، والتأسي به، والاقتداء بهديه، واتباع طريقته وسنته وسيرته، ليسعدوا في الدنيا، ويفوزوا بالحشر معه يوم القيامة، فالمرء يحشر مع من أحبَّ، والمحبة موجبة للاتباع والالتزام، وهذا ما نفذه العز رحمه الله تعالى في حياته العلمية والعملية، وفي كتبه وسيرته وحياته.

والكتاب طبع عدة مرات، وعلق عليه الشيخ عبد الله بن محمد الصديق الغماري، ثم حققه صلاح الدين المنجد، وطبعه في بيروت سنة ١٤٠١ هـ، ثم حققه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، وطبعه في المكتب الإسلامي ببيروت سنة ١٤٠٣ هـ، ثم علق عليه السيد محمد أديب كلكل، وطبع بحماة بدار الدعوة، وموجود من هذه الطبعة الأخيرة نسختان في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، واعتمدنا عليها.

وعرض السيد كلكل مقدمة من صفحة واحدة عن موضوع الكتاب، وعلق عليه تعليقات قليلة، أكثرها آيات وأحاديث، وختمها بجملة من الأخبار في تفضيل رسول الله ﷺ (ص ٤١ ـ ٤٤) ثم مرثية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لسيدنا رسول الله ﷺ (ص ٤٥ ـ ٤٧) ثم صفحة من أعلام النبوة (ص ٤٧ ـ ٤٨).

ويمثل موضوع الكتاب في مجمله جانباً من خصائص الرسول ﷺ التي خصه الله تعالى بها، وأفردها السيوطي في كتابه «الخصائص الكبرى» في ثلاث مجلدات، وصنف فيها كثيرون، ويكثر ذكرها في كتب السنة،

وكتب السيرة، كما تتعلق بعلم العقيدة في بيان فضائل الأنبياء والرسل على جميع الأنام[1].

ونصل في ختام هذا الفصل إلى التركيز على بيان صلة الشيخ العز بعلوم الحديث الشريف والسيرة النبوية، ومحبته العارمة لرسول الله ﷺ، وحرصه الشديد على اتباع سنته، والاهتداء بسيرته، والالتزام بهديه، والسير على خطاه، لأنه صاحب المنهج الأرشد والطريق الأمثل، والمربي المثالي، والمعلم النموذجي، والمجاهد الصادق، والمبلغ الأمين، الذي أرسله الله هادياً وشاهداً، ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فكان رحمة للعالمين، ومن هنا ننتقل إلى الفصل التالي عن العز والتربية.

---

(١) ومن ذلك كتب الشمائل المحمدية، وفيها مؤلفات كثيرة. (انظر: كشف الظنون ١/٤٦٣، ٢/٦٧).

الفَصْل السَادِسْ
العِـزُّ وَالتَّربِيَةُ وَالأَخْلَاقُ وَالآدابُ

تمهيد عن التربية والأخلاق والآداب:

إن التربية عملية معقدة وصعبة، لأنها تتعلق بالإنسان، وما جُبل عليه من غرائز وميول، وعواطف ومشاعر، ونفس وروح وجسم، وعقل وقلب، فهو آية من إبداع الله تعالى في خلقه، ولذلك تهدف التربية إلى تفاعل الإنسان بميوله واهتماماته، وقدراته وحاجاته، واستعداداته ومكتسباته، مع التراث الثقافي الذي جمعته البشرية، والبيئة المادية المحيطة بـه، والمجتمع بفلسفته وتطلعاته، وحاجاته ومشكلاته، فيحدث هذا التفاعل تفسيراً في سلوكه، ويكسبه مهارات في حياته، ويدفعه إلى تعديل أحواله بما يتفق وإشباع حاجاته المتغيرة مع البيئة المتغيرة.

واستعداد الإنسان للتربية أهم ميزاته على باقي الكائنات الحية، لما يتمتع به من قدرات عقلية، واستعدادات فطرية للتفكير والتدبير، قد تكون للخير، وقد تكون للشر، ومن هنا ظهرت حاجة الإنسان الملحة للتربية، وتوجيهه عقلياً وفكرياً، ونفسياً وسلوكياً، نحو الفضيلة والأخلاق والآداب.

وإن علم التربية بمفهومه المعاصر لم يكن معروفاً في السابق، أما مضمونه فلا ينكره إنسان، ولذلك جاء الإسلام ـ أصلاً ـ لتهذيب النفس الإنسانية، وتربية الإنسان، وتكريمه عن سائر المخلوقات، ليكون خليفة الله في أرضه.

وعرف الإمام الغزالي الأخلاق بأنها حال أو هيئة للنفس تصدر عنها الأفعال بلا روية أو تدبير، ويتفق الفلاسفة والعلماء والمربون على أهمية الأخلاق، ويكادون يجمعون على أنها الهدف الأسمى للتربية والتعليم للفرد والمجتمع، وأن جميع الأديان تدعو إلى الأخلاق الفاضلة، وترغب في التمسك بها، وتنهى عن الأخلاق الفاسدة، وتحذر من الوقوع فيها، أو الاقتراب منها[1].

وإن الله تعالى بعث نبيه محمداً ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق، ووصفه في القرآن الكريم بأجمل العبارات، وأسمى الصفات، فقال تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ القلم/٤، ودعا رسول الله ﷺ إلى التربية الخُلُقية، ليتمثلها المسلم في فكره وسلوكه معاً.

أما الآداب فهي جزء من الأخلاق، وهي جمع أدب، وعرفه الجرجاني بأنه «عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ»[2]، ونقل التهانوي تعريفات كثيرة للأدب بأنه حسن الأحوال في القيام والقعود، وحسن الأخلاق، واجتماع الخصال الحميدة، أو هو ملكة تعصم من قامت به عما يُشينه، أو هو الخصال الحميدة، والأوْلى التعبير بالملكة، لأنها الصفة الراسخة للنفس، فما لم يكن كذلك لا يكون أدباً، والفرق بينه وبين التعليم: أن التأديب يتعلق بالمرادات، والتعليم بالشرعيات، أي الأول عرفي، والثاني شرعي، والأول دنيوي، والثاني ديني[3].

مساهمة العز في التربية والأخلاق والآداب:

والشيخ العز كان معلماً ومربياً، اقتداءً برسول الله ﷺ، وتمثلت في

(١) انظر: طرق تدريس التربية الإسلامية، لنا، فصل أصول تدريس الأخلاق ص ٣٨١، وأساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم، رسالة ماجستير للسيد حسين جلو ص ٦، ١١ وكنت مشرفاً مشاركاً عليها.

(٢) التعريفات ص ١٠.

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٥٣.

العز التربية الإسلامية، والأخلاق النبوية، والآداب الدينية، وأشرنا سابقاً إلى بعض صفات العز الخُلُقية التي طبقها في حياته، ومارسها في سلوكه، واقتبسها من كتاب الله تعالى وسنة نبيّه ﷺ، والتزمها دينياً تنفيذاً لدين الله وشرعه، ويدعو إليها في حياته، ودروسه، وخطبه، ووعظه، وصنف فيها، وترجم القيم الإسلامية إلى مبادىء، وقواعد، ونظريات تربوية مذهلة، تحتاج إلى الصياغة المعاصرة أولاً، والتطبيق والالتزام ثانياً، لتكون هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس.

ولكي لا نستبق القول، فإننا نعرض دراسة موجزة عن كتب العز في التربية والأخلاق والآداب، ونشير إلى بعض المبادىء التي صاغها العز، وبلورها في جمل مسبوكة، وعبارات محبوكة، ونصائح مقترنة بمصدرها الشرعي، ودليلها من القرآن والسنة، مع الأمثلة لها من الأحكام الشرعية العملية.

كتب العز في التربية والآداب والأخلاق:

١ ـ فوائد البلوى والمِحَن، أو: الفتن والبلايا والمحن والرزايا:

وهي رسالة صغيرة من ورقتين، لا تزال مخطوطة، وحققها الأستاذ إياد الطباع بدمشق، وهي قيد الطباعة.

ذكر العز في هذه الرسالة الفوائد والثواب والأجر الذي يناله المسلم من ابتلائه بالفتن والمحن، والرزايا والمصائب، وذكر العز سبع عشرة فائدة، منها: معرفة ذل العبودية من الإنسان، ومعرفة الربوبيّة لله تعالى، وطلب الإخلاص لله تعالى في الدعاء والطلب والشدة، لأنه لا مرجع في دفع الشدائد إلا إليه، والإنابة له، والإقبال عليه، فلا ملجأ ولا منجى منها إلا إليه، وهذا يؤدي إلى تضرع الإنسان لخالقه، والاستعانة به عند نزول المصائب ليصرفها عنه، أو يثيبه عليها، أو يعوّضه خيراً مما أصابه وفقده،

وهنا تظهر فائدة الصبر الذي بشّر الله سبحانه وتعالى أصحابه بأن يوفيهم أجورهم بغير حساب[1].

وما أشد الناس وأحوجهم إلى مثل هذه الآداب والتربية في هذه الحياة المملوءة بالبلوى والمصائب، ويظهر عندها ضعف الإنسان وعجزه بذاته، وقوته وثباته واتزانه عند لجوئه لربه، وفي القرآن الكريم، والسنة الشريفة حشد كبير من الأمثلة الصريحة على البلاء، والدعوة إلى الصبر والاحتساب والثواب، وتطبيق عملي في سيرة الرسول ﷺ مما لا مجال للتوسع فيه.

٢ ـ نهاية الرغبة في أدب الصحبة:

ذكرنا سابقاً عدم ثبوت صحة هذه الرسالة للعز، لعدم ذكرها في الكتب القديمة، ويوجد منها نسخة خطية في مكتبة باريس، ولعلّها لشخص آخر.

ومع ذلك فالموضوع لا يستبعد عن سيرة العز الشخصية والعلمية، ومنهجه في الحياة، ودعوته إلى حسن الصحبة، والتزام الأدب فيها، لنيل الثواب والأجر، واستدامة العلاقة مع الأصحاب وتوثيقها وتمتينها، والكتاب يؤكد معنى ذلك.

٣ ـ شجرة المعارف والأحوال، وصالح الأقوال والأعمال:

وهو أوسع كتاب للعز في التربية والآداب وتزكية النفس، وهو كتاب نافع ومفيد، ذكره ابن السبكي في كتب العز، وأثنى عليه فوصفه بأنه «حسن جداً»[2]، وهو كما قال.

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٨، الإمام العز، للفقير ص ٣٤٨، العز للوهيبي ص ١٥٤، وانظر: فصل «صفة ما في الدنيا من الملذات والأفراح والغموم والآلام على الإجمال» في كتاب العز «أحوال الناس» ص ٤٩.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٨.

وبين العز نفسه أهمية هذا الكتاب في آخره، فقال: «ومن فهم ضوابط هذا الكتاب، ووقف على حقيقة المصالح، وانحصارها في جلب المصالح ودفع الضر، وعلى حقيقة المفاسد، وانحصارها في جلب الضرر ودفع النفع، وأنه لا فرق في ذلك من قليله وكثيره، جليله وحقيره، لم يكد يخفى عليه أدب من آداب القرآن، ولا سيما إذا اتضحت وتمحَّضت المصالح أو المفاسد، أو ظهر رُجْحانُها» (ص ٤٠٦).

مضمون الكتاب:

وأشار العز في مقدمة كتابه إلى تفضيل الله للإنسان، وما فطره عليه، وحاجة الإنسان للتربية والأدب، وأن الله تعالى أنزل القرآن لهذا الهدف، فقال: «وبعد: فإن الله فضّل الإنسان بالنطق والبيان، والعقل والعِرفان، ثم أدّبه بالقرآن، وأمره بكل بِرّ وإحسان، وزجره عن كل إثم وعدوان، وعرّفه أن عمله الظاهر والباطن ضربان: أحدهما: مُوجب لخلود الجنان، ورِضا الرحمن، والثاني: موجب لدخول النيران، وسخط الدَّيان، إلا أن يعفو الكريم المنّان» (ص ١).

ثم عرض العز في التمهيد أحد عشر فصلاً في بيان القُرُبات، وآداب القرآن، وفضائل الأعمال، وشرف الأحوال، ورتب الوسائل والأسباب، وثمرات المعارف وفوائدها، وضرر الجهالات، وفيما يتفاضل به العباد، وأسباب الفضائل، وكيفية التفضيل، وكيفية إثمار المعارف للأحوال وما يترتب عليها، (ص ٢ ـ ١٦).

وبعض هذه الفصول مكرر في كتب العز «قواعد الأحكام»، و «أحوال الناس» وغيرهما، وشرح العز في الفصل الأخير منها معالم هذه الشجرة، فبيَّن أصلها «معرفة الذات الإلهية» وفروعها «معرفة الصفات» وثمرتها «التخلق بآداب القرآن، والتحلي بصفات الرحمن التي يمكن التخلق بها»، فقال: «اعلم أن معرفة الذات والصفات مثمرة لجميع الخيرات

العاجلة والآجلة، ومعرفة كل صفة من الصفات تثمر حالاً عليّة، وأقوالاً سنيّة، وأفعالاً رضية، ومراتب دنيوية، ودرجات أخروية».

«فمثل معرفة الذات والصفات كشجرة طيبة، أصلها ـ وهو معرفة الذات ـ ثابت بالحجة والبرهان، وفرعها ـ وهو معرفة الصفات ـ في السماء مَجْداً وشرفاً «تؤتي أكلها كل حين» من الأحوال والأقوال والأعمال «بإذن ربها» وهو خالقها، إذ لا يَحْصُل شيء من ثمارها إلا بإذنه وتوفيقه، مَنْبِت هذه الشجرة القلب. . . ، من فقد فرعاً من فروع هذه الشجرة فقد ثمراته في الحال والمآل، فطوبى لمن غَرَس هذه الشجرة بالنظر، وتعهدها بالتقوى، وحرسها بالاستقامة، ونفى عنها شَعَث المخالفة، وصانها من رياح الهوى، وخاف عليها من صواعق الشك، وبوائق الشرك. . . ولهذه الشجرة ثلاثة فروع. . .» (ص ١٤ ـ ١٥).

ثم يعرض العز كتابه في عشرين باباً، فيبين في الباب الأول: التخلق بصفات الرحمن بحسب الإمكان (ص ١٧)، وفي الباب الثاني: كيفية التخلق بالأسماء والصفات (ص ٢٩)، ثم يبين ما تشتمل عليه القلوب من الصفات والأخلاق (الباب الثالث ص ٤٦) وما يتعلق بالقلوب والجوارح من الأحكام (الباب الرابع ص ٤٨)، ثم يذكر المأمورات الباطنة كالإيمان والإخلاص (الباب الخامس ص ٤٩) والمنهيات الباطنة كالحسد والغل والغفلة (الباب السادس ص ١٠٥).

وينتقل العز من أفعال القلوب، إلى أفعال الجوارح وما يتعلق بها من الأحكام الشرعية العملية من الفقه، فيذكر الإحسان العام (الباب السابع ص ١٣٧) ويعدد أنواع الإحسان من كتب الفقه، (الباب الثامن ص ١٤٥) وطلب الإحسان بإسقاط الحقوق (الباب التاسع ص ١٧٩) والإحسان ببذل الأموال (الباب العاشر ص ١٨٥)، والإحسان بالأخلاق والأعمال (الباب الحادي عشر ص ٢١١) والإحسان بالأقوال (الباب الثاني عشر ص ٢٥٣)

والإحسان بالدعاء القاصر والمتعدي (الباب الثالث عشر ص ٢٧٩) ثم يلتفت العز إلى ذكر المناهي الظاهرة: الفعلية والقولية، كالتهاون بالصلاة، والتختم بالذهب، وسوء الأدب على الرسول ﷺ، وأذية أولياء الله، وأذية الوالدين، وأذية المؤمنين (الباب الرابع عشر ص ٢٩٧)، ثم يبين المأمورات الظاهرية: الفعلية والقولية كالتقوى والاستقامة (الباب الخامس عشر ص ٣٤٣).

ويفرد العز (الباب السادس عشر ص ٣٦٩) للفوائد المتفرقة في فصول قصيرة جداً، كالسؤال عن الحاجة، والتشاور، وأخذ الحذار مع التوكل على الجبار، والضحك والتبسم، والفرح بالنصر، واختبار الأفهام، واختزال أموال الكفار، وامتحان من يدعي الإيمان... وغير ذلك.

وخصص (الباب السابع عشر ص ٣٩٣) بالإحسان المتعلق بالجهال، كعرض الإسلام على الكفار، وتخويف أهل الحرب وإرهابهم، ثم يستطرد العز إلى علم أصول الفقه، ويورد له بابين: (الباب الثامن عشر ص ٤٠٦) في تعريف المصالح والمفاسد، وما يُقدم منها عند التعارض، وفي (الباب التاسع عشر ص ٤١١) يتكلم عن حسن العمل بالظنون الشرعية، وربط العز بين هذين البابين في الأصول وبين كتابه في أفعال القلوب والجوارح أنَّ الجميع وسيلة لمعرفة أدب القرآن، وهذا يكمل نظرية العز عن المصالح في كتابه «قواعد الأحكام».

وختم العز كتابه «شجرة المعارف» في (الباب العشرين ص ٤٢٥) في الورع، فعرّفه بأنه «حزم واحتياط لفعل ما يُتوهم من المصالح، وترك ما يتوهم من المفاسد، وأن يُجعل موهومتها لمعلومتها عند الإمكان» ثم أعقبه بثلاثة فصول عن الاحتياط، والشُّبَه، والإنكار.

تحقيق «شجرة العز»:

وقام الشاب الأستاذ إياد الطباع بتحقيق هذا الكتاب القيم الطريف، ونشره معتمداً على ثلاث نسخ خطية، وقال: «وهذه النسخ الخطية لا نعلم لها رابعة في العالم، رغم البحث الكثير في فهارس المخطوطات»[1].

وكان عمل المحقق المقابلة بين النسخ الخطية الثلاث، وترقيم الفصول بأرقام متسلسلة، وعزو الآيات الكريمة، وتخريج الأحاديث الشريفة، وشرح الألفاظ الغريبة، ثم وضع الفهارس الفنية المتنوعة للآيات، والأحاديث، والأعلام، والشعر، والتعريفات، ومؤلفات العز، والفهرس المعجمي للموضوعات، وألفاظ الفصول، وفهرس التمهيد، وفهرس الموضوعات، فجاءت الفهارس في ٩٤ صفحة (ص ٤٣١ - ٥٢٤).

وقدم للكتاب بتمهيد عن سيرة المؤلف، ومواقفه، ومؤلفاته، ثم بتعريف عن الكتاب، ونسخه الخطية، ومنهج التحقيق (ص ٧ - ٤٦).

وبذل المحقق جهداً طيباً مباركاً في ضبط النص، وتشكيل معظم الكلمات، والترتيب، وتخريج الأحاديث، وعمل الفهارس المساعدة للقارىء، والمسهلة للباحث، فجزاه الله خيراً.

منهج العز في «شجرة المعارف»:

هذا الكتاب ـ كما قلت ـ نافع ومفيد وطريف، وفيه تنوع كثير أدى إلى اختلاف الباحثين في تصنيفه، فبعضهم ذكره في كتب العقيدة، وبعضهم ذكره في التفسير لكثرة الآيات الكريمة فيه، وبعضهم اعتبره في التصوف وتزكية النفس وتربيتها[2]، ووضعه محققه تحت عنوان كتب:

---

(١) شجرة المعارف، المقدمة ص ٤٠.
(٢) الإمام في بيان أدلة الأحكام، مقدمة المحقق ص ٤٩، العز، للوهيبي ص ١٥٢.

العقيدة والزهد والرقائق[1]، وأخذ منه: نظرة العز في الدعوة[2]، وتربية الأولاد، لما فيه من إشارات تربوية[3].

والواقع أن الكتاب يشمل كل ذلك، ويتضمن مختلف نوازع النفس البشرية، وتوجيه القرآن والإسلام، فهو ـ كما قلت عن «القواعد» ـ : حديقة غناء، ولكن هذه الحديقة تصلح لجميع الناس، ويستفيد منها مختلف الطبقات، وفيها الجمل المسبوكة، والعبارات المرصوصة، والكلمات المنتقاة، والآيات الكريمة، والأحـاديث الشريفـة، والحكم البليغة، والفوائد المتنوعة، والأمثال الجميلة، والقواعد الشرعية، والمبادىء الدينية التي يستنبطها العز من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ففي كل فصل من فصوله الصغيرة الموجزة يبدأ العز تقريباً بآية أو أكثر، وحديث أو أكثر ويجعل من ذلك أصلاً يسترشد به، ويستهديه، ويأخذ منه المواعظ البليغة، والإشارات الحكيمة، والأصول المُحْكمة.

وكان العز يقتصر أحيانـاً على ذكر الآية فأكثر في الفصل، ويذكر ما ترشد إليه، وما يُستفاد منها، ويقتصر أحياناً أخرى على رواية الحديث، ويعقبه بالاستدلال والموعظة، وفي بعض الأحيان يكتفي بذكر الآية، ثم الحديث الموافق لها، دون تعقيب نهائياً، مكتفياً بعنوان الفصل الذي وضعه لهما، ولظهور دلالتهما على ذلك، ولذلك يعتبر هذا الكتاب مجموعة آداب من القرآن والسنة، وهو ما صرّح به العز رحمه الله تعالى بقوله: «**من فهم ضوابط هذا الكتاب... لم يكن يخفى عليه أدب من آداب القرآن**»[4].

ومهما تكلمت عن هذا الكتاب القيم، النافع، المفيد، الطريف، فلن أوفيه حقه، ومهما اقتبست من عباراته فلا تغني عن قراءته، ومطالعته،

---

(١) شجرة المعارف، المقدمة ص ٢٣.
(٢) المرجع السابق، المقدمة ص ٣٤.
(٣) المرجع السابق، المقدمة ص ٣٥.
(٤) المرجع السابق ص ٤٠٦.

وقنص شوارده وفرائده، والنشوة في ألفاظه وتراكيبه، ومبانيه ومعانيه، والسعادة الروحية والنفسية في كل سطر من سطوره، ولذلك أكرر عبارة الدكتور الفقير بعد عرضه للنسخة الخطية في ثلاث صفحات: «ولا تغني هذه العجالة عن الاطلاع على الأصل (المخطوط) فإنه في **غاية الجمال والإفادة**، وهو جدير بكل ثناءٍ وإطراءٍ»[1]، ويكفيه هذه التسمية الظريفة المحببة «**شجرة المعارف**».

ونحاول أن نقتطف بعض الثمار فيما يلي:

نماذج من المبادىء التربوية عند العز:

عرض العز رحمه الله تعالى كثيراً من مبادىء التربية الإسلامية، المستقاة من كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، وتمثل جانباً من المنهج الفريد للتربية الإسلامية، وذكر العز هذه المبادىء في مختلف كتبه، ويمكن جمعها، واستخلاص نظرية كاملة منها، ونكتفي هنا بالإشارة إلى جانب منها للإرشاد إليها، والعمل بها:

فمن ذلك أصول التربية لمرحلة الحضانة والإحسان إليها، يقول العز: «وذلك بحسن التربية، واللطف، والرفق، والحُنو، ودفع المضار، وتحسين الحسن للصغير، وتقبيح القبيح، وتعليم الآداب، وتلقين الكتاب، وتعليم الخط والعلم إن كان متأهلاً لذلك، أو صناعة تليق بأمثاله، والأمر بالصوم والصلاة، والنهي عن كل خلق ذميم وعمل غير مستقيم، واجتناب الضرب إن تأدب بالقول والتهديد والضرب الذي لا يصلح إلا به، إلا أنه لا يصلحُ بالضرب الشديد فيجتنب الخفيف والشديد»[2].

ويقول العز في **تأديب الأهل بآداب الشرع**: «تأديب الأهل إنعام

---

(١) الإمام العز، للفقير ص ٣٦٤.

(٢) شجرة المعارف ص ١٧٠، فصل في الإحسان بالحضانة.

عليهم، وإحسان إليهم، وفضيلة الدعاء إلى الآداب مأخوذة من فضل ذلك الأدب، فأفضل التأديبات التأديب بأفضل القربات، وأشرف الطاعات، وكذلك الأفضل فالأفضل، والأمثل فالأمثل». ثم يشير العز إلى الوسائل التربوية مع الأطفال، **والتدرج في الأحوال** فيقول: «وإذا تعلم الصبي ما ينبغي أن يتعلمه من غير زجر فلا يُزجر، وإن لم يتعلم إلا بالزجر زُجر، فإن لم ينجح فيه الزجر ضُرب ضرباً يحتمله مثله، وتغلب فيه السلامة، وإن لم ينزجر إلا بالضرب المبرِّح حَرُم المبرِّح لأدائه إلى قتله، ولم يجز غير المبرِّح لأنه إنما جاز لكونه وسيلة إلى الإصلاح، فإن لم يحصل الإصلاح حرم، لأنه إضرار غير مفيد»[1].

ونلاحظ كيف مزج العز بين مبادىء التربية وقواعد أصول الفقه، ولذلك يؤكد العز هذا المعنى في كتابه «قواعد الأحكام» **وأن الوسائل تسقط بسقوط المقاصد**، فيقول: «إذا كان الصبي لا يُصلحه إلا الضرب المبرِّح، فهل يجوز ضربه تحصيلاً لمصلحة تأديبه؟ قلنا: لا يجوز ذلك، بل [لا] يجوز أن يضربه ضرباً غير مبرِّح، لأن الضرب الذي لا يبرّح مفسدة، وإنما جاز لكونه وسيلة إلى مصلحة التأديب، فإن لم يحصل التأديب سقط الضرب الخفيف، كما يسقط الضرب الشديد، **لأن الوسائل تسقط** بسقوط المفاسد»[2].

ومن هذه الأصول التربوية دعوة العز إلى **مداعبة الصبيان**، فيقول: «مداعبة الصبيان بَسْط لهم، وتطييب لقلوبهم، وترويح عن نفوسهم»[3].

ومن هذه الأصول التربوية الإسلامية الدعوة إلى **الإحسان إلى البنات**، وإبطال عادات الجاهلية الجائرة، فقال العز: «لما كان الحمقى ينفرون من البنات، ويكرهونهنَّ، عظَّم الله ثواب من خرج عن عادة الناس

---

(1) شجرة المعارف والأحوال ص ٢٦٤.
(2) قواعد الأحكام ١/١٢١.
(3) شجرة المعارف ص ٢٤٥.

في ذلك، بالصبر عليهن، والإحسان إليهن»[١].

ثم يرشد العز إلى أن من الإحسان إلى البنات المبادرة بهن إلى الأكفاء، فيقول: «المبادرة إلى إنكاح الأكفاء، والرغبة فيهم، مسارعة إلى إحصان المرأة، ودفع العار عنها؛ بالتزويج بالكفؤ، مع أن البعل الصالح يدعوها إلى كل خَيْر، ويَزَعها عن كل شر»[٢].

ومن هذه الأصول التربوية بيان وظيفة المرأة في البيت، وأثرها في التربية، فيقول العز: «شفقة المرأة على مال زوجها أداء للأمانة، وحُنُوها على طفلها حامل على اللطف به، والإحسان إليه بحسن التغذية والتربية»[٣].

ويبين العز قوة الوازع الفطري عند الإنسان، وأنه أقوى من الوازع الشرعي، لذلك جاءت الأحكام الشرعية منسجمة مع ذلك، وأن الفطرة السليمة لها وازع في داخلها لا يحتاج إلى توجيه الشرع الذي جاء مطابقاً للواقع والفطرة، فأسقط العدالة في بعض الولايات، فعقد العز رحمه الله تعالى فصلاً «فيما لا تشترط فيه العدالة من الولايات» فقال: «العدالة شرط في بعض الولايات، وإنّما شرطت لتكون وازعة عن الخيانة والتقصير في الولاية، ولا تشترط العدالة في ولاية القريب على الأموات في التجهيز والدفن والتكفين والحمل والتقدم في الصلاة، لأن فرط شفقة القريب ورحمته تحثه على المبالغة في الغسل والتكفين والدعاء في الصلاة، وكذلك انكساره بالحزن على التضرع في دعاء الصلاة، فتكون العدالة في هذا الباب من التتمات والتكملات».

«وكذلك ولاية النكاح لا تشترط فيها العدالة على قول؛ لأن العدالة إنما شرطت لتزع الولي عن التقصير والخيانة، وطبع الولي في النكاح يزعه

---

(١) شجرة المعارف ص ٢٤١.
(٢) المرجع السابق ص ٢٤٢.
(٣) المرجع السابق ص ٢٤٢.

عن التقصير والخيانة في حق موليته، لأنه لو وضعها في غير كفء كان ذلك عاراً عليه وعليها، وطبعه يزعه عما يدخله على نفسه ووليته من الأضرار والعار، وكذلك لو كان الولي مستوراً صح النكاح في ظاهر الحكم اعتماداً على العدالة الظاهرة مع قوة الوازع»(١)، ولذلك أمثلة كثيرة في الشرع كقبول إقرار الشخص على نفسه ولو كان فاسقاً أو كافراً. . .

ومن دقة ملاحظة العز التربوية المستنبطة من الشرع أنه رفع الحرج، وفتح أبواب الرخص الكثيرة، وأنه يجوز ترك الوضوء بالماء، والتيمم بدلاً منه، في حالات كثيرة، ويعقد العز رحمه الله تعالى فصلاً في بيان تخفيفات الشرع، ثم يتبعه بفصل آخر في المشاق الموجبة للتخفيف، ويذكر فيهما أمثلة كثيرة من مذهب الشافعي، إلى أن قال: «ويدل على ذلك صور جوَّز فيها الشافعي التيمم بمشاق خفيفة. . .، وخوف الشَّيْن إن كان ظاهراً ففيه خلاف، **والمختار الإباحة**، ويرى أن رأي الإمام مالك «إذا ظهر الشين فى وجوه النساء اللاتي نفاقهن في جمالهن» فيجوز لها التيمم قولاً واحداً، قال العز: «وخلافه (أي خلاف مالك للشافعي) **متجه**»(٢)، ليرجح القول بإباحة التيمم للمرأة إذا كان الوضوء يشين وجهها.

ويذكر العز بعض **القواعد التربوية في الدعوة** التي سار عليها الأنبياء، ويجب الاقتداء بهم، والالتزام فيها، لأنها المنهج الإلهي في الدعوة، فمن ذلك **الموعظة الحسنة**، فيقول العز: «الموعظة الحسنة أدعى إلى قبول الحق من الموعظة المنفِّرة، وما أغلظَ الأنبياءَ في مواعظهم إلا لمعاندٍ جريء على الله. .»(٣) ويذكر أمثلة وأدلة.

ومن ذلك **الدعوة باللين وعدم الغلظة**، فيقول العز رحمه الله تعالى: «للَّين مواطنُ لا يليق بها غيره، وللغلظة مواطن لا يُناسبها سواه، فمن

---

(١) قواعد الأحكام ١/٧٧ ـ ٧٨، وانظر: فتاوى سلطان العلماء ص ١٥١، الفتاوى ص ٤٤.

(٢) قواعد الأحكام ٢/٨، ٩، ١٢، ١٣.

(٣) شجرة المعارف ص ٢٦١.

استعمل أحد الأمرين في موضع الآخر فقد أخطأ،... وفيه تأليف القلوب، وتطييب للنفوس، مُوجِب للاتفاق على مصالح الدارين»[1]، ويذكر العز الأدلة والأمثلة من القرآن الكريم.

ويؤكد العز أن **الغضب لا يصح من الداعية إلا إذا انتهكت حرمات** الله ومقدساته، فيقول: «العاقل يعرف مظان الغضب لله فيغضب فيها، ويعرف مظان التلطف فيتلطف فيها، ألا ترى أن موسى تلطف في أول الأمر بفرعون بقوله: ﴿هل لك إلى أن تزكى﴾ النازعات/١٨، ﴿إني رسول من رب العالمين﴾ الأعراف/١٠٤، وغير ذلك من القول اللَّين الذي أمر به، فلما أصر وأظهر العناد مع تيقنه صدق موسى لقوله: ﴿وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسُهم ظلماً وعُلوّاً﴾، ثم قال لموسى: ﴿إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ الإسراء/١٠١، فأجابه بما يقتضيه الحال في الجواب، فقال: ﴿لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا ربُّ السموات والأرض بَصائر، وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً﴾ الإسراء/١٠٢، أي مُهْلَكاً» ثم يقول العز: «وكذلك جميع الرسل إذا استقرىء أمرهم في بَدء الإرسال وجدتَ فيه الرفق واللين والشفقة على قومهم، فإذا أصروا وعاندوا أغلظوا لهم حينئذ، لما ركّب الله تعالى في رسله من العقول الوافرة، والأحلام الكاملة، ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ الأنعام/١٢٤، بخلاف الغبي الذي يلين في مواطن الإغلاظ، ويغلظ في مظان اللين، معتقداً أنه مقتدٍ بالرسل في غلظتهم ولينهم، فنعوذ بالله من الجهل بمظان خطابه، ومن تحريف كلامه، وتنزيله على غير مراده»[2].

ويمزج العز رحمه الله تعالى بين الحالة النفسية للإنسان، والأحكام الشرعية، وأن التغير في الأحكام التي تؤدي إلى التطور فإنه يعتدّ به في تغير الأحكام بتغير الأزمان، فيقول: «فلو حكم الحاكم في محل يسوغ

---

(١) شجرة المعارف ص ٢٤٧. (٢) المرجع السابق ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

فيه الاجتهاد، ثم تغير اجتهاده فحكم بما أدى إليه اجتهاده ثانياً، كان ذلك قطعاً لما حكم به أولاً، ولا يبطل الأول بذلك، بل ينقطع من حين تغير الاجتهاد، ويبقى الأول على ما كان عليه»[1].

فالحكم الشرعي يتغير في نفس المجتهد، ويشمل الحالات السابقة واللاحقة، ولكن لا يبطل الحكم الأول إذا أفتى به المفتي أو حكم به القاضي، بل يبقى الحكم الأول لوقته فقط، وللسائل أو المحكوم عليه به، لأن الاجتهاد لا يُنقض بمثله، وهذا ما قرره عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ميراث المسألة المشتركة بعدما تغير اجتهاده، وطلب أصحاب القضية الأولى بنقض اجتهاده السابق، أجابهم بقوله المشهور: «تلك على ما قضينا، وهذه على ما نقضي»، وهذا ما قرره الفقهاء في المذاهب الأربعة بعدم نقض الحكم السابق إذا كان مبنياً على اجتهاد، ثم تغير الاجتهاد، وهو المقرر في جميع محاكم النقض في العالم[2].

وهكذا نلاحظ المبادىء التربوية في فكر العز وذهنه وكتبه، وكيف يراعي الفطرة الإنسانية، ويعتد بالوازع الفطري، وأنه أصيل في الإنسان، وله بواعثه الذاتية، ودوافعه الخفية التي تحرك صاحبها تلقائياً في معظم الحالات، لذلك يخفف الشرع من توجيهه فيها، معتبراً أن الوازع الفطري المطبوع عليه الإنسان داخلياً أقوى من الوازع الشرعي، لذلك اعتبر الشرع الحكيم تناول الطعام والشراب والشبع وغيرها مجرد أحكام مباحة أو مندوبة، مع أنها ضرورية للحياة، لأن الوازع الفطري كفيل بتأمينها ورعايتها، وهذا ما أكده الشاطبي فيما بعد في كتابه «الموافقات»[3].

ونختم هذا الفصل عن العز، وهو الفقيه الأصولي، والمعلم

(١) قواعد الأحكام ٢/٤٨.
(٢) انظر كتابنا: أصول المحاكمات الشرعية والمدنية ص ٢٦١.
(٣) انظر: الموافقات ٣/٨٨ وما بعدها.

المربي، بكلمة الأستاذ محمد حسن عبد الله، فيقول: «فهذا الشيخ الذي عاش حياته يصارع فساد الحكام المنحرفين، وتعصب العلماء الجامدين، وضع نصب عينيه شيئاً واحداً، جنَّد فقهه لتربيته وتهذيبه، وهو إنسانية الإنسان، فأحاطها بالرعاية والرفق، والتستر... وأخيراً... بالجمال»[(1)].

ونذكِّر أيضاً بكتاب العز رحمه الله تعالى «أحوال الناس» السابق، فهو في التربية الإسلامية للروح والنفس، ومراقبة الله تعالى، والخوف منه، والاستعداد لملاقاته، ومحاسبة النفس في أعمالها وخطواتها محاسبة ذاتية، ورقابة داخلية ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ القيامة/١٤، ليزن أعماله قبل أن توزن عليه، ويقدر نتائجه سلفاً، ليحتاط عند التقصير، ويرتدع عند الندم، ويزداد في العمل الطيب، ويقول العز فيه: «ما من برّ ولا فاجر، ومؤمن وكافر، إلا ينظر في البرزخ إلى منزله بكرة وعشية إن كان من أهل النار فمن أهل النار، وإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة...»[(2)] ويقول: «الجنة مملوءة بالأفراح وأسبابها، واللذات وأسبابها، خلية من الغموم والآلام وأسبابها، وأفراحها أفضل الأفراح، ولذاتها أفضل اللذات، وأفضل لذة رضا الرب والنظر إليه، وسماع كلامه، والأنس بقربه وجواره»[(3)]، نسأل الله أن يرزقنا ذلك.

---

(١) عز الدين بن عبد السلام، بائع الملوك، لمحمد حسن عبد الله ص ١٤١.
(٢) أحوال الناس ص ٤٦.
(٣) المرجع السابق ص ٤٧.

الفَصْل السَابع
العِزّ وَالزُّهْد وَالتَّصَوُّف

تمهيد عن الزهد والتصوف:

دعا الإسلام إلى العمل في الدنيا مع عدم التعلق بها، لأنها متاع قليل، ولأن الهدف الأسمى للإنسان أن يحيا الحياة الحقيقية في الآخرة، وأن يزهد في الدنيا، وأن يعيش فيها كأنه غريب عنها، أو عابر سبيل، ليترفع عن أدرانه المادية، ويسمو إلى المثل العليا، والصلة الروحية مع رب العالمين، ومن هنا نشأ علم الزهد، ثم تطور إلى علم التصوف.

وعرف الجرجاني الزهد، فقال: «الزهد في اللغة ترك الميل إلى الشيء، وفي اصطلاح أهل الحقيقة هو بغض الدنيا، والإعراض عنها، وقيل هو ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة، وقيل: هو أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك»[١].

وعرف التصوف عدة تعريفات، لأنه ليس له حقيقة محددة، فقال: «التصوف: الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً، فيرى حكمها من الظاهر في الباطن، وباطناً فيرى حكمها من الباطن في الظاهر، فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال».

وقال الجرجاني: «التصوف: مذهب كله جد، فلا يخلطونه بشيء من الهزل، وقيل: تصفية القلوب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق

---

(١) التعريفات ص ١٠١.

الطبعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدعاوى النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، واستعمال ما هو أولى على السرمدية، والنصح لجميع الأمة في الشريعة، وقيل: ترك الاختيار، وقيل: بذل المجهود، والأنس بالمعبود، وقيل: حفظ حواسك عن مراعاة أنفاسك، وقيل: الإعراض عن الاعتراض، وقيل: هو صفاء المعاملة مع الله تعالى، وأصله التفرغ عن الدنيا، وقيل: الصبر تحت الأمر والنهي، وقيل: خدمة التشرف، وترك التكلف، واستعمال التظرف، وقيل: الأخذ بالحقائق، والكلام بالدقائق، والإياس مما في أيدي الخلائق»[1].

والتصوف كعلم ومذهب وطريقة لم يعرف بهذا الاسم في القرن الأول الهجري، وعرف باسم الزهد والعبادة في القرن الثاني والثالث، وأخذ حدوده وأبعاده في نهاية القرن الثالث، وظهر فيه التطرف والإفراط بعد ذلك، ودخل في حيز الفلسفة، وتسربت إليه الهلوسة والمفاهيم الدخيلة في عهد الانحطاط والتأخر، ثم بدأ يتراجع، ويتصفى، وتنقرض فيه الغلواء، واقترن مع التربية والأخلاق في عصرنا الحاضر، وكان له شأن كبير في التاريخ الإسلامي من الناحيتين السلبية والإيجابية، في البناء والهدم، في الإصلاح والدعوة وفي الإفساد والبدع والضلال، لذلك اختلط فيه الأمر، واختلفت فيه الآراء، وتشعبت الأقوال، وكان من أكثر العلوم جدلاً بين المسلمين قديماً وحديثاً، وتختلف فيه وجهات النظر إلى أبعد حد[2].

وزبدة القول في ذلك أن نفرق بين أمرين:

الأول : التربية الروحية والنفسية التي عرفت أحياناً باسم الزهد

---

(١) التعريفات ص ٥٢.

(٢) انظر فكرة مختصرة عن علم الزهد والتصوف ونشأته وتطوره، وأشهر علمائه، وأهم كتبه في (مرجع العلوم الإسلامية ص ٦٨٣ وما بعدها).

والتصوف، وتهدف إلى تهذيب النفس، وترقيق القلب، وتنمية المراقبة الذاتية لله تعالى، والمحاسبة الداخلية للسلوك، ليبقى المسلم ملتزماً بأحكام الشرع، ومنصرفاً في أعماله وتصرفاته إلى مرضاة الله تعالى، والتزام الجادة القويمة في الدين، وإخلاص النية لله تعالى، والبعد عن الرياء والمعاصي وارتكاب المناهي، والتوجه الحقيقي إلى السعادة الأخروية، والحياة السرمدية، باعتبار الدنيا ممراً لها، ومزرعة للخير فيها.

الثاني : التصوف والصوفية كمذهب وطريقة، له اصطلاحاته الخاصة أولاً، والباطنية ثانياً، ومنهجه في الذكر والرقص والحركات... وغير ذلك ثالثاً، وما تسرب إليه من النظريات الفلسفية الباطلة رابعاً، كالقول بقدم العالم، والقول بحلول الإله في المخلوقات واتحاده معهم، مع تمسكهم الظاهر بالقرآن والسنة وأحكام الشريعة والعقيدة، ومخالفة كثير من ذلك فكراً وسلوكاً وتطبيقاً.

كتب العز في التصوف:

وقبل أن نتحدث عن كون العز متصوفاً أم لا، نذكر كتبه التي تتعلق بهذا الموضوع، وهي:

١ ـ رسالة في القطب والأبدال الأربعين:

القطب والأبدال اصطلاحان عند المتصوفة يعتقدون بوجودهم، ولهم احترام وتقدير في نفوس المتصوفة، وينسبون لهم كثيراً من الأمور التي لم ترد في الشرع، ولا أصل لها في الدين[١]، ولذلك صنف الشيخ العز هذه الرسالة لبيان بطلان قول الناس فيهم، وعدم وجودهم، كما زعموا[٢]، وطبعت في حلب.

---

(١) انظر تعريف القطب والأبدال في نظر الصوفية في كتاب «التعريفات للجرجاني ص ١٥٥، ٢٣٥).

(٢) هذا ما قاله حاجي خليفة، انظر: كشف الظنون ١/٥٦١.

٢ ـ مسائل الطريقة في علم الحقيقة:

وهي رسالة صغيرة في ثلاث ورقات، وطبعت في ١١ صفحة بمصر سنة ١٣٢٢ هـ، ضمن كتاب «تحفة الإخوان» لأحمد الدردير، واشتهرت بالستين مسألة، لأنها تتضمن ستين سؤالاً في الأخلاق والتصوف والإيمان بعبارة موجزة.

وبين العز أهمية هذه المسائل والغرض منها، فقال: «فهذه مسائل حقيقية، مأخوذة من علم التوحيد، يجب على كل متصوف أن يعرفها، لأنهم قالوا من تشرّع ولم يتحقّق فقد تفسّق، ومن تحقّق ولم يتشرّع فقد تزندق، وقد جمعتها ليكون المسؤول حاضر الجواب»، والهدف هو الجمع بين الشريعة والحقيقة، والظاهر والباطن.

والأسئلة في الإيمان، وتأويل لا حول ولا قوة إلا بالله، والفرق بين الإسلام والإيمان، ومسألة ما إذا قيل: ما الإيمان؟ وما رأس الإيمان؟ وما وسط الإيمان، وما شجرة الإيمان؟ وما ماء الإيمان، وما نهْر الإيمان؟ وأجاب: الإيمان هو الصدق، ورأسه التقوى، ووسطه الطاعة واليقين، وعروقه الصلاة والإخلاص، وشجرته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغصنه التوحيد، وثمرته الزكاة، وأرضه المؤمنون، وماؤه كلام الله، ونهره العلم.

ومنها مسألة: لكل شيء جوهرة، وجوهرة الإنسان العقل، وما جوهرة العقل؟ والجواب: جوهرة العقل الصبر، والعمل بحركات القلوب عند مطالعة الغيوب، وأصل الطاعة الورع، وأصل الورع التقوى، وأصل التقوى محاسبة النفس بالخوف والرجاء من الله تعالى.

ومنها مسألة: ما الذي يجب على الشيخ في حق المريد، وما الذي يجب على المريد في حق الشيخ؟ والجواب: على الشيخ ثلاثة أشياء: التسليك في البداية، والتبليغ في النهاية، والحفظ في الرعاية، والمريد

يجب عليه ثلاثة أشياء: امتثال أمره، وكتمان سره، وتعظيم قدره[1].

وشكك الدكتور الفقير، والأستاذ الطباع بصحة نسبة هذه الرسالة للعز[2]، وأضم صوتي لهما، فمن يقرأ كتب العز، عامة، ويتعرف على أسلوبه، وعباراته، وأفكاره في كتب «شجرة المعارف» و«الإمام في بيان أدلة الأحكام» و«أحوال الناس» وكتب العقيدة والفقه والأصول يتأكد له اختلاف الأسلوب والفكرة، والجوهر والعرض، وخاصة هذه العبارة التي يظهر عليها التصنع من جهة، وأنها من كتب التصوف من جهة أخرى: «تشرّع، يتحقّق، تفسّق، يتشرًّع، جوهرة العقل، حركات القلوب عند مطالعة الغيوب، الشيخ والمريد، التسليك، كتمان سره، تعظيم قدره»، ولا يستبعد أن تكون الرسالة لشخص آخر، واقتبس بعض الفقرات والجمل والعبارات والمعاني من كتب العز فنسبت له.

٣ ـ مختصر رعاية المحاسبي، أو مقاصد الرعاية لحقوق الله:

وهذا الكتاب ذكره ابن السبكي والداودي في كتب العز[3]، وتوجد منه ثلاث نسخ خطيّة، وقام الأستاذ إياد الطباع بتحقيقه، ويسعى لنشره، وهو قيد الطباعة.

وكتاب الرعاية في التصوف للشيخ حارث بن أسد المحاسبي ٢٤٣ هـ[4]، قال فيه حاجي خليفة: «قيل فيه كلمات كثيرة في التعسف، وشدة السلوك التي لم يرد بها الشرع والتدقيق والمحاسبة الدقيقة البليغة،

---

(١) انظر: الإمام العز، للفقير ص ٣٤٧، العز، للوهيبي ص ١٥٥ ـ ١٥٦، عصر سلاطين المماليك ٣/١٨٨.

(٢) الإمام العز، للفقير ص ٣٤٧، شجرة المعارف، مقدمة المحقق ص ٣١.

(٣) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٤٨، طبقات المفسرين ١/٣١٤.

(٤) انظر ترجمة مختصرة للحارث المحاسبي في كتاب (مرجع العلوم الإسلامية ص ٧٠٠).

فلهذا لما وقف عليه أبو زرعة الرازي قال: هذا بدعة، كذا قال ابن كثير في ترجمة أحمد بن حنبل»[1].

ولم أطلع على مختصر العز للكتاب، ولعله اختصره ليرد على ما فيه من تشدد وغلواء، ويبين المنهج الإسلامي الصحيح في الزهد، والورع، والتقوى، والزهادة في الدنيا، والصلة بالله تعالى، والشوق إلى رضاه، وترقيق القلب، ويبرز ما في كتاب «الرعاية» من مقاصد حسنة، وزهد صحيح، وتربية سليمة، وخاصة أن المحاسبي صنفه قبل أن تتسرب الصوفية المتطرفة إلى المعلمين.

ونشير أخيراً إلى أن كثيراً من الكتّاب عدّوا بعض كتب العز الأخرى في التصوف، وصنفوها في هذا الإطار، وخاصة كتابه «شجرة المعارف» و «الإمام في بيان أدلة الأحكام» وبعض فتاويه[2]، كما نسب بعضهم كتباً صوفية بحتة للعز، وترجح أنها ليست له مثل كتاب «حل الرموز ومفاتيح الكنوز»، وهو من تأليف عز الدين بن عبد السلام المقدسي[3].

الآراء المختلفة في تصوف العز:

اتفقت آراء العلماء والكتاب والمصنفين قديماً وحديثاً على معظم أخبار العز وصفاته، وأحواله وكتبه، ولكنهم اختلفوا اختلافاً واسعاً في وصفه بالتصوف أو براءته منه، وتشعب القول في ذلك، لاختلاف الناس في حقيقة التصوف، ومشروعيته، واتفاقه مع الإسلام أو مخالفته، واختلاف صورته في التاريخ الإسلامي، ووجود الجذور الأصيلة لمعانيه في القرآن والسنة من جهة، وخلطه بالمصطلحات والمبادىء الدخيلة من

---

(١) كشف الظنون ١/ ٥٧٤، وانظر: البداية والنهاية، لابن كثير ١٠/ ٣٣٠.

(٢) انظر: شجرة المعارف، المقدمة ص ٢٣، الإمام، المقدمة ص ٤٩.

(٣) العز، للوهيبي ص ١٦١، شجرة المعارف، المقدمة ص ٣٠.

جهة ثانية، والتستر وراءه من ذوي النوايا الخبيثة والماكرين والحاقدين من جهة ثالثة، وهل تتفق هذه الأحوال مع حيـاة العز ومواقفه وكتبه؟

ذهب معظم المؤرخين القدامى، وبعض المعاصرين إلى إثبات نسبة التصوف للعز، وبالغ بعضهم في ذلك، واتخذوا من كلام العز ما يثبت صحة التصوف، واتفاقه مع الكتاب والسنة، واستندوا إلى أدلة كثيرة، أهمها صلته بكبار علماء الصوفية في زمانه كأبي الحسن الشاذلي، والسُّهْرَوَرْدي، وحضور مجالسهم، وقراءة كتب الصوفية، وممارسته لبعض أعمالهم.

نقل ابن السبكي: أن الشيخ عز الدين لبس خرقة التصوف من الشيخ السُّهروردي، وأخذ عنه، وذَكر أنه كان يقرأ بين يديه «رسالة القشيري» ثم قال ابن السبكي: «وقد كان للشيخ عز الدين اليد الطولى في التصوف، وتصانيفه قاضية بذلك»[1].

وقال ابن العماد الحنبلي: «وله مكاشفات، قال الذهبي: كان يحضر السماع، ويرقص»[2].

وقال السيوطي: «وله كرامات كثيرة، ولبس خرقة التصوف من الشهاب السُّهروردي، وكان يحضر عند الشيخ أبي الحسن الشاذلي، ويسمع كلامه في الحقيقة، ويعظّمه، وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: قيل لي: ما على وجه الأرض مجلسٌ في الفقه أبهى من مجلس عز

(١) وقال ابن السبكي أيضاً «وذكر أنه كان يقرأ بين يديه (السهروردي) رسالة القشيري فحضره مرة الشيخ أبو العباس المرسي لما قدم من الإسكندرية إلى القاهرة، فقال له الشيخ عز الدين: تكلم على هذا الفصل، فأخذ المرسي يتكلم، والشيخ عز الدين يزحف في الحلقة، ويقول: اسمعوا هذا الكلام الذي هو حديث عهد بربه» (طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢١٤ - ٢١٥، وانظر: مفتاح السعادة ٢/٣٥٣، الطبقات الكبرى للشعراني ١/١٤ وذكر القصة عن الشاذلي).

(٢) شذرات الذهب ٥/٣٠٢.

الدين بن عبد السلام، وما على وجه الأرض مجلس في الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكي الدين عبد العظيم، وما على وجه الأرض مجلس في علم الحقائق أبهى من مجلسك»[1]، وأن ذلك كان بحضور العز وموافقته.

وقال طاش كبري زاده: «قيل: إنه لبس خرقة التصوف من الشيخ الشهاب السُّهروردي» ثم قال: «وكان للشيخ عز الدين اليد الطولى في التصوف، وتصانيفه قاضية بذلك»[2].

وقال الداودي: «ولبس خرقة التصوف من الشهاب السهروردي، وأخذ عنه، وكان يقرأ عليه رسالة القشيري، وله يد في التصوف، وكان يحضر ويرقص ويتواجد»[3].

وقال الكتبي عنه: «كان يحضر السماع ويرقص ويتواجد»[4].

وقال الشعراني: «وكان الشيخ عز الدين رضي الله عنه يقول بعد اجتماعه على الشيخ أبي الحسن الشاذلي، وتسليمه للقوم: من أعظم الدليل على أن طائفة الصوفية قعدوا على أعظم أساس الدين ما يقع على أيديهم من الكرامات والخوارق، ولا يقع شيء من ذلك قط لفقيه إلا إن سلك مسلكهم كما هو مشاهد، وكان الشيخ عز الدين رضي الله عنه قبل ذلك ينكر على القوم، ويقول هل لنا طريق غير الكتاب والسنة، فلما ذاق مذاقهم، وقطع السلسلة الحديدية بكراسة الورق، صار يمدحهم كل المدح، ولما اجتمع الأولياء والعلماء في واقعة الإفرنج بالمنصورة قريباً من ثغر دمياط جلس الشيخ عز الدين. . .» وذكر القصة التي ذكرنا سابقاً[5].

وأيد هذا الفريق رأيهم في تصوف العز بما ألّفه في هذا الخصوص

---

(١) حسن المحاضرة ١/٣١٥.

(٢) مفتاح السعادة ٢/٣٥٤.

(٣) طبقات المفسرين ١/٣١٢.

(٤) فوات الوفيات ١/٥٩٥.

(٥) الطبقات الكبرى للشعراني ١/١٣ ـ ١٤، وانظر: مرآة الجنان لليافعي ٤/١٥٣.

من الكتب التي ذكرناها آنفاً، وما نسب إليه أيضاً مثل كتاب «حل الرموز، ومفاتيح الكنوز» مما لم تصح نسبته للعز، وما كتبه من فقرات كثيرة في كتبه المعتمدة عن مدح الصوفية دون أن يصرح باسمهم نهائياً، وإنما ذكر أوصافهم مثل «حزب الله»، «الأولياء»(١)، وتكلم العز كثيراً عن أحوالهم مثل «تفاوت رتب المعارف والإيمان» و«التفاوت في الأحوال»(٢) و«الفضائل بالمعارف والأحوال» و«تعريف ما يظهر من معارف الأولياء وأحوالهم» و«بيان أحوال الناس»(٣)، وقوله: «الفضائل بالإسلام، والإيمان، والتقوى، والمعارف، والأحوال، والأبوة، والحرية، والأمانة الروحية، والأخلاق السنية...»(٤)، وما جاء في تمهيده لكتابه «شجرة المعارف» من عناوين: «بيان القربات، فضائل الأعمال الظاهرة والباطنة، ثمرات المعارف وفوائدها، كيفية إثمار المعارف للأحوال، وما يترتب عليه»(٥)، ثم عنوان الباب الأول «في التخلق بصفات الرحمن على حسب الإمكان» وعنوان الباب الثاني: «التخلق بالأسماء والصفات»(٦)، والباب الثالث «فيما تشتمل عليه القلوب من الصفات والأخلاق»، والباب الرابع «فيما يتعلق بالقلوب والجوارح من الأحكام»، والباب الخامس «في المأمورات الباطنة»(٧) وغيرها، حتى اعتبر كثيرون أن كتاب «شجرة المعارف والأحوال» كله في التصوف والتربية الروحية وإصلاح القلوب، فمن ذلك قوله: «والطريق في إصلاح القلوب ـ التي تصلح الأجساد بصلاحها، وتفسد بفسادها ـ تطهيرها من كل ما يباعد عن الله، وتزيينها

---

(١) قواعد الأحكام ٢٨/١، ٢٩، وانظر قول العز في «تفضيل العارفين بالله على العارفين بأحكام الله...» في (فتاوى سلطان العلماء ص ٥٣ وما بعدها).
(٢) قواعد الأحكام ٣٢/١.
(٣) المرجع السابق ٢٢٦/٢، ٢٢٧، ٢٢٨، وانظر: أحوال الناس للعز ص ١٩.
(٤) أحوال الناس ص ٥٠.
(٥) شجرة المعارف ص ٢، ٤، ٧، ١٤.
(٦) شجرة المعارف ص ١٧، ٢٩.
(٧) المرجع السابق ص ٤٧، ٤٨، ٤٩.

بكل ما يقرب إليه، ويزلفه لديه من الأحوال والأقوال والأعمال وحسن الآمال، ولزوم الإقبال عليه. . . ، **ومعرفة ذلك هي الملقبة بعلم الحقيقة، وليست الحقيقة** خارجة عن الشريعة، بل الشريعة طافحة بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال والعزوم والنيات وغير ذلك مما ذكرناه من أعمال القلوب، فمعرفة أحكام الظواهر معرفة لجل الشرع، ومعرفة أحكام البواطن معرفة لدق الشريعة، ولا ينكر شيئاً منهما إلا كافر أو فاجر»[1].

ثم حذر العز رحمه الله من الدخلاء في ذلك فقال: «وقد يتشبه بالقوم من ليس منهم، ولا يقاربهم في شيء من الصفات، **وهم شرّ من قطاع الطريق**، لأنهم يقطعون طرق الذاهبين إلى الله تعالى، وقد اعتمدوا **على كلمات قبيحة يطلقونها على الله**، ويسيؤون الأدب على الأنبياء والرسل، وأتباع الأنبياء من العلماء الأتقياء، **وينهون من يصحبهم عن السماع من الفقهاء**، لعلمهم بأن الفقهاء ينهون عن صحبتهم وعن سلوك طريقهم»، ثم شرح بعض المصطلحات التي يستعملها الصوفية دون أن ينسبها إليهم[2].

وترجم القدماء والمحدثون هذه النصوص إلى «الصوفية» واعتبروا الشيخ العز من أبنائها، ودفعهم أن يذكروا ما سبق في صفاته الخُلُقية في كرامات الأولياء، ومقامات الأصفياء والصوفية.

وذهب فريق من المعاصرين إلى نفي التصوف عن العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى، وأن التصوف يتنافى مع عقلية العز الفكرية والاجتهادية، القائمة على إعمال العقل في النصوص، وتتعارض مع سيرة العز في الحياة، ومواقفه، وفتاويه، وكتبه ومصنفاته.

وحاول هؤلاء تأويل ما نقله المؤرخون عن تصوف العز وسماعه

---

(١) قواعد الأحكام ٢/٢١٢.

(٢) المرجع السابق ٢/٢١٢ ـ ٢١٣.

ورقصه، وغالى بعضهم بإنكار الكرامات المنسوبة للعز، وتفسيرها تفسيراً مادياً ونفسياً وروحياً، وتوسط آخرون إلى الاعتراف بتصوف العز على طريقته الخاصة وطريقة السلف التي تجمع بين العلم والعمل(١).

وتحفظ أصحاب هذا الرأي عما ذكر من تصوف العز لتأثرهم بالحملة الشعواء التي أثيرت على الصوفية والمتصوفة في القرن التاسع عشر والعشرين من تقديس العقل واعتماد التجربة، وما نقل عن المتصوفة من شطحات ومخالفات للشرع، وما صدر عن المغالين منهم، والمتطفلين عليهم، والدخلاء بينهم من عبارات وجمل تحمل الكفر الصريح، وأدى إلى إصدار كثير من الفتاوى بتكفير قائليها، ومحاكمتهم وحبسهم، وقتل بعضهم(٢).

ومما يؤيد أصحاب هذا الرأي ما صدر عن العز رحمه الله تعالى من شدة وصراحة في بعض أمور التصوف، فيقول مثلاً عن أكبر علماء التصوف، وأشهر العارفين فيه: «شيخ سوء كذاب، يقول بقدم العالم، ولا يحرم فَرْجاً. . .» ولما جرى ذكره أمامه مرة أخرى قال عنه: «هو شيخ سوء مقبوح كذاب»(٣)، دون أن ينكر العز الكرامات الصحيحة للصالحين وعباد الله المتقين والأولياء العاملين(٤).

ويصرح العز بما ذكرنا سابقاً بأنه «قد يتشبه بالقوم من ليس منهم، ولا يقاربهم في شيء من الصفات، وهم شر من قطاع الطريق، لأنهم يقطعون طرق الذاهبين إلى الله تعالى، وقد اعتمدوا على كلمات

---

(١) العز، للندوي ص ١٠٤ وما بعدها، عز الدين، لمحمد حسن عبد الله ص ١٦٥ وما بعدها.

(٢) انظر: الإمام العز، للفقير ص ١٧٩ وما بعدها، عز الدين، لمحمد حسن عبد الله ص ١٧٩.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء ٤٩/٢٣. (٤) انظر: المرجع السابق ٤٤٣/٢٠.

قبيحة...»[1] وهذا يصدق على المتصوفة أو على الغلاة منهم.

ويندد العز رحمه الله تعالى بكثير من اصطلاحات الصوفية، والرموز التي يستعملها المتصوفة، ويُشكل ظاهرها، ويخفى باطنها، فيقول: «ولهم ألفاظ يستعظمها سامعها، منها: التحلي، وهو عبارة عن العلم والعرفان، وكذلك المشاهدة، ومنها: الذوق، وهو عبارة عن وجدان لذة الأحوال ووقع التعظيم والإجلال، ومنها: الحجاب، وهو عبارة عن الجهل والغفلة والنسيان، ومنها قولهم: قال لي ربي، وإنما ذلك عبارة عن القول بلسان الحال دون لسان المقال، كما قالت العرب: امتلأ الحوض،... ومنها قولهم: القلب بيت الرب، ومعناه القلب بيت معرفة الرب، شبهوا حلول المعارف بالقلوب بحلول الأشخاص في البيوت...، ومنها: القرب، وهو عبارة عن الأسباب الموجبة للإبعاد، ومنها: المجالسة، وهو عبارة عن لذة يخلقها الرب سبحانه وتعالى مجانسة للذة الأنس، وبمجالسة الأكابر»[2]، ويقول: «الفناء الناشىء عن الاستغراق ببعض هذه الأحوال، وحقيقة الفناء غفلة وغيبة»[3].

ويصل العز قمة الإنكار والاستهجان لما يصدر عن المتصوفة من الرقص والسماع، فيقول: «**وأما الرقص والتصفيق فخفة ورعونة مشبهة** لرعونة الإناث، لا يفعلها إلا راعن، أو متصنع كذاب، وكيف يتأتى الرقص المتزن بأوزان الغناء ممن طاش لبه، وذهب قلبه، وقد قال عليه السلام: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» ولم يكن أحد من هؤلاء الذين يقتدى بهم يفعل شيئاً من ذلك، **وإنما استحوذ الشيطان على قوم**، يظنون أن طربهم عند السماع إنما هو متعلق بالله عزّ وجلّ، ولقد مانوا **فيما قالوا، وكذبوا فيما ادعوا**...، ومن هاب الإله وأدرك شيئاً من

---

(١) قواعد الأحكام ٢/٢١٢.

(٢) المرجع السابق ٢/٢١٩ ـ ٢٢٠. (٣) المرجع السابق ٢/٢١٤.

تعظيمه لم يتصور منه رقص ولا تصفيق، ولا يصدر التصفيق والرقص إلا من غبي جاهل، ولا يصدران من عاقل فاضل»[1].

وقال العز بتكفير معتقد الحلول في الوقت الذي لا يكفر المجسمة، وإنما يفسقهم ويبدعهم، وقارن بين مسألة اعتقاد الجهة (أي أن الله تعالى في جهة معينة كالسماء) والقائل بالحلول، فاعتبر من قال بالجهة مخطئاً ومعفواً عنه «لمشقة الخروج منه والانفكاك عنه» وعلله بقوله: «فإن اعتقاده بموجود، ليس بمتحرك ولا ساكن ولا منفصل عن العالم، ولا متصل به، ولا داخل فيه، ولا خارج عنه، لا يهتدي إليه أحد بأصل الخلقة في العادة، ولا يهتدي إليه أحد إلا بعد الوقوف على أدلة صعبة المدرك، عسرة الفهم، فلأجل هذه المشقة عفا الله عنها في حق العامة»... «ومن زعم أن الإله يحل في شيء من أجساد الناس أو غيرهم فهو كافر، لأن الشرع إنما عفا عن المجسمة لغلبة التجسيم على الناس، فإنهم لا يفهمون موجوداً من غير جهة، بخلاف الحلول، فإنه لا يعم الابتلاء به، ولا يخطر على قلب عاقل، ولا يعفى عنه»[2].

ولما سئل العز عن الإنشاد والتواجد والرقص والسماع أجاب: «الرقص بدعة، لا يتعاطاه إلا ناقص العقل، ولا يصلح إلا للنساء، وأما سماع الإنشاد المحرك للأحوال السيئة بما يتعلق بالآخرة، فلا بأس به، بل يندب إليه عند الفتور، وسآمة القلوب، لأن الوسائل إلى المندوب مندوبة، والسعادة كلها في اتباع الرسول ﷺ واقتفاء أصحابه الذين شهد لهم بأنهم خير القرون، ولا يحضر السماع من في قلبه هوى خبيث، فإن السماع يحرك ما في القلوب من هوى مكروه أو محبوب، والسماع يختلف باختلاف السامعين والمسموع منهم، وهم أقسام...» وعددهم[3].

---

(١) قواعد الأحكام ٢/ ٢٢٠ - ٢٢١. (٢) المرجع السابق ١/ ٢٠١، ٢٠٢.

(٣) فتاوى سلطان العلماء ص ١٠٧ وما بعدها، وانظر: الفتاوى للعز ص ١٦٣ وما بعدها.

وحاول بعض القدامى الجمع بين الأمرين، بأن العز مرَّ في طورين، الأول: مراقبته لأحوال التصوف من بعيد، ليتبين مدى موافقته للعقيدة والشريعة، وفي هذا الطور شنع على أقوال بعض المتصوفة لمنافاتها للشرع، والطور الثاني: اقترابه من أئمة التصوف، واطلاعه على أحوالهم من قرب، فصادقهم، وعاشرهم، وشاركهم في أحوالهم، فأعجبه أمرهم، وامتدحهم، وأثنى عليهم، ثم دافع عنهم، وحذر من معاداة الأولياء والصالحين[1].

كما حاول بعض المعاصرين الجمع بين الرأيين بأن الخلاف شكلي، وذلك أن العز كان متصوفاً ولكنه معتدل، ولذلك يصرف كل ما كتبه العز ضد التصوف على الغلو فيه، والمغالين، والدخلاء، ويحمل كل ما قاله في صالح التصوف على التصوف المعتدل، وهو رأي الدكتور علي الفقير[2].

الرأي المختار في تصوف العز:

وأرى - والله أعلم - أن الاختلاف بين الآراء في تصوف العز، وموالاته للتصوف، وتأييده للصوفية، أو في عدم تصوفه، ومعاداته للتصوف، ومخالفته للصوفية، **هو اختلاف اصطلاحي**، وليس شكلياً، أو توفيقياً، وهنا نذكّر بما قدمناه في أول هذا الفصل من وجوب التفريق بين أمرين في شأن التصوف والصوفية: الأول: **التربية الروحية والنفسية في الإسلام التي تحمل معاني التصوف**، وتعرف باسم الزهد أحياناً، والتصوف أحياناً، والأمر الثاني: التصوف والصوفية كمذهب وطريقة محددة ومعروفة، وإن اختلفت صورها وأشكالها.

---

(١) انظر: الإمام العز، للفقير ص ١٧٥، ١٧٧.
(٢) الإمام العز، للفقير ص ١٩٥، وانظر: العز للوهيبي ص ٩٦.

فمن نظر إلى الأمر الأول، والمعاني العامة للتصوف والتربية الروحية والنفسية فيرى أن الشيخ العز كان متصوفاً، وهذا صحيح، فالعز كان ورعاً، تقياً، زاهداً، كثير الثقة بالله، عظيم الاعتماد عليه، دائم الصلة به، شديد المراقبة لربه في الخلوة والجلوة، والسر والعلن، ولا يقصد إلا مرضاته في كل ما يصدر عنه، وكان العز رحمه الله تعالى لا يفتر لسانه عن ذكر الله تعالى، ولا يتعلق قلبه إلا بالله، ولا يرجو إلا رضاه، وهذا باتفاق من يعرفه في حياته، ومن ترجم لسيرته، وعرضنا سابقاً نبذة عن ورعه وزهده وتقواه، حتى قال الداودي: «وكان كل أحد يضرب به المثل في الزهد والعلم»[1].

فإن أريد بالتصوف هذا المعنى الشرعي في الزهد والورع والتقوى والتربية الروحية والصفاء القلبي، والنقاء النفسي، فيصح أن يطلق على العز أنه متصوف حقاً وحقيقة، وحياتُه أروع الأمثلة لهذه المعاني الإسلامية الثابتة في القرآن الكريم، وطبقها رسول الله ﷺ في حياته وعبادته، وتربيته، وسار عليها معظم السلف الصالح، وأولياء الله، وعُبَّاده الأتقياء، ويوافق عليها كل مسلم، وهي غاية كل بر وتقي وصالح، وأن الإنسان المسلم يزداد في هذا المجال تعلقاً والتزاماً، وقرباً وشوقاً، كلما تقدّم به السن، وعرف حقيقة الحياة، وجرب ما فيها، وأيقن مصيره إلى لقاء الله وحسابه، وجنته ورضوانه، وهو ما حصل مع العز أيضاً، واعتبره بعضهم طوراً جديداً للعز.

وهذه المعاني الإسلامية الثابتة والمهمة والجليلة يدعو إليها كل عالم عامل، ومسلم صادق، وداعية مخلص، ومن هذا الإطار صنف العز كتبه التي وصفت من غيره وصُنِّفت بعنوان «كتب التصوف»، كما كثرت هذه المعاني في سائر كتبه في التفسير والعقيدة، والفقه وأصول الفقه، والتربية

---

(١) طبقات المفسرين ١/٣١٢.

وفضائل الأعمال، وفي الأخلاق والآداب، لأنها انعكاس عن سريرته وما يكنه في قلبه، وما يلتزمه في حياته وسلوكه.

كما أن المسلم الصادق يقدر من يتصف بهذه المعاني الإسلامية السامية، ويحترم أشخاصهم، ويتقرب منهم، ويثني عليهم، ومن هذا المنطلق نعلل احترام العز لمعاصريه من علماء التصوف كالسُّهروردي، والشاذلي، وأبي العباس المرسي، وصداقته لهم، والتقاءه معهم، وحضور مجالسهم، ومشاركتهم في بعض الجوانب التربوية والسلوكية، بل حتى في قبول الشارات الشكلية التي يتعلقون بها، ما دامت لا تخالف الكتاب والسنة، كلبس القبعة أو خرقة التصوف إن ثبت ذلك عنه.

ومن هذا المنطلق نقبل جميع ما ذكره مترجمو العز باعتباره متصوفاً، وأنه كان يقرأ «رسالة القشيري» في التصوف، وأن له اليد الطولى في التصوف، وتصانيفه قاضية بذلك.

وإن أريد **بالتصوف معناه الاصطلاحي كمذهب وطريقة**، بحسب السائد والمعروف والمألوف في العصور المتأخرة، فنستطيع أن نجزم أن **الشيخ العز لم يكن متصوفاً، ولا صوفياً على الإطلاق**، ونستدل على ذلك بأمور كثيرة، وواضحة.

منها أن كتب العز الموسومة بالتصوف هي بذاتها إما للرد على المفاهيم الباطلة التي تسربت باسم الصوفية إلى الإسلام، ولا تزال حتى اليوم مقررة في كتبهم وأذهانهم وأفكارهم، وينشرونها بين أتباعهم، والإسلام منها براء، ولذلك يلجؤون إلى تأويلها خلافاً للظاهر، فهدم العز وجودها ونسبتها إلى الدين والإسلام، كالقطب والأبدال، وإما لتقريب المتصوفة إلى الطريق الصحيح، والإيمان السليم، والعمل بالشرع، مثل كتابه «مسائل الطريقة» إن صحت نسبته إليه، فلعله أراد أن يأخذ بيدهم ـ وهو يحبهم ويحترمهم ـ إلى الطريق الأقوم، والمنهج السديد، والالتزام

بالكتاب والسنة والسيرة وأعمال السلف الصالح، وإما للتخفيف من غلواء المتصوفة، لبيان المعنى الصحيح للمصطلحات الشرعية التي عرضها الحارث المحاسبي في كتابه «مقاصد الرعاية»، ومن هذا المنطلق نرى العز عنيفاً في تكفير القائلين بالحلول والاتحاد، وكان قاسياً شديداً على دعاة الرقص في الذكر، وأنه تسرب إلى حظيرة التربية الروحية والنفسية في الإسلام الدخلاء والمخربون، ورد العز في «القواعد» وغيرها على المصطلحات الخاصة بالتصوف.

ومنها أن العز لم ينطق بكلمة واحدة صريحة باسم «الصوفية، والتصوف» مع شيوعها وانتشارها في عصره، وقبولها واحترامها من مختلف الأوساط، وعلى مختلف الأصعدة، وكان يكتب في كتبه عن النفس والأحوال والأولياء والمراتب والفضل وهذه أمور شرعية، وليست خاصة بالصوفية، بل على العكس صنف كتباً للرد على الاصطلاحات الخاصة بالتصوف كالقطب والأبدال كما رأينا، وبيّن المعنى الشرعي الصحيح لكثير من المصطلحات المشتركة بين علماء الشريعة وعلماء الحقيقة أو علماء التصوف، وأنها مأخوذة من علم التوحيد، وعلم الأخلاق والسلوك والعبادة، ليميز المنهج الإسلامي الصحيح في التربية الروحية والتهذيب النفسي عما لحقه من الفرق والأديان والثقافات الأخرى.

ومنها أن الشيخ العز لم يكن رجلاً عادياً، بل كان سلطان العلماء، فلو كان متصوفاً بطريقة ومذهب لتولى ريادة القوم في ذلك، وانتشر أمره، ولم يُخف على أحد.

ومنها أن العز رحمه الله تجنب ذكر اسم التصوف والصوفية إطلاقاً في عناوين كتبه وفي أبوابه وفصوله، ولا أعتقد أن ذلك جاء منه عفواً وسهواً، بل تعمداً، مع محبته للمعاني الإسلامية الصحيحة التي يقولها معتدلو الصوفية، ومع صداقته ومحبته لكبارهم وأئمتهم في عصره،

وحضوره مجالسهم، وقراءته في كتبهم، ومع ذلك تجنب التصريح بذلك ليؤكد أنه ليس صوفياً ملتزماً.

والخلاصة أننا نرى أن العز كان صوفياً حسب قواعد الشرع، ومن الناحية الفكرية والقلبية والروحية، وبحسب المعنى العام الوارد في الشرع عن هذا الجانب التربوي في الإسلام، وأنه ملتزم بكل ما جاء في القرآن والسنة من التربية الروحية والقلبية والتهذيب النفسي، ولم يكن متصوفاً بالمعنى الاصطلاحي والعرفي، ولم ينتسب إلى طريقة يلتزم بطقوسها ومصطلحاتها وقواعدها، ولم يدخل في المتاهات الغامضة التي تحتمل الظاهر والباطن، والصحيح والفاسد، وفيها ركام طيب وخبيث، وغث وسمين، وبساطة وغموض، وشك وحقيقة وارتياب، وطعن أو سوء ظن بإطلاق الكلمات، مهما كان معناها، ومهما كان المراد منها، وقد تُحمل في أقل الأحوال على سوء الأدب مع الله تعالى وأنبيائه، سواء صدرت حال الصحو، أم حال الإغماء، وكثيراً ما تجلب سوء الظن والطعن بقائلها، ولم تصدر من إمام الأتقياء، وسيد المرسلين، ولم تسمع من صحابته الغُرِّ الميامين، ولا من التابعين والسلف الصالح، وقد تصدر منهم كلمة في حالة ما، وبسبب ما، ولكنها ليست قاعدة، أو مبدأ، أو شرعاً، أو ديناً، أو مذهباً.

فالعز مع الشرع والدين، والنصوص والأحكام، فما أجازه الشرع قال بحله، ولو كان سماعاً، وما حرمه الشرع قال بمنعه، ووقف بشكل صلب في وجه البدع والمنكرات وفي وجه التطرف والمغالاة التي تسربت إلى المسلمين بصور عديدة.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا فهم كتابه، والعمل به، والاقتداء بنبيه ورسوله، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما يعلمنا، وأن يرزقنا الإخلاص، وحسن الختام.

الخاتمة

عشنا في خلال البحث السابق مع أحد العلماء الأعلام، وأحد الدعاة الشجعان، وبعد هذه الجولة الممتعة مع شيخ الإسلام العز بن عبد السلام نصل إلى الختام، لنبين أهم النقاط فيه:

١ - يمتاز القرن السادس والسابع الهجريان، اللذان عاش فيهما العز، بالعجائب والغرائب، ووقعت فيهما الأحداث الجسيمة، من نكبات داخلية، وغزو خارجي، واحتلال لمقدسات المسلمين، ثم أعقبتها الانتصارات الباهرة، ووحدة الأمة، وتحرير البلاد والعباد.

فقد وصل العالم الإسلامي في القرن السابع إلى الدرك الأسفل من الناحية السياسية، فاحتل التتار معظم بلاد المسلمين من الشرق، وعاثوا فيها الفساد والقتل والدمار، وسيطر الفرنج والصليبيون على أكثر بلاد الشام ومصر، وكانت الحالة بائسة في المغرب العربي، وكان المسلمون يعانون سكرات الموت في الأندلس.

وأعقب ذلك اندحار التتار، وهزيمة الصليبيين، وتحرير المقدسات من رجسهم، ووحدة بلاد الشام ومصر.

كما وصلت الناحية العلمية إلى الحضيض في معظم جوانبها، فساد الجمود الفقهي والتشريعي، وظهر التعصب المذهبي، والخلافات السطحية والمبتسرة في الرأي، والانشقاق بين العلماء، والفتن بين أصحاب الفرق والعقائد، وبرز على السطح علماء سذج يقفون أحياناً كالقطط خلف الحكام والأمراء، وانتشرت الباطنية،

وعششت الأفكار الوجودية والمغالاة في التشيع والتصوف، ونضب معين العلم، إلى أن قامت الحركة العلمية من جديد على أسس سليمة، وبنيت المدارس، وكان كثير من الحكام علماء وفقهاء، ونشطت الدعوة الإسلامية، وتوفر كبار الدعاة والعلماء والفقهاء والمؤرخين والمصلحين، وتركوا ثروة علمية قيمة في الفقه والحديث، والفقه المقارن، والتاريخ واللغة، وكانت كتبهم محط أنظار المسلمين في المشرق والمغرب.

وتأكد لنا من دراسة العصر الموجزة أن صلاح الأمة والوطن يعتمد على صلاح الحكام والعلماء فمتى توفر هذان العنصران تحسنت الأحوال، وصلحت الأمور.

٢ ـ عاش سلطان العلماء العز بن عبد السلام أحداث عصره، بما فيها من فرح وترح، وعزة وذلة، وقوة وضعف، وهزيمة وانتصار، وحلو ومر، وكان المثل الأعلى للعالم العامل، والداعية المخلص، والمجاهد الصادق، والمفتي الأمين على دين الله وشرعه، والفقيه المجتهد، والمدافع القوي عن حقوق الله والشعب والأمة والوطن، والآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، والمصلح الفكري والاجتماعي والسياسي والقضائي.

٣ ـ تلمسنا في سيرة العز الشخصية بعض الجوانب النيرة في شبابه وطلبه للعلم المؤدي إلى العمل، وتأثره بشيوخه الصالحين في المواقف والأعمال، وأن العز مارس الأعمال الجليلة، والمناصب الدينية العالية كالتدريس والإفتاء والخطابة والقضاء، وأنه جاهد بقلمه ولسانه، وعلمه وبيانه، وماله وبدنه، وبيّن الصواب، ونصح الأمة والحكام، حتى ضاقت عليه مواقف الحكام في أرض الشام، فقصد ديار الله الواسعة ليهاجر إليها، ويمم وجهه شطر الديار المصرية، ليتابع وظيفته المقدسة

في إعلاء كلمة الله ودينه، ونشر العلم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة حكم الله في أرضه.

وهذا يذكرنا بموقف خالد لأحد الصحابة في دمشق بالذات، وهو عبادة بن الصامت الذي عينه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاضياً على فلسطين والشام، وكان معاوية أمير البلاد، فأصدر القاضي عبادة حكماً وفتوى شرعية، فخالفه فيها معاوية وامتنع عن تنفيذها، فقال له عبادة: «والله لا أساكنك في أرض أنت فيها» وترك عبادة عمله، ورجع إلى المدينة المنورة، وفوجىء به الخليفة عمر، وسأله عن سبب قدومه، فقص عليه ما حدث، فقال له عمر قولته المشهورة «ارجع إلى الشام، فوالله لا بارك الله في أرض لست فيها وأمثالك» وكتب إلى معاوية مقولته الخالدة في فصل القضاء واستقلاله عن الإمارة: «لا إمرة لك على عبادة»، فرجع عبادة، ونفذ الحكم الشرعي، وأقام العدل.

٤ ـ كانت مواقف العز بن عبد السلام من الأحداث مشهورة وخالدة ومشرفة، وهي التي خلدت اسمه، وأذاعت صيته، ومنحته لقب «سلطان العلماء»، وكانت مكانته ومهابته في القمة، مما يحسده عليه الملوك والحكام.

٥ ـ شارك العز رحمه الله في النشاط العلمي، والتفتح العقلي والفكري، وأعلن صيحته في فتح باب الاجتهاد، والدعوة إلى الاستنباط، والنعي على التقليد والتعصب الأعمى، وحارب البدع، والخرافات التي لحقت المسلمين، وجدد الدعوة والالتزام بكتاب الله وسنته، وما عليه السلف الصالح، والتعمق في أسرار الشرع، ومقاصد الدين وغايات التشريع التي تحقق السعادة للناس في الدنيا والآخرة.

٦ ـ ظهر لنا من عصر العز وسيرته أن الدنيا كرٌ وفر، وإدبار وإقبال، وخير

وشر، ورخاء وشدة، وهزيمة وانتصار، وصـراع دائم بين الحق والباطل، ولكن في النتيجة لا يبقى إلا الصالح، ولا يستمر إلا الحق، ﴿فأمّا الزَّبَدُ فيذهبُ جُفَاء، وأمَّا ما ينفعُ النَّاسَ فيمكثُ في الأرض﴾، وظهر في عصره طغاة وظلمة، وقادة ومصلحون، وخونة وعبيد للسلطة والكرسي، ومجاهدون وأبطال، ومضى الزمن، فخلد التاريخ أسماء الصالحين والمصلحين والمجاهدين، ومجّد أعمالهم، وسطر اللعنة الدائمة على الخونة والمستبدين والعملاء المـأجورين، والـظلمة والمتخاذلين.

٧ ـ اتسم العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى بالصفات الكاملة خَلْقاً وخُلُقاً، وتمثلت فيه الأخلاق الإسلامية المقررة في القرآن والسنة والسيرة النبوية، كالورع والزهد...

٨ ـ اشتهر العز بالمواقف الخالدة التي سطرها التاريخ بأحرف من نور، وجعلت من العز نبراساً للمدرسة الإسلامية للدعاة والعلماء في إعلاء الحق، والحفاظ على الشرع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوقوف في وجه الانحراف والباطل، والبدع والظلم، ولو صدر من الحكام، لا يخشى في الله لومة لائم.

٩ ـ ظهرت شخصية العز العلمية بما قدمه في حياته، وما خلفه من آثار بعد وفاته، فكان مفتياً فقيهاً مجتهداً أصولياً مفسراً مربياً في الدرجة الأولى، وشارك في الحديث وعلم التوحيد والعقيدة والسيرة النبوية في الدرجة الثانية، وصنف في كل هذه العلوم، وكانت أعظم كتبه ومصنفاته كتاب «قواعد الأحكام» و«الإشارة إلى الإيجاز في بعض مجاز القرآن»، ولا يقل عنهما أهمية كتاب «شجرة المعارف والأحوال» و«الغاية في اختصار النهاية»، وطبعت بعض كتبه، وبقي بعضها مخطوطاً، وفقد قسم ثالث.

١٠ ـ كانت سيرة العز الشخصية والعلمية محط الأنظار في مجالس العلم والعلماء، وكانت موئل الباحثين والمؤلفين والدارسين والدعاة في الماضي والحاضر، وستبقى منارة وإشعاعاً، ومصدر الخير للمستقبل.

١١ ـ وأخيراً ننتهي من حيث بدأنا أن العلماء ورثة الأنبياء، وهم مصابيح الدجى، ومنارات الهدى، وأمل الأمة، وموطن الرجاء، وأن التاريخ يعيد نفسه، وما أشبه اليوم بالبارحة، وأن الحق يعلو ولا يعلى عليه، وأن النكبات والمآسي التي تقع بالمسلمين وأرضهم وبلادهم ومقدساتهم هي من دائرة الاختبار الإلهي، والامتحان للناس، ليتميز الخبيث من الطيب، ويرتفع أقوام، ويذل آخرون، ويتمحّص التِبر من التراب، وأن النتيجة الحتمية أن يبقى الدين عالياً، والإسلام شامخاً، والرسالة المحمدية خالدة، وأن الله تعالى حفظ هذا الدين، وأن معجزة الرسول ﷺ ستتكرر في كل عصر، تحقيقاً للحديث الشريف «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون».

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من العلماء العاملين، والأصفياء المخلصين، ومن حملة الحق والخير والنور، وأن يكتبنا من الرابحين الفائزين، وأن يلهمنا رشدنا، ويأخذ بأيدينا إلى الرشاد، وأن يُهيىء لهذه الأمة أمراً يُعز فيه أولياءه، وينصر دينه، وأن يرد عنا كيد الأعداء الماكرين، وأن يردنا إلى ديننا رداً جميعاً للعمل بكتابه وسنة نبيه وإقامة شرعه، لنحظى بالسعادة في الدنيا، والفوز والرضا والنعيم في الآخرة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الدكتور محمد الزحيلي

وكيل كلية الشريعة للشؤون العلمية

الأستاذ بجامعة دمشق

فهـــرس المصَادر وَالمـَراجع

١ ـ الإحكام في أصول الأحكام، للعلامة علي بن أبي علي الآمدي (٦٣١ هـ).

ـ مؤسسة الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٦٧.

٢ ـ أحكام القرآن، أحمد بن علي الجصاص الرازي (٣٧٠ هـ).

ـ المطبعة البهية المصرية، القاهرة ـ ١٣٤٧ هـ.

٣ ـ أحوال الناس وذكر الخاسرين والرابحين منهم، للإمام العلامة سلطان العلماء العز بن عبد السلام (٦٦٠ هـ)، تحقيق مجدي فتحي السيد.

ـ نشر دار الصحابة للتراث، مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، بدون تاريخ.

٤ ـ أساس البلاغة، لجار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨ هـ).

ـ طبعة دار الشعب ـ القاهرة ـ ١٩٦٠م.

٥ ـ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، للإمام الحافظ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام (٦٦٠ هـ).

ـ تصوير دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ـ ١٤٠٨ هـ/١٩٨٧ م.

٦ ـ الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١ هـ).

ـ طبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ـ ١٣٧٨ هـ/١٩٥٩ م.

٧ ـ الأشباه والنظائر، لزين الدين بن إبراهيم، المعروف بابن نجيم الحنفي (٩٧٠ هـ).

- طبعة مؤسسة الحلبي - القاهرة - ١٣٨٧ هـ/١٩٦٨ م.
٨ - أصول الفقه الإسلامي، للدكتور محمد الزحيلي.
- مطابع مؤسسة الوحدة - دمشق - ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م.
٩ - أصول الفقه الإسلامي، للدكتور وهبة الزحيلي.
- طبع دار الفكر - دمشق - ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م.
١٠ - أصول المحاكمات الشرعية والمدنية، للدكتور محمد الزحيلي.
- مطابع مؤسسة الوحدة - دمشق - ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م.
١١ - الأعلام، خير الدين الزركلي.
- الطبعة الثالثة، بيروت - ١٣٨٩ هـ/١٩٦٩ م.
- الإمام الجويني = الجويني.
١٢ - الإمام العز بن عبد السلام، سلطان العلماء، للدكتور علي الفقير.
- دار أنس بن مالك - عمان - الأردن - ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩ م.
١٣ - الإمام في بيان أدلة الأحكام، للإمام الحافظ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام (٦٦٠ هـ).
- دراسة وتحقيق رضوان مختار بن غربيّة.
- طبع دار البشائر الإسلامية - بيروت - ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧ م.
١٤ - الإمام النووي، للأستاذ الشيخ عبد الغني الدقر.
- دار القلم - دمشق - الطبعة الثالثة - ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧ م.
١٥ - الإمام النووي، للأستاذ الشيخ علي الطنطاوي.
- دار الفكر بدمشق - الطبعة الأولى - ١٣٨٠ هـ/١٩٦٠ م.
١٦ - بدائع الزهور في وقائع الدهور، محمد بن إياس الحنفي المصري (نحو ٩٣٠ هـ).
- طبع دار الشعب - مختارات منه - القاهرة - ١٩٦٠ م.
١٧ - بداية السول في تفضيل الرسول، تأليف العز بن عبد السلام (٦٦٠ هـ).

- تعليق محمد أديب كلكل.
- طبع مكتبة دار الدعوة - حماة - بدون تاريخ.
١٨ - البداية والنهاية، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٧٤ هـ).
- تصوير مكتبة المعارف - بيروت - ومكتبة النصر - الرياض - ١٩٦٦ م.
١٩ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني (١٢٥٠ هـ).
- مطبعة السعادة - الطبعة الأولى - القاهرة - ١٣٤٨ هـ.
٢٠ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١ هـ).
- طبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة - ١٣٨٤ هـ/١٩٦٥ م.
٢١ - البيضاوي، القاضي البيضاوي، للدكتور محمد الزحيلي.
- دار القلم - دمشق - ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م.
٢٢ - تاريخ العصر الأيوبي، للدكتورة أمينة البيطار.
- دار الطباعة الحديثة - دمشق - كتاب جامعي - ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م.
٢٣ - تاريخ القضاء في الإسلام، للشيخ القاضي محمود بن محمد بن عرنوس.
- المطبعة المصرية الأهلية الحديثة - القاهرة - ١٣٥٢ هـ/١٩٣٤ م.
٢٤ - تاريخ المذاهب الإسلامية (والفقهية)، للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة (١٩٧٤ م).
- طبع دار الثقافة العربية للطباعة - عابدين، القاهرة - بدون تاريخ.
٢٥ - تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر (٥٧١ هـ).

- تصوير مطبعة التوفيق بدمشق عن طبعة القدسي بالقاهرة - ١٣٤٧ هـ.
٢٦ - تذكرة الحفاظ، للحافظ أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (٧٤٨ هـ).
- تصوير إحياء التراث العربي عن طبعة وزارة المعارف الحكومية بالهند - بدون تاريخ.
٢٧ - تراجم رجال القرنين السادس والسابع = الذيل على الروضتين، للحافظ المؤرخ شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل، المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي (٦٦٥ هـ).
- تصوير دار الجيل بيروت - الطبعة الثانية ١٩٧٤ م، عن الطبعة الأولى ١٩٤٧ م.
٢٨ - ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام، للعلامة أبي محمد عبد العزيز بن عبد السلام (٦٦٠ هـ).
- تحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي أمرير الميادين.
- منشورات المكتبة العالمية - بغداد - ١٩٨٧ م.
٢٩ - الترغيب والترهيب، للحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (٦٥٦ هـ).
- مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - الطبعة الثالثة - ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م.
٣٠ - ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب، المرتضى الزبيدي (١٢٠٥ هـ).
- مطبعة الترقي - دمشق - ١٣٨٨ هـ/١٩٦٩ م، ت صلاح الدين المنجد.
٣١ - تعريف عام بالعلوم الشرعية، للدكتور محمد الزحيلي.
- طبع دار طلاس - دمشق - ١٩٨٨ م.

٣٢ ـ التعريفات، للسيد الشريف علي بن محمد الجرجاني الحنفي (٨١٦ هـ).
ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ـ ١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م.
٣٣ ـ تفسير ابن كثير، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (٧٧٤ هـ).
ـ طبع عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.
٣٤ ـ جامع الترمذي مع تحفة الأحوذي = سنن الترمذي، للحافظ عيسى بن سورة الترمذي (٢٧٩ هـ).
ـ مطبعة المدني ـ القاهرة ـ طبعة ثانية ـ ١٣٨٤ هـ/١٩٦٤ م.
٣٥ ـ الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، لإبراهيم بن أيدمر العلائي، المعروف بابن دقماق (٨٠٩ هـ).
ـ نشر مركز البحث العلمي والتراث الإسلامي بمكة المكرمة ـ ١٤٠٣ هـ/١٩٨٢ م.
٣٦ ـ الجويني، إمام الحرمين، للدكتور محمد الزحيلي.
ـ دار القلم ـ دمشق ـ ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م.
٣٧ ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١ هـ).
ـ طبع عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م.
٣٨ ـ دستور العلماء = جامع العلوم، عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري.
ـ الطبعة الأولى ـ الهند ـ بدون تاريخ.
٣٩ ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (المالكي)، للقاضي برهان الدين إبراهيم بن علي، ابن فرحون المالكي اليعمري (٧٩٩ هـ).
ـ الطبعة الأولى ـ مصر ـ ١٣٥١ هـ.

- ذيل الروضتين = تراجم القرنين السادس والسابع.
٤٠ - ذيل مرآة الزمان، للشيخ قطب الدين موسى بن محمد اليونيني (٧٢٦ هـ).
- طبع حيدر آباد الدكن - الهند - الطبعة الأولى - ١٣٧٤ هـ/١٩٥٤ م.
٤١ - رفع الإصر عن قضاة مصر، للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ).
- المطبعة الأميرية - القاهرة - ١٩٥٧ م.
- الروضتين = كتاب الروضتين.
٤٢ - رياض الصالحين مع نزهة المتقين، للإمام يحيى بن شرف النووي (٦٧٦ هـ).
- مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثانية - ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م.
٤٣ - سنن الدارمي، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (٢٥٥ هـ).
- طبع دار الكتب العلمية (تصوير) - بيروت - بدون تاريخ.
٤٤ - سنن أبي داود، للحافظ سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥ هـ).
- طبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر - ١٣٧١ هـ/١٩٥٢ م.
٤٥ - سنن ابن ماجه، للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٧٥ هـ).
- طبعة دار إحيار الكتب العربية - مصر - ١٣٧٢ هـ/١٩٥٢ م.
٤٦ - سير أعلام النبلاء، للحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨ هـ).
- مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠١ هـ/١٩٨١ وما بعدها.
٤٧ - شجرة المعارف والأحوال، لسلطان العلماء العز بن عبد السلام (٦٦٠ هـ).

ـ نشر دار الطباع للطباعة ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١٠ هـ/١٩٨٩ م.
٤٨ ـ صحيح البخاري، للحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦ هـ).
ـ دار القلم ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م.
٤٩ ـ صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٦١ هـ).
ـ المطبعة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى (مع شرح النووي) ـ بدون تاريخ.
٥٠ ـ الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، لأبي الفضل جعفر بن ثعلب الإدفوي (٧٤٨ هـ).
ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ مصر ـ ١٩٦٦ م.
٥١ ـ طبقات الشافعية، عبد الرحيم الإسنوي، جمال الدين (٧٧٢ هـ).
ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧ م.
٥٢ ـ طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن السبكي (٧٧١ هـ).
ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٨٣ هـ/١٩٦٤ م وما بعدها.
٥٣ ـ الطبقات الكبرى، عبد الوهاب بن أحمد الأنصاري، الشعراني (٩٧٣ هـ).
ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٧٣ هـ/١٩٥٤ م.
٥٤ ـ طبقات المفسرين، لشمس الدين محمد بن علي الداودي (٩٤٥ هـ).
ـ نشر مكتبة وهبة ـ عابدين ـ القاهرة ـ ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م.
٥٥ ـ طرق تدريس التربية الإسلامية، للدكتور محمد الزحيلي.

- المطبعة الجديدة - دمشق - كتاب جامعي - ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م.
٥٦ - العبر في خبر من عبر، للمؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (٧٤٨ هـ).
- مطبعة حكومة الكويت - الكويت - ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦ م.
٥٧ - عجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب، للحافظ محمد بن أبي عثمان الحازمي الهمداني (٥٨٤ هـ).
- الهيئة العامة للمطابع الخيرية - القاهرية - ١٣٨٤ هـ/١٩٦٥ م.
٥٨ - عز الدين بن عبد السلام، للأستاذ محمد حسن عبد الله.
- نشر مكتبة وهبة - القاهرة - ١٩٦٢ م.
٥٩ - العز بن عبد السلام، للأستاذ رضوان الندوي - وتقديم الدكتور مصطفى السباعي.
- دار الفكر - دمشق - ١٣٧٩ هـ/١٩٦٠ م.
٦٠ - العز بن عبد السلام، حياته وآثاره ومنهجه في التفسير، للدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهيبي.
- المطبعة السلفية - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م.
٦١ - عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، للأستاذ محمود سليم رزق.
- مطبعة التوكل بمصر - ١٣٦٦ هـ/١٩٤١ م.
٦٢ - عيون الأخبار، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينوري (٢٧٦ هـ).
- المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة - تصوير عن طبعة دار الكتب - ١٣٨٣ هـ/١٩٦٣ م.
٦٣ - الغاية القصوى في دراية الفتوى، للقاضي عبد الله بن عمر البيضاوي (٦٨٥ هـ).
- دار النصر للطباعة الإسلامية - مصر - ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م.

٦٤ ـ الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير للسيوطي، ترتيب يوسف النبهاني (١٣٥٠ هـ/١٩٣٢ م).
ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ـ ١٣٥٠ هـ.

٦٥ ـ الفتح المبين في طبقات الأصوليين، للشيخ عبد الله مصطفى المراغي.
ـ الطبعة الثانية ـ تصوير ـ بيروت ـ ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م.

٦٦ ـ الفتاوى، للإمام العز بن عبد السلام (٦٦٠ هـ)، ت عبد الرحمن بن عبد الفتاح.
ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م.

٦٧ ـ فتاوى سلطان العلماء، للعز بن عبد السلام (٦٦٠ هـ)، ت مصطفى عاشور.
ـ نشر مكتبة القرآن ـ القاهرة ـ ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧ م.

٦٨ ـ الفوائد البهية في تراجم الحنفية، أبو الحسنات محمد بن عبد الحي اللكنوي (١٣٠٤ هـ).
ـ تصوير دار المعرفة ـ بيروت ـ عن طبعة كراتشي ـ ١٣٩٣ هـ.

٦٩ ـ الفوائد في مشكل القرآن، للعز بن عبد السلام (٦٦٠ هـ)، ت رضوان الندوي.
ـ مطبوعات وزارة الأوقاف ـ المطبعة العصرية ـ الكويت ـ ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م.

٧٠ ـ الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، محمد بن علي الشوكاني (١٢٥٠ هـ).
ـ مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٨٠ هـ/١٩٦٠ م.

٧١ ـ فوات الوفيات، محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي (٧٦٤ هـ).
ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ ١٩٥١ م.

٧٢ - فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد عبد الرؤوف المناوي (١٠٣١ هـ).
- مطبعة مصطفى محمد - القاهرة - ١٣٥٦ هـ/١٩٣٨ م.
- القاضي البيضاوي = البيضاوي.
٧٣ - قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للإمام المحدث الفقيه سلطان العلماء، أبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي (٦٦٠ هـ).
٧٤ - الكامل في التاريخ، لعز الدين علي بن محمد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري (٦٣٠ هـ).
- طبعة بولاق.
٧٥ - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، لشهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الشافعي، المعروف بأبي شامة (٦٦٥ هـ).
- مطبعة وادي النيل بمصر - القاهرة - ١٢٨٧ هـ.
٧٦ - كشاف اصطلاحات الفنون، لمحمد أعلى بن علي التهانوي (١١٥٨ هـ).
- تصوير عن طبعة كلكتا بالهند - ١٨٦٢ هـ.
٧٧ - كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، لإسماعيل بن محمد العجلوني (١١٦٢ هـ).
- مطبعة الفنون - حلب.
٧٨ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله، كاتب جلبي حاجي خليفة (١٠٦٧ هـ).
- طبعة استنبول - ١٣٥١ هـ.
٧٩ - لب الألباب في تحرير الأنساب، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١ هـ).
- تصوير بالأوفست - مكتبة المثنى - بغداد، بدون تاريخ.

٨٠ ـ المجموع شرح المهذب، لمحيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦ هـ).
ـ مطبعة الإمام ـ القاهرة، مطبعة العاصمة ـ القاهرة، بدون تاريخ.
٨١ ـ المدخل الفقهي العام، للعلامة الأستاذ مصطفى أحمد الزرقاء.
ـ مطبعة جامعة دمشق ـ الطبعة السادسة ـ دمشق ـ ١٣٨٧ هـ/١٩٥٩ م.
٨٢ ـ مرآة الجنان وعدة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، عبد الله بن أسعد اليافعي (٧٦٨ هـ).
ـ منشورات مؤسسة الأعظمي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠ م.
٨٣ ـ مرجع العلوم الإسلامية، للدكتور محمد الزحيلي.
ـ دار المعرفة ـ دمشق ـ ١٤١١ هـ/١٩٩١ م.
٨٤ ـ المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله، أبو عبد الله الحاكم (٤٠٥ هـ).
ـ طبع حيدر آباد ـ الهند ـ سنة ١٣٣٥ هـ.
٨٥ ـ مسند أحمد، للإمام أحمد بن حنبل (٢٤٣ هـ).
ـ تصوير المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م.
٨٦ ـ معجم المفسرين من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر، عادل نويهض.
ـ مؤسسة نويهض الثقافية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م.
٨٧ ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، لأحمد بن مصطفى، طاش كبري زاده (٩٦٨ هـ).
ـ طبع دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ـ ١٩٦٨ م.

٨٨ ـ من قضايا الرأي في الإسلام، للأستاذ أحمد حسين.
ـ نشر المؤسسة المصرية العامة ـ دار الكاتب العربي ـ مصر، بدون تاريخ.
٨٩ ـ المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨٧٤ هـ).
ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ سنة ١٣٧٥ هـ/١٩٥٦ م.
٩٠ ـ الموافقات في أصول الأحكام، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي (٧٩٠ هـ).
ـ مطبعة المدني بمصر ـ نشر مكتبة صبيح وأولاده ـ ١٩٧٠ م.
٩١ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للمؤرخ أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (٧٤٨ هـ).
ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ مصر ـ ١٣٨٢ هـ/١٩٦٣ م.
٩٢ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨٧٤ هـ).
ـ تصوير عن طبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة؛ ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣٠ م.
٩٣ ـ نزهة المتقين شرح رياض الصالحين للنووي، الخن، البغا، شربجي، مستو، لطفي.
ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م.
٩٤ ـ النقاية متن إتمام الدراية، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١ هـ).
ـ المطبعة الأدبية ـ القاهرة ـ ١٣١٧ هـ ـ على هامش مفتاح العلوم.
٩٥ ـ نَكْت الهَمَيان في نُكت العميان، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (٧٦٤ هـ).
ـ المطبعة الجمالية ـ القاهرة ـ ١٣٩٢ هـ/١٩١١ م.

٩٦ ـ نهاية السول شرح منهاج الأصول، لجمال الدين عبد الرحيم بن الحسن الإسنوي (٧٧٢ هـ).
ـ تصوير عالم الكتب ـ بيروت ـ ١٩٨٢ م عن المطبعة السلفية ـ ١٣٤٥ هـ.
٩٧ ـ النوادر السلطانية أو سيرة صلاح الدين، بهاء الدين بن شداد (٦٣٢ هـ).
ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٦٤ م.
٩٨ ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج، لأبي العباس أحمد بن أحمد التنبكتي (١٠٣٥ هـ).
ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٥١ هـ ـ على هامش كتاب الديباج المذهب.
٩٩ ـ هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ـ لإسماعيل باشا البغدادي (١٣٣٩ هـ).
ـ مكتبة المثنى ـ بغداد.
١٠٠ ـ وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي.
ـ نشر دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ بدون تاريخ.
١٠١ ـ وسائل الإثبات في الشريعة الإسلامية، للدكتور محمد الزحيلي.
ـ دار البيان ـ دمشق ـ ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م.
١٠٢ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبْناء الزمان لأبي العباس أحمد بن محمد بن خلِّكان (٦٨١ هـ).
ـ مطبعة السعادة ـ مصر ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٦٧ هـ/١٩٤٨ م.

* * *

فهرس أطراف الأحاديث الواردة في الكتاب

طرف الحديث	الصفحة
١٨ ـ «قصة أبي طلحة، وعمر بن الخطاب عندما نزلت ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا﴾...»	١٠٨
١٩ ـ «كلا، والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهوُنَّ عن المنكر...»	١٣١
٢٠ ـ «مثل الجليس الصالح، والجليس السوء...»	٦٤
٢١ ـ «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث أصاب أرضاً...»	٧٢
٢٢ ـ «مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً، فقال النبي ﷺ: وجبت...»	١٩٣
٢٣ ـ «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده...»	١١٩
٢٤ ـ «من سئل عن علم فكتمه، ألجمه الله بلجام من نار...»	٧٥
٢٥ ـ «من طلب القضاء، واستعان عليه، وُكل إلى نفسه...»	٩٩
٢٦ ـ «نَضَّر الله أمرأً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يُبلِّغه...»	٧٣
٢٧ ـ «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف...»	١١٩
٢٨ ـ «يا أيّها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية... كلا والله، لتأمرن بالمعروف...»	١٣١
٢٩ ـ «يا عبد الله، لا تسأل الإمارة...»	٩٨
٣٠ ـ «يُستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون... ما أقاموا الصلاة...»	١٢٣
٣١ ـ «يوشك أن تداعى عليكم الأمم...»	١٠
٣٢ ـ «لا تزال طائفة من أمتي، قائمة بأمر الله...»	٨، ١٣٣

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

من آثار المؤلف

١ ـ أدب القضاء، لابن أبي الدم الحموي ـ تحقيق.
٢ ـ شرح الكوكب المنير في أصول الفقه، لابن النجار الفتوحي ـ أربع مجلدات ـ تحقيق بالاشتراك.
٣ ـ المهذب في الفقه الشافعي، لأبي إسحاق الشيرازي ـ قسم العبادات.
٤ ـ وسائل الإثبات في المعاملات المدنية والأحوال الشخصية في الشريعة الإسلامية.
٥ ـ أصول الفقه الإسلامي ـ كتاب جامعي.
٦ ـ وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه.
٧ ـ طرق تدريس التربية الإسلامية ـ كتاب جامعي.
٨ ـ أصول المحاكمات الشرعية والمدنية ـ كتاب جامعي.
٩ ـ العقود المسماة (شرح القانون المدني مقارناً بالفقه الإسلامي)، كتاب جامعي.
١٠ ـ التنظيم القضائي في الفقه الاسلامي وتطبيقه في المملكة العربية السعودية.
١١ ـ الإمام الجويني ـ من سلسلة أعلام المسلمين.
١٢ ـ القاضي البيضاوي ـ من سلسلة أعلام المسلمين.
١٣ ـ الإمام الطبري ـ من سلسلة أعلام المسلمين.

١٤ ـ تعريف عام بالعلوم الشرعية.
١٥ ـ مرجع العلوم الإسلامية.
١٦ ـ الاعتدال في التدين.
١٧ ـ الإسلام والشباب.
١٨ ـ إحياء الأرض الموات.
١٩ ـ العز بن عبد السلام ـ من سلسلة أعلام المسلمين.
٢٠ ـ بحوث عن القواعد الفقهية، نظرية الفساد والبطلان، الاجتهاد الفقهي في بلاد الشام في العصر الأموي، مقاصد الشريعة، التعويض عن الطلاق، الإسلام بين الماضي والحاضر، مرض الموت، التعريف بأشهر الأعلام وبعض الكتب، العروبة عند إقبال عقيدة وفكراً، التربية النبوية، الفرص الوظيفية لخريجي الجامعات الإسلامية، الإيمان أساس الأمن.

* * *